أونوريه دى بلزاك

ابنة البخيل

روائع القصص العالمى

روايات الهلال

روايات الهلال

REWAYAT AL-HILAL

تصدر عن : دار الهلال شركة مساهمة مصرية

رئيسا تحريرها : اميل زيدان وشكري زيدان

مدير التحرير : طاهر الطناحي

العدد ٤١ * مايو ١٩٥٢ * شعبان ١٣٧١

No. 41 ★ May 1952

كلمة التحرير

هذه الرواية من « الكوميديا الانسانية » التى وضعها بلزاك فى عدة روايات اختار لكل منها جانبا من النقص الانسانى ومهزلة الطبائع البشرية ، وجعله موضوعا لروايته يصور فيه هذا النقص ، ويبرز فيه مساوئه ومبلغ جنايته على الفرد والمجتمع

وقد تناول فى « ابنة البخيل » غريزة البخل وكيف تتمكن من صاحبها ، فتتغلب على غرائز الخير فيه ، وعلى كل عاطفة من عواطفه الكريمة حتى عاطفة الأبوة ٠ وصور هذه الغريزة فى أعنف وأغرب صورها ، وقدم البخيل فى صورته البشعة ، وكما هو فى حياته الدنيئة مع نفسه ، ومع أهله ، ومع الناس ٠ وأرانا الى جانب ذلك صورة أخرى من النقص الانسانى ، هى صورة الطمع الماكر فى ابنة البخيل ، وكيف تعيش موضع ملاحقة متواصلة من المعجبين بمالها لا بجمالها ، والطامعين فى ثرائها لا فى محاسنها وبهائها ، فلا تعرف لها محبا مخلصا أو زوجا وفيا حتى لتتمثل مأساتها المروعة فى عبارتها الاخيرة التى تنطق بها فى مرارة مخاطبة خادمتها :

« ليس فى الدنيا من يحبنى حقا سواك يا نانون !٠٠ »

وقد اعتبر النقاد هذه الرواية من أقوى قصص بلزاك ، وهو فيها صاحب رسالة اجتماعية لاصلاح الفرد والمجتمع وتقويم غرائز الانسان ، والسمو به الى حياة أسعد وأرقى



أما الرواية التالية ، فهى « مأساة مايرلنج » للقصصي المؤرخ بول ريبو ٠ وهو يتناول أروع حادث حب فى أواخر القرن التاسع عشر راح ضحيته الارشيدوق رودلف ولى عهد النمسا ، وعشيقته الحسناء البارونة مارى فتسيرا ٠ وقد تساءل العالم بأسره فى ذلك الحين عن هذا الحادث المروع : أجناية هو ، أم انتحار ؟٠٠ وعلق أهمية كبرى على الوقوف على أسراره ، لأن الرصاصتين اللتين ذهبتا بروحى هذين العاشقين رددتهما مدافع الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ ٠ وقد استطاع المؤلف بما حصل عليه من وثائق خطيرة أن يجلو أسرار هذه المأساة ، وأن يوقف القارىء على حقائقها فى هذه الرواية الشائقة

ابنة البخيل

بكوف

تأليف

الروائى الفرنسى

أونوريه دى بلزاك

ترجمة

دار الهلال بمصر

شخصيات الرواية

جراندیه : صانع براميل فرنسى فى الستين من عمره، جمع ثروة كبيرة واقتنى مزارع وبساتين للنبيذ لكنه شديد البخل والتقتير لا هم له إلا جمع الذهب والفضة وكنزهما

أوجين : الابنة الوحيدة لجرانديه الثرى العجوز البخيل ، فى العشرين من عمرها ، ذات جمال طبيعى ، وتعيش مع والديها عيشة الريفيات البسيطات

شارل جرانديه : ابن أخ لجرانديه يدعى فيكتورانج وليم جرانديه ، نشأ الابن فى باريس حيث كان أبوه من نوابها ورجال الأعمال فيها ثم أفلس ، وشب لا يعرف إلا التأنق واللهو

نانون : خادمة أسرة جرانديه الريفية ، جاوزت الأربعين وما زالت قوية البنية ، شديدة الاخلاص لمخدوميها برغم دمامتها

دى جراسان : مالى كبير ، يعيش وزوجته باقليم سومور جيراناً وأصدقاء لأسرة جرانديه ، ويطمعان فى تزويج ابنهما « أودلف » من ابنته

كروشو : مسجل عقود فى إقليم سومور ، وصديق حميم لجرانديه

الأب كروشو : عميد آل كروشو وكاهن الاقليم

دى بونفون : قاض شاب من آل كروشو يطمع كذلك فى الزواج من أوجين وارثة الثرى العجوز البخيل

دوبريون : نبيل باريسى مقرب من الملك شارل العاشر ، أضاع باسرافه ما كان لزوجته من ضياع فى جزر الهند الغربية ، ولهما ابنة دميمة الخلقة ، أغريا شارل جرانديه بالزواج منها

مؤلف الرواية



كان فى العشرين من عمره حينما أتم دراســـاته العاليــة فى القانون والآداب سنة ١٨١٩ . وأراد أبواه وأفراد أسرته أن يعمل محاميـا لكنه أبى الا أن يتفرغ للشعر والتأليف ، وغادر قرية « فيلباريسى » مقر أسرته قاصدا الى باريس حيث أقام وحـده بغرفة صغيرة متواضعة ، وأخذ يقضى نهـاره فى الدرس والبحث والطواف فى العاصمة الكبيرة ، ثم يعود لغرفته فى المساء فيعد طعامه بنفسه ويمضى ساعات فى الكتابة على ضوء شمعة أو مصباح صغير .

ولم تلق مسرحيته الأولى « كرومويل » ما كان يرجو من نجاح ، وكذلك رواياته الشعرية والنثرية الاخرى التى ألفها فى ذلك الحين ومن بينهـــا : « القرصان » و « القديس لويس » و « روبير دى نورماندى » و « سيللا » . فاضطر الى العودة لقريته اذ عجز عن تدبير أمر معيشته بنفســـه بعد أن انقطعت عنه الاعانة المالية التى كان يتلقاها من أبيه . وعبثا حاول هـــذا أن يقنعه بترك الكتابة والالتحاق باحدى الوظائف الحكومية أو التجارية ، اذ كان لا يطيق قيود الوظيفة ولم يداخله اليأس من أن يصير كاتبا عظيما كما يريد .

وفى سنة ١٨٢٢ عاد لباريس مع أسرته التى انتقلت اليها ، وأخرج كثيرا من الروايات بأسماء مستعارة ، ثم عمل فى الصحافة وكتب فصولا مختلفة فى الادب والفن والتاريخ والعلوم النفسية والتجـارة والصناعة وغيرها . ونشرت له سلسلة من الروايات البوليسية وقصص المغامرات والاقاصيص الصغيرة بلغ عددها حوالى الاربعين ، لكنه لم يكن راضيا عن أكثرها .

وبقى على ذلك سنين، يكتب ليعيش ، ويواصل البحث والدرس والاطلاع، وعرف قلبه الحب خلال ذلك غير مرة ، لكنه لم يوفق فى حبه وبقى يعد أخته « لور » صديقته ومرشدته الاولى ويكتب اليها بعد أن تزوجت ليبثها ذات

نفسه ويشكو اليها ما يجد من فشل فى الحب وما يلقاه من معاكسات الاقدار وسوء معاملة الناشرين

وأخيرا ، رثى لحاله صديق له من أصحاب المكتبات ، فأخذ على عاتقه نشر مؤلفاته . ومنذ ذلك الحين بدأ « هونوريه دى بلزاك » يصعد سلم الشهرة والمجد الادبى فى سرعة فائقة ، واشتد الاقبال على مؤلفاته . وقد بلغ عددها حوالى المائة خلال السنين العشرين التى عاشها بعد ذلك حتى توفى يوم ٢٠ من أغسطس سنة ١٨٥٠ غير متجاوز احدى وخمسين سنة

ومنذ سنتين احتفلت فرنسا بمرور ١٠٠ سنة على وفاة بلزاك . وأجمع النقاد الفنيون فى العالم كله على أن انتاجه الفكرى الغزير خليق به أن يسلكه فى عداد عباقرة المفكرين والكتاب العالميين

وما زالت المسارح فى فرنسا وغيرها تتسابق الى اخراج مسرحياته الشعرية والنثرية ، كما أن كتبه ورواياته العديدة المفيدة ترجمت الى أكثر اللغات الحية وطبع كل منها عشرات المرات . ويؤخذ من احصاء رسمى قامت به الحكومة الفرنسية أن مؤلفات بلزاك ظلت تعد أوسع المؤلفات الفرنسية انتشارا حتى قبيل الحرب العالمية الاخيرة

ومن بين رواياته الرائعة الأخرى : «المهزلة البشرية» و «الحياة العائلية» و « الحياة الباريسية » و « الحياة العسكرية » و «البائع المتجول» و « المجرم النبيل » و « بدء الحياة »



ثروة العمدة السابق !

فى بلدة « سومور » منزل لعله أشد كآبة ووحشة من الاطلال والمنازل الخربة ، وهو قائم فى نهاية الشارع المنحدر المؤدى الى القصر المبنى فى أقصى البلدة .. وهو شارع بالغ الهـــدوء فى هذه الأيام ، تشتد فيه الحرارة فى الصيف ، كما يشتد فيه البرد فى الشتاء ، وتسود الظلمة بعض مواضعه ليل نهار ، بسبب ضيقه والتواءاته المتعددة

وأغرب ما فى أمره ذلك الصدى الخاص الذى يردده لكل صوت يرن فوق أرضه ، فان الاحجار التى رصف منهـا ، والتى تبدو دائما نظيفة جافة ، تضاعف وقع كل قدم تخفق فوقها !. ويعد الحى الذى يقوم فيه هذا المنزل أقدم أحياء البلدة ، فمنازله أو أكثرها ترجع الى ما قبل ثلاثة قرون . وهى برغم انها مشيدة من الخشب ما زالت قوية ثابتة . ولكل منزل منها طابعه الخاص ، مما جعل ذلك الحى أحب أحياء « سومور » الى الفنان المولع بالأماكن الأثرية العتيقة !

ولن تجد فى هذا الشارع حوانيت على الاطلاق ، على أن بعض حجرات الطبقات الأرضية من مبانيه أعدت لتعرض فيها المبيعات ، وهى حجرات معتمة منخفضة السقف ، ليست لها واجهات زجاجية تعرض فيها البضائع، ولا تبذل أى محاولة لتزيينها من الخارج أو الداخل أو لعرض محتوياتها بصورة تغرى بالشراء !

وأكثر أبواب هذه الحجرات مثقلة بالعوارض الحديدية ، ومؤلفة من : جزء علوى يفتح خلال النهار فيدخل منه الهواء وضوء النهار ، وجزء تحته مثبت به جرس يدق كلما دفعه شخص ليدخل منه . وهناك يجد أمامه أكداسا مكدسة من البضاعة فى غير تنسيق ، فهذا « برميل » أو أكثر تحتوى على الملح أو السمك المملح ، والى جوارها أكوام من أشرعة المراكب أو الحبال ، وبعض الأسلاك النحاسية ، والأقمشـــــة المختلفة ، وعشرات من السلع والمنتجات

وفى أكثر الأحيان ، تتلقى الداخل الى هذا الحانوت أو الكهف المظلم الرطب الصغير فتاة حسنة الهندام ذات ذراعين عاريتين حمراوين ونظرات حلوة تنم عن طراوة الشباب ، قد لفت رقبتها بمنديل أبيض ، ثم تدع أشـــغال الابرة التى كانت منهمكة فيها لتدعو أمها أو أباها ، لاجراء الصفقة التى يرغب الداخل فى اتمامها ، سواء أكانت قيمتها أقل من فرنك ، أم كانت تبلغ ألوف الفرنكات !

والتجارة فى هذه المنطقة ـ كما هو الشأن فى منطقة «تورين» كلها ـ تعتمد على حالة الطقس .. فأصحاب الأراضى ، وزراع الكروم ، وتجار الخشب ، وأصحاب الحانات .. كل هؤلاء يتطلعون ملهوفين الى ما يبدو من أشـــعة الشمس ، ولا يكاد أحدهم يأوى الى فراشه ليلا الا وهو يرتجف خوفا من أن يسمع فى الصباح أن قد تساقط خلال الليل جليد أو مطر ، أو هبت ريح شديدة أتلفت الزرع أو عاقت التجارة .. وهكذا كانت الوجوه تشرق ابتهاجا أو تتجهم اكتئابا وفقا لتأرجح « البارومتر » بين الصعود والهبوط !

وبعد منتصف ليلة الأحد ، فى فصل الصيف ، لن تستطيع أن تعقد صفقة بفلس واحد مع تاجر أو زارع فى « سومور » ، فلكل منهم مزرعته الصغيرة أو كرمه الخاص حيث يقضى عطلة نهاية الأسبوع !

وكل شخص فى سومور يعرف كل شىء عن سواه من أهلها .. عن حياته وعمله ، ومشترياته ومبيعاته وأرباحه . ولا عجب فالناس هناك يقضون عشر ساعات فى كل نهار فى الثرثرة والتعليقات ومراقبة الجيران ، بحيث لا تشترى امرأة دجاجة الا وسأل جيرانها زوجها عن نوعها وثمنها !.. ولا تطل فتاة من نافذة من دون أن تلاحظها عيون «المراقبين» المتعطلين الكثيرين!

ومن هنا كانت منازل البلدة ـ برغم كآبتها وعتمتها وسكونها ـ لا تكاد تحجب أعمق أسرارها عن مسامع الناس وفضولهم .. بل أن كل انسان هناك لم يكن ليخفى عليه ما يدور فى أذهان الآخرين !.. فأهل البلدة يقضون أكثر أوقاتهم جالسين على أعتاب منازلهم ،حيث يتناولون وجبات الفداء ويثرثرون فى كل شىء ، ويحدجون بنظراتهم الفاحصة الدقيقة كل عابر سبيل !. ومن ثم لم يكن يصل الى البلدة غريب حتى يصير من فوره نهبا لفضول أهلها وامتحانهم العسير لمظهره ومخبره !

وهناك فى الطرف المرتفع من ذلك الشارع المنحـدر كانت تقوم المنازل الكبيرة العتيقة التى كان يقطنها نبلاء الأقليم .. وفى مقدمتها المنزل الموحش الكئيب الذى وقعت فيه حوادث هذه القصة .. وقد بنى منذ أكثر من قرن ، ثم آل الى « مسيو جرانديه » الذى يقطنه وأسرته

وكان مسيو جرانديه يتمتع بسمعة خاصة فى سومور ، لا يمكن أن يقدر أسبابها وآثارها حق قدرها الا قليلون من أهل الاقليم المعمرين الذين يطلقون على الرجل لقب « الأب جرانديه الطيب » .. منذ عرفوه فى مستهل الجيل السابق !

والواقع أن المسيو جرانديه كان فى سنة١٧٨٩ يعد سيد صناعة البراميل فى الاقليم ، وكان الى ذلك ملما بالقراءة والكتابة والحساب .. فلما صادرت الجمهورية الفرنسية أملاك الكنيسة فى منطقة سومور وجعلت تبيعها بالمزاد العلنى كان قد بلغ الاربعين من عمره ، وتزوج حديثا من ابنة تاجر ثرى من تجار الأخشاب ، فتجمع فى يده من بائنتها ومما كان يملك هو من مال حوالى ألفى جنيه ذهبا حصل بها على ضيعة من أجود ضياع الكروم فى المنطقة ،

فضلا عن بضع مزارع صغيرة ، ودير قديم !

ولم يكن أهل سومور يعطفون بقلوبهم على الثورة الفرنسية ، على أنهم كانوا ينظرون الى جرانديه باعتباره جمهوريا شجاعا ووطنيا ومفكرا ثاقب الرأى . فى حين أن كل التفكير الذى كان الرجل يجهد نفسه فيه لم يكن يتجاوز ضيعة كرومه !.

وقد عين جرانديه عضوا فى هيئة ادارة أقليم سومور ، فاستغل نفوذه السياسى والتجارى فى التعاقد على امداد جيوش الجمهورية بالنبيذ الأبيض، فى مقابل حصوله على مساحات فسيحة من الأحراش الخصبة التى كانت مملوكة لأحد الأديرة هناك

وفى أيام « القنصلية » صار السيد جرانديه عمدة .. فالتزم جانب الحذر فى اظهار كفاءته الادارية العامة ، لكنه فى الوقت نفسه عرف كيف يستغل مواهبه لمنفعته الذاتية !

ولما تغيرت الأحوال وقامت الأمبراطورية صار يعرف بلقب « مسيو جرانديه » فقط . لكنه كان معتبرا فى نظر العامة جمهوريا « أحمر » . ولم يكن نابليون يحب الجمهوريين .. ومن ثم أختير بدلا منه لمنصب العمدة ثرى كبير من أصحاب الاراضى يحمل لقبا من ألقاب النبلاء وأملا فى مستقبل باسم !.. فلم يأسف جرانديه على منصبه السابق ، مكتفيا بما حققه خلال ادارته لمصالح المدينة من انشاء الطرق المهدة التى تمر بأملاكه الخاصة ، ومن الاعتدال فى تقدير الضرائب والعوائد على منزله ومصانعه ومزارعه .. وخص كرومه بالمزيد من عنايته بحيث صارت أعظم الكروم فى الاقليم ، وأحسنها انتاجا للنبيذ ، وحصل لذلك على وسام فرقة الشرف ـ اللجيون دونير ـ سنة ١٨٠٦

وفى ذلك الوقت كان المسيو جرانديه قد بلغ السابعة والخمسين ، بينما بلغت زوجته السادسة والثلاثين . وكانت ثمرة زواجهما الوحيدة ابنة فى العاشرة .. ويبدو أن العناية الالهية أرادت أن تعوضه عن خذلانه الحكومى فورث فى ذلك العام ثلاث ثروات ليس ثمة بيانات دقيقة عن مقدارها ..!

وقد آلت اليه بعد موت حماته « مدام دى جودينيير » ، ثم موت أبيها ، فجدته هو لأمه . وكان بخل هؤلاء الثلاثة وشحهم الشديد من البشاعة بحيث جعلهم يخفون ثرواتهم فى بيوتهم سنوات طويلة كى ينعموا بتأملها خفية عن أعين الرقباء !

وكان والد حماته يرى توظيف المال تبذيرا ، ويفضل امتاع بصره بمرأى الذهب المتراكم على استغلاله فى أى عمل.. وبفضل هذه الثروة الطائلة التى صارت لمسيو جرانديه ، صار يدفع من الضرائب أكثر مما يدفع أى شخص آخر فى الاقليم !

كان يزرع حوالى مائة فدان من الكروم ، وينتج منها فى السنة حوالى ثمانمائة برميل من النبيذ !.. وكان يملك عدا ذلك ثلاث عشرة مزرعة صغيرة،

وديرا عتيقا دفعته نزعة الاقتصاد الى سد جميع نوافذه بالبناء محافظة منه على زجاجها الملون الثمين !.. ومائة وسبعة وعشرين فدانا من المراعى بها ثلاثة آلاف شجرة من أشجار الحور التى تنمو كل عام وتتسع أغصانها ...
وفوق هذا كله كان مسيو جرانديه يملك المنزل الذى يقطنه !..

وبهذه الوسائل تضاعفت ثروة الرجل . أما رصيده فقد كان هناك اثنان فقط فى مركز يسمح لهما بالحدس والتخمين فيما يتعلق بمقداره : أحدهما مسيو (كروشو) الذى تولى تسجيل جميع عقوده وتصرفاته المالية .. والآخر هو المسيو (دى جراسان) صاحب أغنى مصرف فى المدينة ، وقد عقد للمسيو جرانديه صفقات عدة جهلها أهل سومور جهلا تاما .. لان الأسرار التى من هذا النوع تتطلب تصرفات معقدة واسعة النطاق ، تصان عادة عن أسماع الفضوليين . لكن فرط حرص الرجلين على التكتم لم يمنعهما من مخاطبة مسيو جرانديه علانية بقدر كبير من الاحترام والاجلال جعل الأهلين يستنتجون أن ثروة العمدة السابق لا بد أن تكون على قدر كبير من الضخامة !

ولم يكن فى سومور انسان لا يعتقد فى قرارة نفسه بصحة ما يقال من أن المسيو جرانديه يحتفظ فى مكان ما من منزله بكنز من النقود الذهبية،يزوره خفية كل ليلة فيخرجه من مخبئه ويستمتع باللذة القصوى التى يجدها فى التطلع الى كومته الضخمة وبريقه الأصفر الجميل !

على أن المسيو جرانديه لم يكن وحده عاشق الذهب فى سومور ، فقد كان فى المدينة كثيرون غيره ممن لهم مثل هوايته هذه وتلمع عيونهم مثله بذلك البريق الذى ينم عن الجشع والتفانى فى حب المال !

وكان بعض هؤلاء يؤمنون بصدق ما يروى عن كنزه المخبوء ولا سيما أنه كانت تصدر عنه فى بعض المناسبات حركات ونظرات قد لا يفهم منها الشخص العادى شيئا ، لكن مدلولها لا يغيب عن فطنة أهل « الفن » من زملائه فى عبادة المال !. والانسان الشحيح تنم عنه نظراته كما تنم نظرات المقامر أو زئر النساء عن دائه المتأصل !.. وهناك نوع من التفاهم ، بلغة خفية ، بين عبيد الشهوات جميعا ، وهو تفاهم لا يصل غيرهم الى حل رموزه الغامضة !

ومن هنا كان المسيو جرانديه يوحى الى كل من حوله بذلك التقدير والاحترام اللذين يحظى بهما شخص لم يكن مدينا فى يوم من الأيام بفلس واحد لمخلوق !.. وكان فى المسائل المالية يجمع بين خصال النمر البنغالى والأفعوان ، فهو يرقد فى مخبئه أو يزحف على بطنه مراقبا فريسته حتى يستوثق من الفرصة المناسبة للانقضاض عليها .. وعندئذ يطبق فكى كيس نقوده على سيل منهمر من العملة الذهبية الرنانة ، ثم يخلد للراحة كما يفعل الثعبان النهم بعد أن يظفر بصيد دسم !

وكان أهل البلدة جميعا يشعرون نحوه بشىء من الاعجاب نصفه خوف

ونصفه احترام ، فقد كانت له قبضة النمر الفولاذية ، ومخالبه الحادة . وكان الجميع لا يجدون ملجأ الا اليه كلما ألمت بهم ضائقة ، أو احتاج أحدهم الى مال ليشترى به قطعة من الأرض ، أو لغير ذلك من الأسباب . فيقرضه ما شاء من مال بربح لا يقل عن ١١٪ وقد يزيد !

ولم يكن ليمضي يوم دون أن يرد ذكر مسيو جرانديه فى نقاش أو حديث مما يدور على ألسنة القوم فى المدينة . وكان بعض أهل البلدة يجدون نوعا من الفخر والعزة القومية فى التشدق بثروة الرجل .. وكم من تاجر أو صاحب حانة فى سومور وجد الفرصة والمناسبة كى يقول لغريب عن البلدة فى شيء من الزهو : « هناك أصحاب ملايين فى اثنتين أو ثلاث من مؤسساتنا، أما مسيو جرانديه فانه هو نفسه لا يستطيع ان يعرف مقدار ثروته ! »



وفى سنة ١٨١٦ قدر ذوو النظر الثاقب قيمة ثروة الرجل العقارية بنحو اربعة ملايين من الفرنكات . ولما كان قد انفق من أمواله فيما بين سنتي ١٧٩٣،و١٨١٧ نحو مائة ألف فرنك ، فقد قدروا ثروته النقدية بما يقرب من هذا المبلغ أيضا . وهكذا كان القوم كثيرا ما يتجاذبون أطراف الحديث فيقول قائل منهم : « عمن تتحدثون ؟. عن جرانديه العجوز ؟.. انه ولا شك يملك مالا يقل عن ستة ملايين من الفرنكات ! » .. فيجيبه مسيو كروشو أو مسيو دى جراسان اذا كان أحدهما بين الحاضرين : « اذن فأنت أبرع منى ، فأنى لم أستطع يوما أن أعرف مقدار ثروة المسيو جرانديه ! »

واذا أشار أحد القادمين من باريس الى ثراء « روتشيلد » أو « لافاييت » .. تساءل أهل سومور الطيبون : «هل هذا أو ذاك فى ثراء مسيو جرانديه؟» .. فاذا أجاب الباريسي بالايجاب ، نظر بعضهم الى بعض وهزوا أكتافهم ساخرين غير مصدقين !

ولما كانت الثروة مثل العباءة الذهبية ، تغطى المتشح بها وكل ما يفعل فان الضحك والسخرية اللذين أثارتهما أول الامر بعض مظاهر الشذوذ فى حياة جرانديه ما عتما أن ماتا على شفاه القوم .. ثم واصل الرجل حياته المعهودة بسلام ، بل صارت أتفه تصرفاته تعتبر سوابق مقررة ، وأهون كلماته شأنا يقام لها وزن واعتبار !.. وصارت ملاحظاته وثيابه وحركاته ، والطريقة التى يصفق بها أهداب عينيه تدرس من الأهلين بالعناية التى يدرس بها عالم الطبيعة آثار الغرائز فى حيوان مفترس ! وتنافس الجميع فى الاشادة بالحكمة العميقة والاتزان فى كل تصرفاته !

كان أحدهم يقول مثلا : « سوف يكون الشتاء قارسا هذا العام .. فان جرانديه العجوز قد ارتدى قفازه المصنوع من الفراء ، ولهذا ينبغى أن نسرع فى جمع انتاج الكروم ! »

أو يقول آخر : «سوف يكون النبيذ وفيرا هذا العام ولا شك،لان جرانديه أعد كثيرا من البراميل ! »

ولم يكن المسيو جرانديه يشترى اللحم او الخبز قط ، فقد كان بعض ايجار أملاكه يدفع عينا . وفى كل أسبوع كان المستأجرون يحضرون اليه من الدجاج والبيض والزبد والدقيق ، ما يكفى حاجة بيته ويزيد ! .. وكان الى ذلك يملك طاحونة ، يتطوع مستأجرها لان يطحن له كل ما يحتاج اليه من الحنطة بالمجان

وكانت « مانون » خادمة البيت تتولى صنع الخبز مرة كل أسبوع،صباح يوم السبت . وكذلك كان زراع الخضر والفاكهة يتكفلون بامداده بحاجته منها .. بل انه كان يبيع الفائض عن حاجته من الأخيرة فى الأسواق !

وخشب المدفأة كان يجمع من الاشجار الكثيرة التى تنمو على حدود حقوله ، فيقطعه المستأجرون له وينقلونه على عرباتهم الى منزله ، دون أن يتلقوا منه على ذلك غير كلمة الشكر ..؟

وهكذا كان ، فيما عدا الضرائب الحكومية ، يندر أن تتاح له فرصة لانفاق المال ، الا فى شراء ثياب لزوجته وابنته ، ودفع أجر خادمته نانون ، وبعض الاصلاحات التى يستلزمها الامر فى المنزل ! وكان قد اقتنى أخيرا ستمائة فدان من الغابات ، واذ عجز عن حراستها بنفسه عهد فى ذلك الى حارس من حراس أصحاب الاراضى المجاورة ، واعدا بأن يكافئه آخر العام !

وكان جرانديه قليل الكلام ، يعبر عن آرائه بعبارات قصيرة موجزة ينطق بها فى صوت خافت .. وكان يحتال لاخفاء نقص ثقافته بالصمت فى بعض الاحيان ، وفى أحيان أخرى بالاجابة باحدى عبارات أربع لا يكاد يستعمل غيرها ، وهى : « لست أدرى » . و « لا أستطيع أن أفعل ذلك » . و « لن اشترك فى شىء من هذا القبيل » . وأخيرا «سوف نرى !»... أما « نعم » أو « لا » فلم يكن ينطق بها قط ، ولا كان يسجل رأيا من آرائه كتابة .. وكان يصغى الى محدثه وهو يفرك ذقنه ، وقد بدا عليه طابع عدم المبالاة !

وحين يرى رأيا فى موضوع ما كان يتعذر عليه أن يغيره .. واذا أدركته الحيرة فى مأزق من مآزق معاملاته مع الناس ولم يدر وجه المصلحة فى الامر تخلص من الحرج قائلا : « ينبغى أن أتشاور فى ذلك مع زوجتى قبل أن أقطع برأى ! »

ولم يكن يزور أحدا ، أو يتناول طعاما خارج بيته ، أو يدعو أحدا الى تناول الطعام فى ضيافته .. وكان يقتصد حتى فى حركاته وسكناته ، كأنما يوفر قواه البدنية ، ويحترم حقوق الملكية الى حد يجعله ينأى بنفسه عن المساس بأى شىء يملكه سواه !

وكان المسيو جرانديه عريض المنكبين يزيد طول قامته على خمس أقدام ، نحيل الساقين ، بارز الركبتين ، ذا وجه صوحته الشمس وشوهته آثار الجدرى ، وذقن مدبب ، وأسنان ناصعة البياض ، وعينين تنطويان على

نظرة الجشع المتحجرة ، وشعر كان يوما فى لون الرمل فأمسى فى لون الرماد !

وكانت هيئته العامة تدل على المكر الخطر ، برغم انه كان حريصا على مجاراة القانون .. كما كانت تلوح على قسماته الانانية ، فلم يكن يعبأ من أمور الدنيا بغير أمرين : متعة كنزه الذهبى المدخر ، ثم ابنته أوجينى ، التى لم ينجب غيرها ، واليها ستؤول يوما كل ثروته !

وكان جرانديه « محافظا » فى زى ثيابه ، فبقى حتى سنة ١٨١٩ يرتدى الزى الذى كان يرتديه سنة ١٧٩١ ، ولم يغير حتى نوع الجوارب الصوفية السميكة ، ولا رباط الرقبة الاسود ، والقبعة ذات الحافة العريضة ، والقفازين السميكين اللذين يختارهما من بضاعة متينة بحيث يعيشان عامين على الاقل .. ولكى يحتفظ بهما نظيفين كان يضعهما دائما على حافة قبعته العريضة !



غادة سومور

لم يكن يملك حق دخول بيت جرانديه غير ستة أشخاص : أولهم بحسب ترتيب الاهمية ابن أخي مسيو كروشو ، الشاب الذى أضاف الى اسمه منذ عين رئيسا لمحكمة الدرجة الاولى لقب « دى بونفون » ، وكان فى الثالثة والثلاثين من عمره ، يملك ضيعة تدر عليه سنويا سبعة آلاف جنيه .. وسوى ذلك كان يطمع فى أن يرث يوما أملاك عمه مسجل العقود وعمه الآخر « الاب كروشو » رجل الدين ، وكان كلاهما موفور المال

وكان الرجال الثلاثة « آل كروشو » مرتبطين من طريق الزواج بعدد من الاسرات الاخرى ، وهو ما جعل لهم فى البلدة جماعة كبيرة شبيهة بأسرة « مديتشى » فى فلورنسا ، المشهورة بالثراء وكثرة المنافسين والغرماء

وكانت مدام دى جراسان ، وهى أم لابن فى الثالثة والعشرين ، هى الزائرة الثانية لبيت جرانديه . كانت تذهب لتلعب الورق مع زوجة المليونير آملة أن تزوج ابنها العزيز أدولف من الآنسة جرانديه . وكان لها حليف قوى فى شخص زوجها المالى الكبير ، الذى أدى لجرانديه كثيرا من الخدمات وكان مستعدا لان يمد يد المعونة الى زوجته فى كفاحها من أجل ذلك الهدف الجميل !

على أن الاب كروشو ــ الذى كان سياسيا داهية يقوم فى أسرة كروشو مقام « تاليران » فى حكومة فرنسا أيام نابليون ــ كان هو وأخوه مسجل العقود ينازعان زوجة المالي « دى جراسان » الهدف الذى تسعى اليه .. ويرميان الى الظفر بالوارثة الغنية لابن أخيهما رئيس المحكمة ! وكان الصراع بين الفريقين على الفوز بيد الآنسة أوجينى جرانديه سرا مكشوفا ، ترقبه البلدة كلها بأعظم اهتمام !

وكان بعض أهل البلدة يرون فيما بينهم أن تحل هذه المشكلة بألا يعطى مسيو جرانديه ابنته لهذا أو ذاك ، بل يختار لها زوجا ممتازا ، من بين أمراء فرنسا يكون على استعداد لأن ينسى ــ فى نظير ايراد سنوى قدره ثلاثمائة ألف جنيه ــ أن ثروة صهره الماضية والحاضرة والمستقبلة قائمة على براميل النبيذ !

على أن آخرين عارضوا هذا الحل ، فكان من رأيهم أن أسرة دى جراسان هى من الطيبة واليسار ، كما أن ابنها أدولف من الوسامة والخلق الحسن بحيث ينبغى أن يقنع به جرانديه زوجا لابنته ، ما لم ترزقه الاقدار بابن أخى البابا ! وبخاصة أن جرانديه ليس عريق الاصل

وقد لاحظ المراقبون « المطلعون » أن مسيو كروشو دى بونفون يكثر من التردد على منزل جرانديه ، بينما لم يكن غريمه يزور الاسرة الا فى أيام الآحاد. وقدر هؤلاء أن صداقة مدام دى جراسان مع سيدات أسرة جرانديه كفيلة بترجيح كفة ابنها على منافسه ... فى حين كان من رأى الآخرين أن أساليب الأب كروشو الماكرة المقنعة سوف ترجح كفة ابن أخيه ، وأن رجل الدين سوف يغلب المرأة !

ولكن ذوى الذاكرة القوية والنظر البعيد كانوا يرون أن آل جرانديه من الحذر بحيث لن يسمحوا لثروتهم الضخمة أن تخرج من نطاق الاسرة .. ومن ثم رجحوا أن تتزوج « الآنسة أوجينى جرانديه غادة سومور » من ابن شقيق مسيو جرانديه الذى يعيش فى باريس ويعمل فى تجارة النبيذ..

وقد كان آل كروشو وآل جراسان يفندون هذه الدعوى الجريئة بأن الشقيقين لم يلتقيا مرتين خلال الثلاثين عاما المنصرمة !.. ثم أن مسيو جرانديه الباريسى كبير الطموح فيما يتعلق بمستقبل ابنه وحياته الخاصة .. فهو نفسه عضو فى مجلس النواب ، وضابط فى الحرس الوطنى برتبة قائمقام ، وقاض فى المحكمة التجارية .. وهو لا يحاول عقد أية صلة مع أسرة شقيقه القاطنة فى سومور ، وانما هو يسعى الى عقد صلة المصاهرة مع أسرة «دوق» من رجال نابليون !

وهكذا ظلت أوجينى موضوعا خصبا للاحاديث،ليس فى سومور وحدها، بل فى كل المنطقة المحيطة بها ، بين بلدتى « انجر » من ناحية ، و « بلوا » من الناحية الاخرى !



وفى بداية سنة ١٨١٨ أحرز فريق « كروشو » نصرا حاسما على فريق « جراسان » .. فان المركيز الشاب دى « فراودفون » اضطر الى تجميد رصيده فعرض للبيع ضيعة « فراودفون » الشهيرة بقصرها العظيم وحدائقها البديعة وحقولها المستقلة وانهارها وبحيرات أسماكها وغاباتها ، وكانت كلها تساوى نحو ثلاثة ملايين من الفرنكات فلما علم أقطاب أسرة كروشو الثلاثة برغبة المسيو جرانديه فى شراء الضيعة ، حشدوا جهودهم واستغلوا نفوذ أحدهم ــ وهو مسجل العقود ــ لاقناع المركيز الشاب بتفضيل العرض المقدم من جرانديه بشأن شراء الضيعة كلها نقدا ، واهمال العروض الاخرى التى كان من مقتضاها تجزئة الضيعة .. وكان سلاحهم وحجتهم فى تفضيل العرض الاول أن بيع التجزئة سوف يعرض البائع لمتاعب شتى ومماطلات قضائية قبل قبضه الثمن من كل مشتر !

وجازت الحجة على المركيز الشاب ، وسرعان ما صار جرانديه سيد الضيعة الهائلة .. ولدهشة أهل سومور دفع الرجل الثمن كله نقدا فور

اتمام الاجراءات الرسمية للصفقة .. فذاع هذا النبأ فى طول البلاد وعرضها حتى بلغ « أورليان » وتحدث عنه الناس فى « نانت » !

وذهب جرانديه ليزور قصره الجديد وحقوله المترامية الاطراف . ثم عاد الى سومور مقتنعا بأن الصفقة الجديدة سوف تدر عليه ربحا صافيا قدره خمسة فى المائة على الاقل .. واعتزم أن يقطع كل شجرة فى تلك الغابات والمزارع الواسعة ، ويجتث أشجار الحور التى تمتلىء بها أحراشه الجديدة ، ليضيف الى خزائنه أكداسا أخرى من الذهب !



كانت الحياة تجرى فى مجراها الهادىء بالنسبة لزوجة جرانديه وابنته أوجينى منذ خمسة عشر عاما .. فيوما بعد يوم ، ومن ابريل الى نوفمبر، كانتا تجلسان الى مقعديهما المريحين المجاورين لنافذة احدى الغرف المشرفة على الشارع الساكن .. ومنذ أول نوفمبر كانتا تنتقلان من النافذة الصيفية الى جوار المدفأة كى تقضيا الى جوارها أشهر الشتاء الباردة.. أما قبل يوم أول نوفمبر ، وبعد يوم ٣١ مارس ، فلم يكن جرانديه يسمح لأحد بايقاد النار فى المدفأة ، أيا كانت برودة الايام السابقة لنوفمبر أو التالية لمارس !

وكانت أيام الام والابنة مخصصة لاصلاح ما يبلى من ثياب الاسرة ومفروشات المنزل .. وكانتا تنقطعان لهذه المهمة بضمير مخلص ، بحيث لو أرادت أوجينى يوما أن تطرز قطعة من الثياب لأمها كان عليها أن تقتطع الوقت لذلك من ساعات نومها ، وان توطن نفسها على سماع كلمة لوم من أبيها قبل أن « يصرف » لها شمعة تطرز على ضوئها !.. فقد دأب البخيل منذ زمن على أن يدرج الشموع ضمن قائمة الاشياء الثمينة التى يصرفها لابنته أو الى مدبرة المنزل « نانون »

ولعل نانون هى الخادم الوحيدة فى الوجود ، التى كان فى طوقها أن تحتمل « طغيان » سيدها على هذا النحو ، حتى لقد صار كل أهل البلدة يحسدون مسيو جرانديه وأسرته على حظوتهم بخادمة فى مثل طاعتها واخلاصها ؟

وقد ظلت « نانون الكبيرة » ــ التى أطلقت عليها هذه التسمية بسبب قامتها الضخمة التى يبلغ طولها خمس أقدام وثمانى بوصات ــ جزءا لايتجزأ من « محتويات » بيت جرانديه منذ خمسة وثلاثين عاما !.. وكانت تعتبر « أغنى » خادمات سومور ، بحكم حصولها على مرتب سنوى قدره ستون جنيها ، طيلة تلك الحقبة الهائلة من الزمن .. ولقد أودعت مؤخرا لدى مسيو كروشو مسجل العقود مبلغ أربعة آلاف فرنك كى يرتب لها معاشا بعد تقاعدها ، فشاع نبأ هذا التوفيق « الاقتصادى » العظيم فى

أنحاء البلدة وألهب خيال خادماتها جميعا ، بحيث لم تبق منهن واحدة الا انطوى قلبها نحوها على الغيرة والحسد .. لكن أحداهن لم تفكر فى الجهاد الطويل والعمل الشاق المتصل الذى أدى الى هذه النتيجة !

فمنذ خمسة وثلاثين عاما ، حين كانت « نانون » فى الثانية والعشرين، لم يكن فى وسعها أن تجد عملا بسهولة بسبب قبح شكلها وضخامة بدنها !

ولقد اشتغلت فى البداية راعية للماشية فى مزرعة .. حتى احترقت المزرعة ذات يوم . وعندئذ تذرعت الفتاة بشجاعتها الفائقة التى لا ترهب شيئا وجاءت تنشد عملا فى سومور.. وفى ذلك الوقت كان المسيوجرانديه يفكر فى الزواج ، ويعتزم انشاء بيت وأسرة .. فوقعت تحت بصره ، بعد أن لبثت فترة تتنقل من باب الى باب فترفض من الجميع !.. وما كاد يراها حتى قدر من فوره مزايا قوتها البدنية الهائلة ، وكانت تبدو فى قوة « هرقل » ، وتقف على قدميها راسخة البنيان مثل شجرة البلوط الثابتة فى تربة تأصلت جذورها فيها طيلة قرنين !.. وكانت ذات كتفين عريضتين ، وشفتين غليظتين ، ويدين أشبه بيدى الزارع الذى يقود المحراث !.. وكانت أمانتها مثل عفتها فوق مستوى الشبهات .. فلم يزعج الرجل أن يكون وجهها عسكرى السمات ، تزيد فى تشويهه « سنطة » أو اثنتان .. أو أن تكون بشرتها فى لون الطين الخزفى المحروق ، أو ذراعاها مفتولتى العضلات .. وكذلك لم يزعج صانع البراميل مرأى أسمالها البالية ، فان قلبه لم يكن قد قسا بعد على البؤس والشقاء !

ومن ثم أخذ الرجل الفتاة المسكينة فى خدمته ، فأطعمها وكساها وأعطاها أجرا .. فصارت تذرف خلسة دموع فرحها بهذه المعاملة وأحست تعلقا مخلصا بسيدها هذا الذى كان ينتظر من تفانيها فى خدمته ما ينتظر السيد فى عصر الاقطاع من عبده الرقيق !

وصارت نانون تقوم بكل عمل البيت ، من طهو وغسل ، فتحمل كل الثياب والاشياء المحتاجة الى الغسل الى نهر اللوار ثم تعود بها ، على كتفيها !.. كانت تنهض مع مشرق الفجر وتأوى الى فراشها فى ساعة متأخرة .. وكانت هى التى تطهو وحدها طعام عمال حصاد الكروم فى الخريف بلا معاونة من أحد !.. وتسهر على رعاية مصالح سيدها كالكلب الامين ، وبثقة عمياء فى شخصه.. وتطيع أقسى أوامره وأكثرها استبدادا دون كلمة تذمر أو غمغمة تبرم .. كانت نزواته بالنسبة لها قانونا لايخالف وقضاء لايرد !

وبعد انقضاء عشرين سنة عليها فى الخدمة حلت سنة ١٨١١ التىجمعت فيها الكروم بعد مشقة وكفاح لايوصفان ، فاستقر راى جرانديه على أن ينعم على نانون بساعته القديمة ، فكانت الهدية الوحيدة التى تلقتها منه مدى الحياة !.. صحيح انها كانت تحظى منه بأحذيته البالية ــ التى

كانت تلائم قدميها ـ لكنها كانت غالبا من البلى بحيث لا تعيش طويلا ولا يمكن ان تعد هدية !

وكانت الحاجة الملحة قد جعلت الفتاة المسكينة من الشح والبخل بحيث ازداد جرانديه تعلقا بها يوما بعد يوم .. وصار يرمقها بمثل العاطفة التى يخص بها الرجل كلبه الامين !.. اما هى فظلت ترتدى طوق الاستعباد المبطن بالمسامير حتى لم تعد تحس لها وخزا !.. كان جرانديه يحدد نصيب اليوم من الخبز ، فلا تتذمر ، وترى الطعام ضئيلا بسيطا فلا تتألم . ويبدو ان صحتها قد استفادت من ذلك التقتير ، اذ لم يزر المرض البيت قط !

وصارت نانون واحدة من الأسرة ، تشارك جرانديه كل أطواره وحالاته : تضحك حين يضحك ، وتكتئب عندما يكتئب .. وتستمد آراءها فى الطقس أو درجة الحرارة منه ، وتعمل معه وله .. وكانت هذه المساواة عنصرا من عناصر العذوبة التى تعوض الكثير من المصاعب التى تكتنف عملها وحياتها !.. وفى الخارج ، فى حقول الكروم ، لم ينطق السيد يوما بكلمة واحدة عن المشمش الصغير أو البرقوق وغيرهما من الفواكه التى كان يجدها منتزعة من أشجارها أو ساقطة تحتها .. بل كان يقول لخادمته أحيانا : « هيا يا نانون ، خذى القدر الذى تريدين » . لكن هذا كان يحدث عادة فى السنين التى تميل فيها الاغصان تحت ثقل ما تحمل ، وتكثر فيها الفاكهة الى حد يضطر معه الفلاحون الى أن يلقوا بها الى الخنازير !

على ان « نانون » التى نشأت فى الريف وقاست عذاب العمل فى المزارع ، ولم تعرف منذ طفولتها الباكرة غير المعاملة الفظة الخشنة .. بل لم ينقذها من الموت جوعا غير خدمتها فى بيت العجوز جرانديه .. كانت ترى فى ابتسامته وضحكه المرح ، ما يشبه شعاعا من الشمس يشرق فى حياتها فيبدد ظلماتها !.. هذا الى ان نانون ببساطتها الفطرية وذكائها المحدود لم تكن لتستطيع أن تفكر فى أكثر من شيء واحد فى الوقت الواحد .. وخلال تلك السنوات الخمس والثلاثين من الخدمة كانت تمثل فى ذهنها صورة واحدة ، ترى فيها نفسها فتاة حافية القدمين ترتدى الاسمال البالية وتقف بباب « مغلق الخشب » المملوك لمسيو جرانديه ، فتسمع صوت صانع البراميل يسألها : « ماذا بك يا فتاة ؟ » .. وهنا تحس دفء الشكران وعرفان الجميل يملأ قلبها كما ملأه فى ذلك اليوم البعيد !

وكان يجول بخاطر جرانديه أحيانا وهو يرقبها ان كلمة واحدة من كلمات المديح أو الاعجاب لم تهمس فى أذن الفتاة يوما ، وان جميع المشاعر الرقيقة التى توحى بها المرأة لا وجود لها بالنسبة اليها .. وانها قد تمثل فى حضرة الله يوما وهى فى مثل طهر العذراء مريم نفسها ! .. وفى مثل هذه الاوقات ، كان الرجل يهتف من أعماق قلبه مدفوعا بنوبة شفقة مفاجئة : « مسكينة نانون ! »

وكانت تلك الصيحة تتبعها دائما نظرة لاتوصف من جانب الخادمة العجوز .. وقد كانت تلك الكلمات النادرة التى ينطق بها الرجل بين حين وآخر حلقات منفصلة من سلسلة « صداقة » طويلة لا تفصم عراها !

ولكن فى هذه الشفقة التى تنطوى عليها نفس البخيل المقتر ، والتى كانت توحى بنشوة من الغبطة للمرأة المستوحشة ، كان هناك عنصر مثير للغيظ الى حد ما .. فلقد كانت شفقة الرجل شفقة باردة ، و « ترفا » لايكلفه شيئا ! .. أما بالنسبة لنانون فقد كانت شفقته تلك تطير بها الى قمة السعادة ! فمن الذى يتردد اذن فى أن يهتف « مسكينة نانون ! » .. ان الله سوف يميز يوما ملائكته من لهجة أصواتهم والحزن الدفين فى قلوبهم !

وقد كانت فى سومور بيوت كثيرة يلقى الخدم فيها معاملة أفضل ، ومع ذلك يلقى مخدوموهم منهم خدمة اقل وراحة أضأل .. ومن ثم تساءل الجميع حائرين : « ماذا فعل آل جرانديه لتلك البلهاء نانون كى تتعلق بهم كل هذا التعلق ؟ .. انها لتخوض النار والبحار ــ لو اقتضاها الامر ذلك ــ كيما تخدمهم ! »

وكان مطبخها ، ذو النوافذ التى تتخللها العوارض الحديدية ، والمطلة على الفناء الخارجى ، نظيفا على الدوام ، باردا ، مرتبا ، شأن مطبخ أى بخيل لايسمح بأن تتخلف عن طعامه فضلات تتبدد ! .. فكانت نانون اذا فرغت من غسل الاوانى ووضعت بقايا الطعام فى المخزن ، للوجبة التالية ، ثم أطفأت النار .. تغادر المطبخ كى تجلس لتغزل الكتان فى صحبة مخدوميها ، فان شمعة واحدة ينبغى أن تكفى اهل المنزل جميعا فى المساء !

وكانت الخادمة تنام فى شبه كشك صغير معتم فى نهاية الممر ، لا يضيئه غير ظل النور الذى فى الخارج . ولما كانت ذات بنيــة حديدية وصحة عارمة ، فقد مكنها هذا من أن تعيش فى هذا الجحر فى أمان تام ، سنة بعد سنة ، برغم ان أضأل الاصوات كان يسمع فيه كدوى الطبول ، كأنما لا تفصله عن بقية البيت جدران .. فكانت تنام مثل كلب الحراسة باذن واحدة متيقظة ، ولم تكن تعتبر نفسها فى حل من تأدية واجبها حتى وهى نائمة !

ضيف من باريس

في مساء أحد أيام نوفمبر سنة ١٨١٩ عمدت « نانون » الى ايقاد النار في مدفأة حجرة الاستقبال بمنزل جرانديه ، استعدادا للاحتفال بعيد ميلاد الآنسة أوجيني . وكان كل من آل كروشو وآل جراسان قد تأهبوا لنضال اعتزم فيه كل فريق أن يتفوق على الآخر في اثبات صداقته لآل جرانديه، لمناسبة هذا العيد !.. ومن ثم حرص مسيو كروشو والأب كروشو وابن أخيهما الشاب دي بونفون على أن يصلوا الى صالون الدار قبل منافسيهم ، كي يهنئوا الفتاة بعيدها ، وحملوا معهم ثلاث باقات فاخرة من الأزهار

وكان مسيو جرانديه قد توجه في الصباح الى حجرة ابنته ، قبل أن تغادر فراشها ، وأهدى اليها قطعة نادرة من النقود الذهبية كعادته كل عام. أما الأم فقد اعتادت أن تهدى الى ابنتها في هذه المناسبة ثوبا جديدا . وكانت الفتاة تتلقى قطعتين ذهبيتين أخريين وثوبين جديدين في مناسبة عيد ميلاد أبيها وعيد رأس السنة ، مما يجعل قيمة « دخلها » السنوى من هذه الهدايا نحو مائة ريال !

وكان يلذ لجرانديه أن يرى المال يتراكم في يدى ابنته ، فان ذلك لم يكن في نظره « فراقا » بينه وبين ماله ، وانما كان أشبه بانتقال هذا المال من صندوق الى صندوق آخر !..

وكان يرمي بهذا التصرف أيضا الى أن ينمى في نفس وريثته تقدير الذهب حق قدره ، كي تشب على هذه الخصلة الحميدة..ولهذا كان يستفسر منها بين حين وآخر عن حساب « ثروتها » وكم بلغت .. ثم لا ينسى أن يردف سؤاله في كل مرة بقوله لها : « سوف يكون هذا المبلغ هديتى لك يوم الزواج ! ».وكانت هذه هي العادة المتبعة في بعض أقاليم فرنسا ، اذ تقوم أسرتا العروسين بأن تهديا اليهما يوم الزفاف بعض قطع العملة الذهبية أو الفضية ، كل أسرة حسب قدرتها المالية .. ويروون في هذا الصدد أنه عندما زفت كاترين دي مديتشى الى هنرى الرابع أهدى اليها عمها «كليمنت السابع » مجموعة من المدليات الذهبية الأثرية ذات القيمة التي لا تقدر !

وارتدت أوجيني ثوبها الجديد على العشاء ، فبدت فيه أبهى جمالا من المألوف ، وكان أبوها بادى البهجة والمرح ، فصاح بالخادمة نانون : « أوقدى النار لنا ، فاليوم يوم عيد ميلاد أوجيني ، وسوف يكون ايقادها فألا حسنا ! »

فأجابت نانون وهي ترفع عن المائدة بقايا أوزة : « سوف تتزوج الآنسة أوجينى قبل انقضاء عام ، هذا مؤكد ! »

فقالت مدام جرانديه : «لا أعرف فى سومور شخصا يصلح لأوجينى »۰ ثم رمقت زوجها بنظرة خجلى تنم عن مدى تأثير زوجها واستبداده فى تحطيم ثقتها بنفسها !

فنظر جرانديه الى ابنته وقال فى مرح : « ينبغى فى الواقع أن نبدأ التفكير فى أمرها ۰۰ فانها اليوم قد صارت فى الثالثة والعشرين من عمرها ! »

وكان وجه مدام جرانديه نحيلا مغضنا شاحبا فى صفرة الزعفران ۰ وكانت بطيئة فى حركاتها قليلة الحيلة ، شأن من خلقت كى يسيرها ويسيطر عليها رجل حازم مستبد ۰۰ وكانت كبيرة الجسم ، كبيرة الأنف والعينين ، بارزة الجبهة ۰۰ توحى النظرة الاولى اليها بشىء من الشبه بينها وبين ثمرة من ثمار الفاكهة الجافة المغضنة .. والاسنان القليلة التى بقيت فى فمها صارت قاتمة اللون .. وحول فمها كثرت الغضون العميقة .. وكان ذقنها يبدو أشبه بكسارة البندق واللوز ..!

وقد وجد الأب كروشو الفرصة أكثر من مرة ليذكر لها أنها لم تكن فى شبابها على هذا القدر من قبح الخلقة ، فلم تخالفه هى فى ذلك .. وقد ساهمت فى حظوتها برثاء الناس واحترامهم عذوبة مظهرها الملائكى ،ومسحة العجز البادية عليها والتى تجعلها أشبه بفراشة فى أيدى أطفال قساة القلوب، فضلا عن تدينها وتقاها ، وطيبة قلبها ، وهدوء طبعها الذى لا يثيره أو يستفز حدته شيء ما . واذا كان مظهرها قد يدعو الى الابتسام ، فان أحدا لا ينكر أن زوجها قد جنى من ورائها أكثر من ثلاثمائة ألف فرنك ، بعضها من بائنة زواجها ، وبعضها الآخر من نصيبها فى ارث أو وصية .. ومع ذلك لم يكن جرانديه يعطيها فى اليوم أكثر من ستة فرنكات ، وكانت هى دائما تعتبر نفسها معتمدة على زوجها فى نفقتها . وقد حالت طبيعتها الرقيقة الواهنة دون ثورتها على طغيان زوجها . ولكن بلغ من وطأة شعورها بمذلة موقفها أنها آلت على نفسها ألا تسأله يوما أى مبلغ من المال . وحين كان مسيو كروشو يطالبها بالتوقيع على أية وثيقة أو ورقة رسمية كانت توقع دون أن تنطق بأى كلمة! . وكانت هذه الحساسية والكبرياء اللتان جرحهما جرانديه ، مضافا اليهما التسامح الكريم الذى عجز عن فهمه .. هى أخص الصفات الغالبة المسيطرة على شخصية مدام جرانديه

ولم يكن زى ملبسها يتغير قط !.. كان ثوبها دائما من قماش بسيط يميل لونه الى الخضرة ، وكان يعيش فى العادة نحو عام بكامل . والمنديل الكبير الذى حول رقبتها كان من نسيج قطنى . وكانت تضع على رأسها قبعة صغيرة من القش

ولم تكن تبرح منزلها الا نادرا، بحيث لا تكاد تستعمل حذائيها المخصصين

للطريق : والواقع ان احتياجاتها كانت غاية فى القلة ، فلم تكن تطلب شيئا لنفسها ، واحيانا كان زوجها يتذكر انه قد مضى زمن طويل منذ أعطاها الفرنكات الستة ، فيتململ ضميره قليلا .. وعند شروعه فى بيع محصول الكروم والنبيذ كان يطالب الشارى ببعض الزيادة فى الثمن خصيصا من أجل زوجته !.. وكانت هذه الزيادة التى تبلغ عادة اربعة جنيهات أو خمسة ، وتخرج من جيب التاجر البلجيكى أو الهولندى ، هى ايراد مدام جرانديه ، الوحيد المضمون كل عام . على أن زوجها كان يعود بعد حين فيقول لها ــ وكأن لكليهما كيس نقود واحد مشترك ــ : « هل عندك بضعة فرنكات تقرضينني اياها ؟ » . فكانت المرأة المسكينة تعيد لزوجها خلال الشتاء أكثر من ريال من مالها المدخر ، مغتبطة بأن يكون فى استطاعتها أن تفعل شيئا من أجل الرجل الذى علمها القسيس فى جلسات اعترافها أن تنظر اليه باعتباره سيدها ومولاها !

وفى كل شهر ، عندما كان جرانديه يعطى ابنته قطعة من ذات الخمسة فرنكات لنفقات الابر والخيط وتكاليف اصلاح الثياب ، كان يقول لزوجته ــ بعد ان يغلق كيس نقوده فى كل مرة : « وانت يا أماه ، هل تريدين شيئا ؟ » .. فتجيبه مدام جرانديه ، بوقار الأم : « سوف نتحدث فى هذا معا فيما بعد يا عزيزى ! »

وحينما أثير موضوع زواج أوجينى بعد العشاء ، يوم عيد ميلادها الثالث والعشرين ، ذهبت نانون الى غرفة جرانديه فى الطابق العلوى كى تحضر زجاجة من الزبيب الحلو ، وفيما هى تهبط السلم زلت قدمها فكادت تسقط !.. واذ ذاك هتف بها سيدها : « يا للغباء !.. هل بدأت تعتادين السقوط من السلم كل حين ؟! »

فأجابته نانون : « ان درجة السلم قد تآكلت ولم تعد آمنة ! »

. وأردفت مدام جرانديه تحدث زوجها : « كان ينبغى أن تطلب اصلاحها منذ زمن . فقد كادت أوجينى تسقط منها أيضا أمس ! »

ورأى جرانديه وجه نانون شاحبا من أثر السقطة فقال لها فى كرم بالغ : « اليوم عيد ميلاد أوجينى . وما دمت قد سقطت من السلم ، فلا بأس بأن تأخذى قطرة من هذا الزبيب كى يعيد اليك قواك ! »

فقالت نانون : «أقسم انى أستحقها ، فقد كانت غيرى كفيلة بترك الزجاجة تنكسر أثناء سقوطها ، فى حين انى كدت أكسر مرفقى حرصا منى على انقاذ الزجاجة ! »

فقال جرانديه وهو يصب لها الزبيب : « مسكينة نانون ! »

وسألتها أوجينى مستفسرة : «هل أصبت بسوء ؟» . فأجابتها الخادمة : « كلا !. لقد قاومت السقطة فوقعت على جنبى ! »

ثم قال لها جرانديه : « لما كان اليوم عيد ميلاد أوجينى فانى سأصلح

السلم من أجلك .. انكن معشر النساء لا تعرفن كيف تضعن قدمكن فى الركن السليم الآمن ! »

ثم أخذ الشمعة ومضى بها للقيام بهذه المهمة تاركا النسوة الثلاث بغير ضوء فى الغرفة سوى وهج النار المتراقصة فى المدفأة ، وكان يحتفظ بعدد من قطع الخشب والمسامير والادوات اللازمة ، فأخذ بعضها معه وبعد حين سمعت طرقات على خشب الدرجة المتآكلة من السلم، فهتفت نانون بسيدها: « أأنت فى حاجة الى معونة ؟ »

فأجابها : « كلا !. انى خبير بهذه الامور ! »

وفى هذه اللحظة ، بينما كان جرانديه يصلح بنفسه درجة السلم المتآكلة ويصفر فى مرح وقد تواردت على ذهنه ذكريات أيام شبابه .. طرق آل كروشو باب المنزل !

واذ نظرت نانون من ثقب الباب ورأت أحدهم دى بونفون هتفت به : « أهذا أنت يا مسيو كروشو ؟ »

فأجابها القاضى : « نعم » .. وفتحت نانون الباب ، فوقع ضياء نار المدفأة على الرجال الثلاثة يدلفون الى المكان .. فابتدرتهم نانون وقد عطر أنفها أريج باقات الزهر التى جاءوا بها : « أوه ، هل جئتم لتحتفلوا معنا بعيد ميلادها ؟ »

وصاح بهم جرانديه وقد عرف أصواتهم : « أرجو المعذرة فسوف ألحق بكم بعد لحظة . لست آنف من العمل اليدوى .. انى منهمك فى اصلاح درجة سلم مكسورة ! »

فأجابه كروشو القاضى وهو يخفى سخريته : « استمر فى عملك يا مسيو جرانديه ، ان (الفحام) سيد فى بيته ! »

ونهضت مدام جرانديه وابنتها لتحية القادمين ، وانتهز القاضى فرصة الظلام كى يتحدث الى أوجينى ، فابتدرها قائلا : « أتسمحين لى يا آنستى، فى يوم عيد ميلادك ، بأن أرجو لك أعواما عديدة متوالية من الرخاء والصحة اللتين تستمتعين ببركتهما اليوم ؟ »

ثم قدم لها باقة من الزهر كان يندر وجود مثلها فى سومور ، وأمسك بذراعيها وطبع قبلة على جانبى رقبتها .. فكان من أثر هذه التحية الحارة أن صعد الدم الى وجنتى الفتاة !

كان القاضى طويل القامة ، نحيلها ، وكانت تلك طريقته فى المغازلة .. وبعد برهة أقبل جرانديه الى الغرفة فقال يخاطب زائريه الذين هموا بالوقوف : « لا تزعجوا أنفسكم ، انه كرم عظيم من جانبك يا سيدى القاضى هذا الذى تفعله فى يوم العيد ! »

فقال الاب كروشو الذى كان يحمل هو الآخر باقة من الزهر : « ان كل

يوم يقضيه ابن أخى والآنسة بجواره سوف يكون عيدا ! » .. ثم لثم يد أوجينى

أما مسيو كروشو مسجل العقود فقبل وجنتى الفتاة فى غير كلفة وهو يقول : « ان هذه الاحتفالات بأعياد الميلاد تشعرنا بشيخوختنا .. أليس كذلك ؟.. ان كل اثنى عشر شهرا تمر تعنى تقدمنا فى العمر عاما ! »

ووضع جرانديه الشمعة أمام الساعة النحاسية فوق رف المدفأة ، وقال مكررا : « لما كان اليوم عيد ميلاد أوجينى فلنكثر من الأضواء ! » . ثم أحضر شمعة أخرى جديدة فأزال عنها ورقتها وثبتها فى الشمعدان وأضاءها .. وعاد فجلس الى جوار زوجتـــه وهو ينقل بصره بين ابنته وأصـــدقائه والشمعتين المضاءتين !

وكان الاب كروشو رجلا بدينا قصير القامة يضع على رأسه تاجا من الشعر المستعار ، ويشبه وجهه وجه امرأة عجوز أنفقت حياتها حول مائدة القمار !. وفى تلك اللحظة كان يمد قدميه مظهرا حذائيه النظيفين الجديدين المحليين بأنشوطتين فضيتى اللون ، ثم تساءل قائلا :

ــ ألم يأت آل جراسان بعد ؟

فأجابه جرانديه : « لعلهم فى الطريق الينا الآن ! »

وهنا قال مسجل العقود ذو الوجه الملىء بالحفـــر والاخاديد : « هل حضورهم أمر مؤكد ؟ »

فأجابت مدام جرانديه : « أعتقد انهم سيأتون ! »

وتساءل القاضى دى بونفون موجها الخطاب الى جرانديه : « هل جمعت كل محصول الكروم ؟ »

فأجابه هذا وهو ينهض ويذرع الغرفة ذهابا وجيئة وقد أضفى على كلامه لهجة الاعتداد بالنفس : « نعم ، فى كل مكان ! »

وحين مر جرانديه أمام الباب المفضى الى الممر حانت منه نظرة خاطفة الى المطبخ . فرأى النار مشتعلة فى موقده ، وشمعته ما تزال متقدة فيه ، وكانت نانون توشك أن تبدأ فتل حبال الكتان على مقربة من النار،اذ لم تشأ أن تتطفل على حفلة عيدالميلاد .. فهتف بها سيدها وهو يدلف الى الممر : « نانون ، لماذا بربك لا تطفئين الموقد والشمعة وتأتين الى هنا ؟.. ان الغرفة من السعة بحيث تكفينا جميعا ! »

فقالت له : « لكنك تنتظر زوارا جليلى المكانة يا سيدى ! »

فقال لها : « هل لديك أدنى اعتراض عليهم ؟.. انهم جميعا من سلالة آدم مثلك ! »

ثم عاد جرانديه أدراجه ، وقال للقاضى : « وأنت .. هل بعت نبيذك ؟ »

فأجاب دى بونفون : « لا .. انى أحتفظ به .. فلئن كان النبيذ طيبا الآن فسوف يزداد جودة بعد عامين. وان زارعيه كما تعلم يؤلفون نقابة ويعتزمون

الاحتفاظ بأسعاره فى مستواها العالى . ان الشارين البلجيكيين لن يتحكموا فى السوق هذا العام ولا بد من اذعانهم لارادتنا ! »

فقال جرانديه : « نعم ، لكننا ينبغى أن نصمد فى موقفنا ! »

وحدث القاضى نفسه قائلا : « ماذا لو باع الرجل نبيذه من وراء ظهورنا ؟ ! »



وفى تلك اللحظة سمعت طرقة أخرى على الباب تعلن وصول آل جراسان ، فانقطع الحديث الهادىء بين جرانديه والقاضى ، ثم دخل الضيوف الغرفة . وكانت مدام دى جراسان امرأة مرحة صغيرة الجسم يختلط فى بشرتها البياض ولون الورد . وقد بلغت الاربعين لكنها بفضل حياتها المنتظمة فى الريف على وتيرة هادئة ، بقيت حافظة لشبابها ومظهرها الجميل

كانت ترتدى ثيابا انيقة تستوردها من باريس ، فقد كانت تتصدر مجتمع سومور وتقيم حفلات الاستقبال بين الحين والآخر !

وكان زوجها يشغل منصبا فى الحرس الامبراطورى ثم تقاعد مكتفيا بمعاشه بعد أن أصيب بجرح بالغ فى معركة اوسترلتز ، ومع احترامه وتقديره لجرانديه ، كان يحتفظ بشىء من صلف الجندية فقال وهو يمد اليه يده مصافحا ، فى حركة تعال وكبرياء : « طاب يومك ياجرانديه » ثم انحنى لمدام جرانديه وأردف مخاطبا اوجينى : « انك دائمة جذابة فاتنة طيبة يا آنستى !.. وماذا يرجو لك الانسان غير ذلك ؟ »

ثم تناول صندوقا صغيرا كان يحمله خادم وقدمه لها قائلا : « ان فيه نباتا نادرا لم يدخل اوربا الا حديثا »

وفى الوقت نفسه اقتربت زوجته من اوجينى وعانقتها بحرارة ثم ضغطت يدها قائلة : « لقد انبت ادولف عنى فى تقديم هديتى المتواضعة لك لمناسبة عيد ميلادك ! » .. وعند هذا تقدم لتحية الفتاة شاب طويل القامة جميل الشعر ، تبدو عليه مسحة الشحوب والضعف . وكان مسلكه طيبا برغم خجله النسبى ، فقد أتم حديثا دراسته القانونية فى باريس حيث انفق حوالى عشرة آلاف فرنك فوق مرتبه ، وبعد أن قبل وجنتى الفتاة وضع أمامها صندوقا صغيرا ذا رباط مفضض ، حفر على غطائه الفاخر الحرفان الاولان من اسمها .. !

ورفعت اوجينى غطاء الصندوق وقد استخفتها السعادة المفاجئة ، التى تلون وجوه الفتيات وتجعلهن يرتجفن غبطة . واستدارت عيناها نحو ابيها ، كأنما تسأله هل تقبل هذه الهدية ؟. فأجاب مسيو جرانديه على تساؤلها الصامت قائلا فى لهجة تمثيلية : « خذيها يا ابنتى » .. بينما

وقف آل كروشو الثلاثة جامدى النظرات حين رأوا النظرة المشرقة البهيجة التى تلقاها اودلف دى جراسان من الفتاة ، التى بدت كأنما قد ادار رأسها هذا الاحتفاء الذى لم تحلم به

وقدم مسيو دى جراسان علبة سعوطه الى جرانديه ، ثم أخذ لنفسه منهـا ما ملأ منخريه ، وراح ينفض الذرات التى تساقطت منه على سترته الزرقاء وعلى شريط وسام فرقة الشرف « اللجيون دونور » الذى يحلى صدره !

ووقعت عينا مدام دى جراسان على الاوانى الزجاجية الزرقاء التى وضعت فيها أزهار آل كروشو ، فرمقتهـا بنظرة المتظـاهرة بالاهتمام بأمرهـا ، تجنبـا للحرج الذى ران على موقف التحـدى بين الاسرتين المتنافستين . وأخيرا نهض الاب كروشو تاركا الباقين ملتفين حول المدفأة ، لينتحى مكانا خاليا فى طرف الغرفة مع المسيو جرانديه ، فلما بلغا النافذة همس فى أذن صاحب المنزل قائلا :

ــ هؤلاء الناس يرمون أموالهم من النافذة !

فقال جرانديه: « وماذا يضيرنى من ذلك ما دامت الاموال تمر بطريقى؟ »

وحدث الاب كروشو نفسه حانقا : « يا لحماقة ابن أخى !.. لم لم يحضر هدية نفيسة غالية الثمن ؟ » .. بينما قالت مدام دى جراسان تحدث مضيفتها مدام جرانديه :

ــ فلنلعب الورق !

ــ لكن عددنا أكبر من أن يشترك فى مائدة لعب واحدة !

وهنا أشار جرانديه الى ابنته والى اودلف دى جراسان وقال :

ــ ان اليوم عيد ميلاد اوجينى فلم لا نلعب جميعا ؟.. ان هذين الطفلين يستطيعان الاشتراك فى اللعب أيضا !

ثم التفت الى نانون خادمته وقال لها :

ــ هيا يا نانون ، اخرجى هذه المناضد من هنا !

فقالت لها مدام دى جراسان فى لهجة مرحة : « سوف نعينك يا آنسة نانون »

وشد ما كان سرورها اذ لحظت ابتهاج اوجينى بالهدية التى تلقتها ثم قالت لها هذه : « انى لم أر فى حياتى أجمل من هذه الهدية ، ولم أحس يوما بمثل هذه السعادة ! »

فهمست مدام دى جراسان فى أذنها : « ان ادولف هو الذى اختارها ، أحضرها من باريس ! »

أما مسجل العقود فربض فى مقعده هادئا يراقب الامور ويحدث نفسه وهو يتابع بنظراته أخاه الأب كروشو : « فليفعل آل جراسان ما يتراءى

لهم ، لكن ثروتى وثروة أخى وابن أخى تبلغ مليونا ومائة ألف من الفرنكات !.. بينما لايمكن أن تجاوز ثروة آل جراسان نصف هذا المبلغ ، هذا الى ان لهم ابنة أخرى تشارك ابنهم ميراثه .. فليقدموا من الهدايا ماشاءوا ، فسوف يؤول ذلك كله الينا يوما. الوارثة وهداياها أيضا ! »

وفى الساعة الثامنة والنصف كانت قد أعدت منضدتان للعب. وأفلحت مدام دى جراسان ، بأساليبها الماكرة ، فى تدبير جلوس ابنها الى جوار اوجينى . وكان كل من الممثلين على مسرح هذه الرواية الصغيرة التى تبدو تافهة فى مظهرها ، ممتلىء النفس اهتماما فى أعماق ضميره .. وقد زود كل منهم بقطع من الطباشير الملون و « الماركات » الخاصة باللعب. وبدا على الجميع الاصغاء الى النكات المستملحة التى كانت تصدر من مسجل العقود . لم يكن يسحب بيده ورقة الا ويعلق عليها بكلمة أو نكتة .. أما فى أعماقهم فكان الجميع يفكرون فى ملايين المسيو جرانديه !

وكان الثرى الشحيح لايفتأ يرمق الجميع فى شىء من الزهو .. وينقل عينيه بين مدام دى جراسان بوجهها الذى تبدو عليه الزينة المتقنة ، وقبعتها ذات الريش الملون .. وبين وجه زوجها المالى الكبير ذى السحنة العسكرية .. ثم الى ادولف ، والقاضى ، ورجل الدين ، ومسجل العقود. محدثا نفسه أثناء ذلك : « انهم جميعا يبغون مالى . هذا ما جاء بهم اليوم الى هنا .. من أجل ابنتى يتحملون هذا الجو الممل مرحبين .. لكن ابنتى لن تكون من نصيب أحد منهم ! انهم جميعا (طعم) استخدمه فى اصطياد الشاب الذى أريده ! »

واستمرت السهرة العائلية المرحة .. تتخللها ضحكات الحاضرين وكلها متكلفة ما عدا ضحكات اوجينى وأمها ! كما تخللها صرير آلة غزل الكتان التى تعمل عليها الخادمة نانون

كان الضيوف جميعا يتحدثون ويتحركون وفقا لما رسموه من خطط تقوم على الطمع والخداع ، بينما كانت الفتاة نفسها أشبه بطائر نادر ، يتسابق الصيادون الى الظفر به ، وهكذا وجدت نفسها مطاردة بمزاعم الصداقة والحب من جانب كل الحاضرين الطامعين فى مالها وحده ! .. وكانت الرواية التى تمثل فى تلك الحجرة العتيقة الغبراء ، على ضوء الشمعتين الخافت ، خليطا من الكوميديا والدراما . وقد تفوق جرانديه العجوز على بقية الممثلين

كانت المشاعر الرقيقة العذبة للحياة الانسانية تحتل عنده المكان الثانى من الاهمية !.. لكن هذه المشاعر كانت تملأ يومئذ قلوب ثلاثة من القوم ، بحيث لاتدع فيها فراغا لأية أفكار أخرى .. تلك هى قلوب : نانون ، وأوجينى ، وأمها !.. ومع ذلك فما كان أعظم الجهل الذى اختلط فى قلوبهن ببساطتهن البريئة ! .. لم تكن أوجينى وأمها تعرفان شيئا عن ثروة عائلهما .. وكانتا تريان كل شىء من خلال المنظار المبهم الذى يسمح

لهما به عالمهما الضيق .. فلا تشتهيان المال ولا تحتقرانه ، من فرط ما اعتادتا الاستغناء عنه .. ما أعجب الانسان ! ما من قطرة من السعادة تكون من نصيبه الا كان منبعها الجهل !

وربحت مدام جرانديه فى اللعب مبلغا من النقود لم تكن تحلم به ، فأشرقت عينا نانون فرحا لفرح سيدتها .. وفجأة سمعت طرقة شديدة على الباب ، ففزعت النساء فى مقاعدهن!.. وقال مسجل العقود : « مامن شخص فى سومور يطرق الباب هكذا ! »

وعلقت نانون بدورها : « لماذا يدقون هكذا ؟ هل يريدون خلع بابنا ؟ »

وصاح جرانديه : « من الطارق بحق الشيطان ؟ » .. فأخذت نانون شمعة من الشمعتين الموقدتين واتجهت نحو الباب .. وتبعها جرانديه !

وصاحت ربة البيت بزوجها وقد تملكها رعب خفى : « جرانديه .. جرانديه ! » . ثم هرعت بدورها نحو باب الغرفة

ونظر بقية اللاعبين كل منهم الى الآخر .. فقال مسيو دى جراسان : « فلنذهب نحن أيضا لنرى ما هناك .. يبدو لى ان هذه الطرقة نذير سوء ..! »

ولكن لم يكد مسيو دى جراسان يلمح من الباب الخارجى وجه شاب وحمالا يحمل حقيبتين كبيرتين وعددا من الطرود والحقائب الصغيرة حتى استدار رب البيت نحو زوجته صائحا فى حدة : « عودى الى اللعب ، ودعينى أتفاهم مع هذا الشاب هنا » .. ثم أغلق باب الردهة ، وعاد اللاعبون فجلسوا الى مائدتهم من جديد ، لكن الفضول عاقهم عن مواصلة اللعبة .. وتساءلت مدام دى جراسان مخاطبة زوجها :

ــ هل هو شخص من أهل سومور ؟

ــ كلا .. بل غريب عن البلدة !

ــ اذن فلا بد انه قادم من باريس ؟

فانبرى مسجل العقود يقول وهو يخرج ساعته من جيبه وينظر فيها : « على أية حال الساعة التاسعة الآن ، وعربة البريد لاتتأخر عن موعدها الا فيما ندر »

بينما سأل الاب كروشو : « هل هو شاب فى مقتبل العمر ؟ » .. فأجاب مسيو دى جراسان : « نعم ، والمتاع الذى معه لايقل وزنه فيما أعتقد عن ثلاثمائة كيلو ! »

وقالت اوجينى : « الغريب ان نانون لم تعد ! »

فقال القاضى معلقا : « لابد انه شخص من أقربائكم »

فقالت مدام جرانديه بلهجتها الرقيقة: « فلنجرب طريقة الاستنتاج : أستطيع أن أفهم من رنين صوت مسيو جرانديه انه يضطرب بعض الشىء لمرأى القادم ! »

وقبل أن ترتب المرأة على هذه الملاحظة النتيجة التى تراها ، قال ادولف مخاطبا جارته اوجينى : « قد يكون القادم ابن عمك يا آنسة ، وهو شاب لطيف وسيم الخلقة لقيته مرة فى حفلة راقصة بدار مسيو دى نوسينجن » .. ولم يستطرد أدولف فى كلامه أكثر من ذلك ، فقد ضغطت أمه بقدمها قدمه تحت المنضدة وهمست له منتهزة فرصة إنشغال القوم عنهما : « هلا أمسكت لسانك أيها الغبى ؟ ! »

وسمع الحاضرون صوت خطوات نانون والحمال على درجات السلم ، بينما عاد جرانديه الى الغرفة وفى أثره الضيف الذى أثار كل هذا الفضول وأطلق خيال المجتمعين بلا استثناء !

وقال جرانديه يخاطب الضيف القادم : « خذ مقعدا الى جوار النار يابن أخى ! »

فنظر شارل جرانديه حواليه فى أنحاء الغرفة وانحنى فى تأدب قبل أن يجلس .. واذ ذاك نهض الرجال بدورهم وانحنوا يردون له التحية ، وكذلك النساء بطريقتهن الخاصة .. بينما قالت له مدام جرانديه : « أحسب انك تشعر بالبرد ياسيدى .. فأنت قادم ولاشك من .. » وهنا قاطعها زوجها وهو يرفع بصره عن الخطاب الذى فى يده : « هكذا النساء ! .. ألا تتركن الرجل يأخذ قسطه من الراحة ؟ » .. فأجابته أوجينى : « ولكن يا أبى قد يكون السيد فى حاجة الى شىء بعد رحلته الطويلة ! » .. فأجابها أبوها فى لهجة جافة : « أن فى فمه لسانا ! »

وكان الغريب أشد الحاضرين دهشة لهذه اللهجة .. أما الباقون فكانوا قد ألفوا لهجة جرانديه ومسلكه الاستبدادى . ولكن بعد أن سمع الشاب اجابات مضيفه على الاستفسارين السالفين نهض من مقعده ووقف وظهره الى الحائط ومد قدمه الى النار ليدفىء قدميه ، ثم قال لاوجينى : «شكرا يا ابنة العم ، لقد تعشيت فى (تور) ولست فى حاجة الى شىء ! » . ثم أضاف وهو ينظر الى أبيها : « لست تعبا يا عماه ! »

وهنا سألته مدام دى جراسان : « هل جئت من باريس ؟ »

فتناول الشاب عويناته التى كانت مدلاة من رقبته بخيط وثبتها على عينيه ثم ألقى نظرة على الحاضرين وعلى محتويات الغرفة ، وخص مدام دى جراسان بنظرة باردة ، وأخيرا قال يجيبها عن سؤالها : « نعم يا سيدتى» . ثم أضاف يحدث مدام جرانديه : « أتلعبين الورق يا عمتى ؟ أرجو أن تستمروا جميعا فى اللعب ، فليس أسخف من قطع اللعبة ! »

وحدثت مدام دى جراسان نفسها وهى تختلس نظرة جانبية اليه بين حين وآخر : « كنت أعرف انه ابن العم ! »

وصاح الاب كروشو وقد جاء دوره فى اللعب : « سبعة وأربعون .. أليس هذا دورك يا مدام دى جراسان ؟ »

لكن ذهن مدام دى جراسان كان شاردا عن اللعب لانشغالها بمراقبة اوجينى وابن عمها القادم من باريس . وقد لحظت ان الفتـاة تختلس النظر اليـه بين حين وآخر . ولم يصعب على زوجة المالى الكبير أن تكتشف فى تلك النظرات ظلالا من الدهشة أو الفضول !

وفى الواقع كانت ثمة مفارقة صـارخة بين مسيو شـارل جرانديه ، الشاب الوسيم الذى لم يتجاوز الثانية والعشرين من عمره وبين شباب الاقاليم الذين اشمأزوا من نزعته الارستقراطية وراحوا يراقبون حركاته وقد امتلأت نفوسهم احتقارا وسخرية منه ! ..

وفى سن الثانية والعشرين لايكون عهد الانسـان بالطفولة والتصرفات الصبيانية قد بعد .. وقد كان غرور شارل جرانديه صبيانيا ، ولـكن لعل تسعة وتسعين من كل مائة شاب يستسلمون مثله لغرور الشباب !..



كان أبوه قد طلب اليه منذ أيام أن يتأهب لزيارة عمه فى سومور كى يقضى عنده بضعة أشهر . ولعل الشقيق البـاريسى قد فكر فى هـذا « المشروع » وفى ذهنه صورة ابنة أخيه أوجينى !.. وهكذا جاء شارل الى هذه البلدة الريفية لأول مرة فى حياته ، فقرر أن يظهر فى مجتمعاتها بمظهر الشاب الباريسى الراقى المتعالى .. انه سوف يدخل اليأس الى قلوب أهل البلدة بسنائه ولألائه ، ويفتتح فى تاريخها عهدا جديدا ، ويدخل اليها أحدث وسائل الراحة والترف الباريسية . وقد اعتزم أن يخصص فى سومور للعناية بأظافره وأزياء ثيـابه وقتا يزيد على الوقت الذى كان يخصصه لهذا الغرض فى باريس !

ومن ثم أحضر الفتى معـه الى البلدة أجمـل أزياء الصيد وأحدث أسلحتـه وبنادقه كما أحضر مجموعة بديعـة من السـترات : الرمادية والبيضاء والسوداء ، والخضراء والمذهبة .. ذات الرقبة المفتوحة أوالمقفلة ، والواسعة أو الضيقة .. كما جلب معه عددا من أربطة الرقبة الرائعة ، وحافظة لكتابة الخطابات بديعة الصنع كانت قد أهدتها اليه أجمل نساء الارض فى نظره وهى سيدة عظيمة أطلق عليها اسم « انيت » ، سافرت منذ حين مع زوجها الى اسكتلندا ، تاركة عشيقها الشاب مراعاة لواجب المجاملة لزوجها !

وقـد أحضر الفتى معه مجموعة من ورق الخطابات الملون الذى ينم اختياره عن ذوق سليم ، كى يكتب رسائله اليها كل حين

ويكفى القول بأن شحنة المستحدثات الباريسيـة التى أحضرها الفتى معه ، كانت كاملة لايكاد ينقصها شىء ، حتى السوط الذى يصلح لاهانة الخصم واستفزازه للمبارزة ، بل أحضر معه المسدسين اللذين ينهيـان

المبارزة .. وغير ذلك من الاشياء التى تلزم لشاب عاطل مترف !

وكان أبوه قد أوصاه بأن يسافر وحده بوسائل المواصلات المتواضعة ، فأطاع وصيته وحضر فى عربة من عربات الدرجة الثانية التى تجرها الجياد، مدخرا العربة الانيقة المريحة للسفرة التالية التى يعتزم أن يقوم بها فى شهر يونية ليلقى عشيقته الحسناء فى مصيف « بادن بادن »

وقد توقع شارل أن يلقى أشتاتا من الناس خلال فترة اقامته عند عمه ، وأن تتاح له الفرصة للقيام بنزهات الصيد فى أراضى عمه .. كما توقع أن يجد بيتا فسيحا وسط ضيعة فسيحة ، ولم يجل بخاطره أن القوم يقطنون فى سومور . بل انه لم يدرك هذه الحقيقة الا حين بلغت به العربة مفترق الطرق فى « فراودفون » .. وبقى برغم ذلك الاستكشاف يحسب انه سيجد عمه يعيش فى قصر عظيم ، وعلى هذا هيأ نفسه لكى يبدو للقوم فى المظهر اللائق ، وهم يرونه لاول مرة ، فارتدى سترة من أجمل سترات السفر التى يملكها ، تجمع بين البساطة والجمال . وحين بلغ مدينة « تور » دعا حلاقا ليقص له شعره الكستنائى الجميل ويجعده ، ثم أبدل ثيابه الداخلية ، واتخذ رباطا لرقبته من الساتان الأسود اللامع يتناسب مع لون سترته ووجهه الشاحب الساخر .. وفوق هذا ارتدى معطفا طويلا ضيقا عند الخصر ، ووضع ساعته فى جيب جانبى مظهرا سلسلتها الذهبية المثبتة فى عروة السترة . أما بنطلونه فكان رماديا ذا أزرار جانبية ، مطرزا بالحرير الاسود .. ثم أمسك فى يده قفازين رماديين وعصا ذات مقبض ذهبى تسترعى الانتباه والاعجاب !

فاذا أردت بعد هذا أن تقدر مدى الدهشة التى بدت فى النظرات التى تبادلها القوم فى سومور مع الشاب الباريسى ، ففى وسعك أن تصور لنفسك هذا الشاب اللامع وسط تلك الحجرة الكئيبة المقبضة التى جلس فيها أفراد أسرة جرانديه وضيوفهم آل كروشو وآل دى جراسان !

وقد بدأ آل كروشو اظهار رد الفعل التقليدى لقدوم الشاب غير المرغوب فيه — من جانبهم على الأقل — بأن تناول ثلاثتهم قدرا من السعوط ، غير مبالين بما تناثر منه على ياقات ستراتهم وقمصانهم القذرة التى لا تتناسب مع أناقة الفتى الباريسى ونظافة ثيابه ، وان تناسبت مع وجوههم المغضنة وقسماتهم المجعدة .. كانوا هم وملابسهم مثالا للمخلوقات الريفية التى أكل عليها الدهر وشرب ، والتى كفت عن الاهتمام بمظهرها وبرأى الآخرين فى هيئتها ..

وأعاد الشاب الباريسى نظارته المعلقة برقبته الى عينيه ليستأنف تأمل محتويات الغرفة العجيبة .. فرفع اللاعبون أبصارهم اليه فى فضول وحدقوا فيه مأخوذين ، وكأنما ظهرت وسطهم فجأة زرافة شاردة من حديقة الحيوان !

حتى مسيو دى جراسان وابنه ، وقد شاهدا من قبل مثل هذا الفتى

العصرى المتحضر ، شاركا بقية القوم فى دهشتهم ، انسياقا فى تيار الدهشة العامة ، أو استياء من حركات الشاب المتغطرسة !

وكانت نظرات الجميع تكاد تنطق متسائلة : « أهكذا يلبس الناس فى باريس ؟ »

وراق للجميع أن يراقبوا شارل كما يحلو لهم ، دون حرج أو خوف من اغضاب رب البيت ، الذى كان منهمكا فى قراءة خطاب طويل فى يده على ضوء الشمعة الوحيدة الباقية فى المكان ، وكان قد انتزعها من فوق المنضدة المجاورة دون أن يراعى راحة ضيوفه أو مسرتهم !

وبدا لأوجينى ، التى لم تر فى حياتها شخصا مثل هذا ، ان ابن عمها رؤيا من رؤى الملائكة ، مخلوق هبط من السماء !.. ان العطر المنبعث من خصلات شعره المجعد الجميل يملأ خياشيمها ، ويكاد يغريها بأن تمر بأناملها على هذا السطح الناعم المتماوج !.. بل انها لتغبط شارل على يديه الصغيرتين ، وبشرته ، وقسمات وجهه التى تشرق بنضارة الشباب ! ..
والواقع ان تأثير مرأى الشاب الوسيم الانيق كان قويا على هذه الفتاة الجاهلة التى انقضت حياتها الماضية بين رفو الجوارب واصلاح ثياب أبيها ، والجلوس الى نافذة الغرفة العتيقة التى تطل على الشارع الصامت الموحش الكئيب !

وأخرج شارل من جيبه منديلا طرزته له خليلته قبل أن تسافر مع زوجها الى اسكتلندا ، نسجته يدها فى ساعات الحب الطويلة الشاردة ..
وكان المنديل من جمال الصنع ودقة التطريز بحيث لم تصدق أوجينى انه سيستعمله !.. ثم أظهر الشاب ازدراءه للصندوق الصغير الذى أهداه آل جراسان منذ برهة الى الفتاة فسرت به وقتئذ كل السرور ، فقد كان فى نظره هدية تافهة سخيفة .. ثم أخذ يتفحص الموجودين بمنظاره فى حركة كبرياء وعدم اعتداد بهم !..

والواقع ان كل مظهر من مظاهر تحدى الفتى لآل كروشو وآل جراسان، أدخل على قلب أوجينى السرور والغبطة حتى أنها ظلت ساهرة فى فراشها طويلا تلك الليلة تفكر فى ابن عمها هذا !

وانتهى اللعب بعد حين ، وأقبلت نانون الى الغرفة تقول بصوت عال : «سيدتى ، ينبغى أن تعطينى ما يلزم من المفروشات لاعداد فراش السيد . »
.. وعلى أثر ذلك مضت مدام جرانديه مع نانون ، بينما قالت مدام دى جراسان بصوت خافت : « فلنحتفظ بنقودنا ونكف عن اللعب . » .. واذ ذاك استرد كل لاعب نقوده ، وحدث هرج ومرج قرب المدفأة ، فتساءل جرانديه وهو ما يزال يقرأ الخطاب : « هل انتهى اللعب ؟ »

فأجابت مدام دى جراسان وهى تجلس على المقعد المجاور لشارل : « نعم ، نعم . »

وغادرت أوجينى الغرفة لتساعد أمها ونانون فى اعداد فراش الضيف ،

مدفوعة بفكرة راودتها مع الشعور الغامض الذى انتاب قلبها لاول مرة . لو أن قسيساذكيا سألها عما يدور فى ذهنها لاعترفت له بلا شك بأن فكرها لم يكن متجها الى أمها ولا الى نانون ، بل انها قد باتت تتملكها رغبة قلقة عاجلة فى أن ترى كل شىء معدا لراحة ابن عمها ، وأن تشغل نفسها بأمره ، وتستوثق من أن شيئا ما لم ينس اعداده لراحته ، وتفكر فى كل ما يمكن أن يحتاج اليه فتوفره له ، نظيفا جميلا كأحسن ما ينبغى أن يكون !

انها وحدها التى تستطيـــــع أن تدخل فى فكر ابن عمهـــــا وتفهم ذوقه ومطالبه !

والواقع أنها قد وصلت فى اللحظة المناسبة،حين كانت أمها ونانون تتهيآن لمغادرة الغرفة وفى ظنهما أن كل شىء قد أعد على ما يرام .. لكن أوجينى أقنعتهما بأن أمامهما أشياء كثيرة لم تفعلاها،وأدخلت فى ذهن نانون أن الملاءات يجب أن تعرض للهواء ، وقدر التدفئة ينبغى أن يؤتى بها ، وتزال فضلات رماد الفحم من الغرفة !

ووضعت أوجينى بنفسها غطاء أبيض نظيفا على المنضدة القديمة التى فى المكان ، وأوصت نانون بأن تعنى بابداله كل صباح .. كما يجب اشعال نار كافية فى الحجرة .. وتغلبت الفتاة على اعتراضات أمها ، وألزمت نانون بأن تضع فى الممر الخارجى مددا كافيا من خشب المدفأة ، وألا تذكر عنه شيئـــا لابيها !.. ثم هبطت السلم عدوا فأخرجت من خزانة فى أحد الاركان صينية يابانية الطراز ، وكوبا من البللور ، وملعقة صغيرة كانت مذهبـــــة ومحى طلاؤها الذهبى ، ثم زجاجة ضيقـــــة الرقبة حفرت عليها صـــــور تمثل « كيوبيد » .. ووضعت كل هذه الادوات مزهوة فوق ركن المدفأة !

كانت الافكار التى تواردت على ذهنها فى تلك الدقائق تفوق كل ما مر بها طيلة السنوات التى انقضت منذ جاءت الى هذا العالم !

وصاحت بأمها : « ماما ، انه لن يطيق رائحة الشمعة التى من الشحم ، فهلا ابتعنا من أجله شمعة أخرى ؟ » .. ثم هرعت فى خفة الطائر لتحضر كيس نقودها،وأخرجت منه الفرنكات الخمسة التى تلقتها من أبيها لمصروفها الشهرى .. ثم هتفت بالخادمة :

ــ هيا يا نانون .. أسرعى !

ومضت فأحضرت آنية للسكر من خزف « سيفر » الثمين كان أبوها قد أحضرها معه من احدى زياراته لقصر « فراودفون » .. فلم تكد أمها تلمحها فى يدها حتى صاحت بها : « ولكن ماذا سيقول أبوك فى ذلك ؟ ومن أين تأتى بالسكر الذى يملؤها .. هل جننت ؟ »

ــ تستطيع نانون أن تشترى السكر بسهولة حين تذهب لاحضـــــار الشمعة يا أماه !

ــ ولكن ماذا يكون من أمر أبيك ؟

ــ هل من الصواب ألا يتناول ابن أخيه قدحا من الشراب المسكر اذاحدث أن طلبه أو شعر باشتياق اليه ؟. ثم ان أبى لن يلحظ الامر !

ــ ان أباك يلاحظ كل شيء ..!

وترددت نانون فى تنفيذ رغبة سيدتها الصغيرة ، فقد كانت أعرف بسيدها .. لكن أوجينى صاحت بها تستحثها :

ــ اذهبى يانون .. اليوم عيد ميلادى كما تعلمين !

وضحكت نانون برغمها لاول نكتة تصدر من سيدتها الشابة ، ثم مضت الى حيث أرسلتها !

وفيما كانت أوجينى وأمها تبذلان ما فى وسعهما لتزيين الحجرة التى خصصت للضيف كانت مدام دى جراسان تخص بانتباهها شخص الفتى نفسه ، وتستخدم عينيها فى هذا السبيل بقدر استطاعتها !. ثم قالت للشاب : « انك شجاع اذ تترك مسرات العاصمة فى الشتاء كى تأتى لتمكث فى سومور . ولكن اذا لم تكن قد فزعت لاول وهلة حين وقع بصرك علينا فانك سوف ترى أننا حتى فى هذا المكان نستطيع أن نسلى أنفسنا . » .. ثم رمقته بنظرة فاترة على الطريقة الريفية . ان النساء فى الاقاليم ، بحكم الاحتشام والرصانة المفروضة عليهن ، يضعن كل همهن فى نظراتهن التى يطلقن فيها عواطفهن المكبوتة من عقالها فتتسم « بفصاحة » شائقة ولهفة شبيهة بلهفة رجال الدين الذين تعتبر كل متعة بالنسبة لهم محرمة أو مسروقة ..!

وقد ألفى شارل كل ما حوله شديد الاختلاف عن القصر العظيم والرواء الخلاب الذى حسب أنه سيجد عمه يعيش فيه ، بحيث أنه حين أعار مدام دى جراسان مزيدا من الانتباه كادت تذكره بالوجوه الباريسية التى أوشكت هذه الاجواء الجديدة الغريبة أن تطمس ذكراها ومعالمها .. ومن ثم استجاب فى جلال الى التقرب الذى سعت به المرأة اليه ، فكان طبيعيا أن يشتبك الاثنان فى الحديث !

وبالتدريج خافتت مدام دى جراسان من صوتها الى الدرجة التىتناسب طبيعة المساررة بينهما .. أحس كلاهما بحاجة الى تبادل الثقةوالايضاحات والتفاهم ، فلم تنقض دقائق معدودات فى ثرثرة ودعابة بشأن موضوع جدى حتى أحست المرأة الريفية بالحرية فى أن تتحدث دون تحفظ.أو احتمال سماع أحد لاحاديثها ، تحت ستار حديث عن بيع محصول الكروم ، وهو الموضوع الذى كان فى ذلك الظرف يستنفد اهتمام أهل سومور جميعا وفضولهم

قالت المرأة للفتى اليافع : « لو شرفتنا وأكرمتنا بزيارة فأنت لا شك سوف تدخل على قلوبنا بشرا ، وسوف يسر زوجي وأسر أنا برؤيتك . ان صالوننا هو الوحيد فى سومور الذى تجد فيه التاجر الغنى ــ أو تاجر الحرب ــ وسليل النبل والترف جنبا الى جنب . ونحن بالذات نمت الى

حدما الى الطبقتين ، اللتين لا تختلطان معا قط الا فى منزلنا . هم يأتون الينا لانهم يجدون فى ذلك تسلية . وأنا فخورة بأن أقول ان زوجى يحظى من أفراد الطبقتين بنظرة احترام وتوقير . ومن ثم سنبذل أقصى ما فى وسعنا كى نبدد السأم عنك خلال فترة اقامتك بين ظهرانينا .. فالله يعلم ما سوف يصيبك اذا أقمت هنا مع آل جرانديه !.. يا الهى !. ان عمك شحيح ، وذهنه لا ينصرف الا الى حقول كرومه ، وزوجة عمك قديسة لا تستطيع التفكير فى أمر أو التصرف فيه بحريتها . وابنة عمك فتاة صغيرة غريرة محرومة من التربية ومن المال ، تنفق حياتها فى اصلاح الثياب القديمة ! »

وحدث شارل نفسه : « يا لها من امرأة فاتنة ! » .. وهكذا لم تذهب عبثا نظرات المغازلة التى وجهتها اليه مدام دى جراسان

ثم قال المالى الكبير دى جراسان لزوجته ضاحكا : « يبدو أنك تعتزمين احتكار السيد ! » .. وكانت ملاحظة تبعتها ملاحظات أخرى أقل او أكثر لذعا ، من جانب مسجل العقود والقاضى .. لكن القسيس حدجهم بنظرة حادة ، وأخذ قليلا من السعوط وقدم علبة سعوطه الى الحاضرين وهو يعبر عن أفكارهم بقوله : « اين كان يمكن أن يجد السيد شخصا أفضل من السيدة كى تؤدى له واجب الضيافة نيابة عن أهل سومور ؟ »

فسأله مسيو دى جراسان : « ماذا تقصد يا سيدى القس بذلك ؟ »

فأجاب رجل الدين وهو يستدير نحو شارل : « أقصد كل ما من شأنه توجيه التحية لك ، وللسيدة ، ولمدينة سومور ، ولهذا الضيف » .. انه قد أدرك اتجاه أفكار الجماعة وهو يتظاهر بأنه لا يولى كلامهم أدنى انتباه !..

وأخيرا نطق أدولف دى جراسان ، فقال موجها كلامه الى شارل : « لست أدرى اذا كنت تذكر عني شيئا ؟ .. لقد كان لى شرف الاشتراك فى رقصة رباعية فى حفلة ساهرة أقامها البارون دى نوسينجن ، وكنت أنت أحد شركائى فيها ! »

فأجاب شارل وقد ادهشه أن يجد نفسه موضع التفات الجميع : « بل اذكر ذلك جيدا .. »

ثم سأل مدام دى جراسان : « هل هذا السيد ابنك ؟ »

وهنا حدج القس المرأة بنظرة غيظ ، فأجابت محدثها قائلة : « نعم ، أنا أمه » .. فمضى شارل فى الكلام محدثا أدولف : « لا بد أنك كنت صغيرا جدا حين قدمت الى باريس ! »

فقاطعهما القس محدثا شارل : « انك لن تجد فى غير الاقاليم نساء لم يكدن يتخطين الثلاثين بكثير ولهن أبناء حاصلون على اجازة الحقوق ، ومع ذلك تبدو عليهن نضارة الصبا مثل مدام دى جراسان ! .. انه ليخيل لى أنه لم يمض زمن وجيز منذ كان السيدات والشبان يعتلون المقاعد كى يروها ترقص ! »

ثم أردف قائلا لها : « ان مفاخرك يا سيدتى ومظاهر شهرتك فى المجتمع ما تزال حية فى ذاكرتى وكأنها حدثت أمس فقط ! »

فقالت مدام دى جراسان تحدث نفسها : « يا للتعس المسن !.. ترى هل فهم شيئا من نواياى ؟ »

وحدث شارل نفسه قائلا : « يبدو أننى سوف الاقى نجاحا هائلا فى سومور ! » . ثم فك أزرار معطفه ووقف واضعا يده فى جيب سترته محدقا فى الفضاء ، مقلدا الوضع الذى ابتكره المثال « شانترى » فى تمثاله الذى صنعه للشاعر بيرون !



وصية فى خطاب

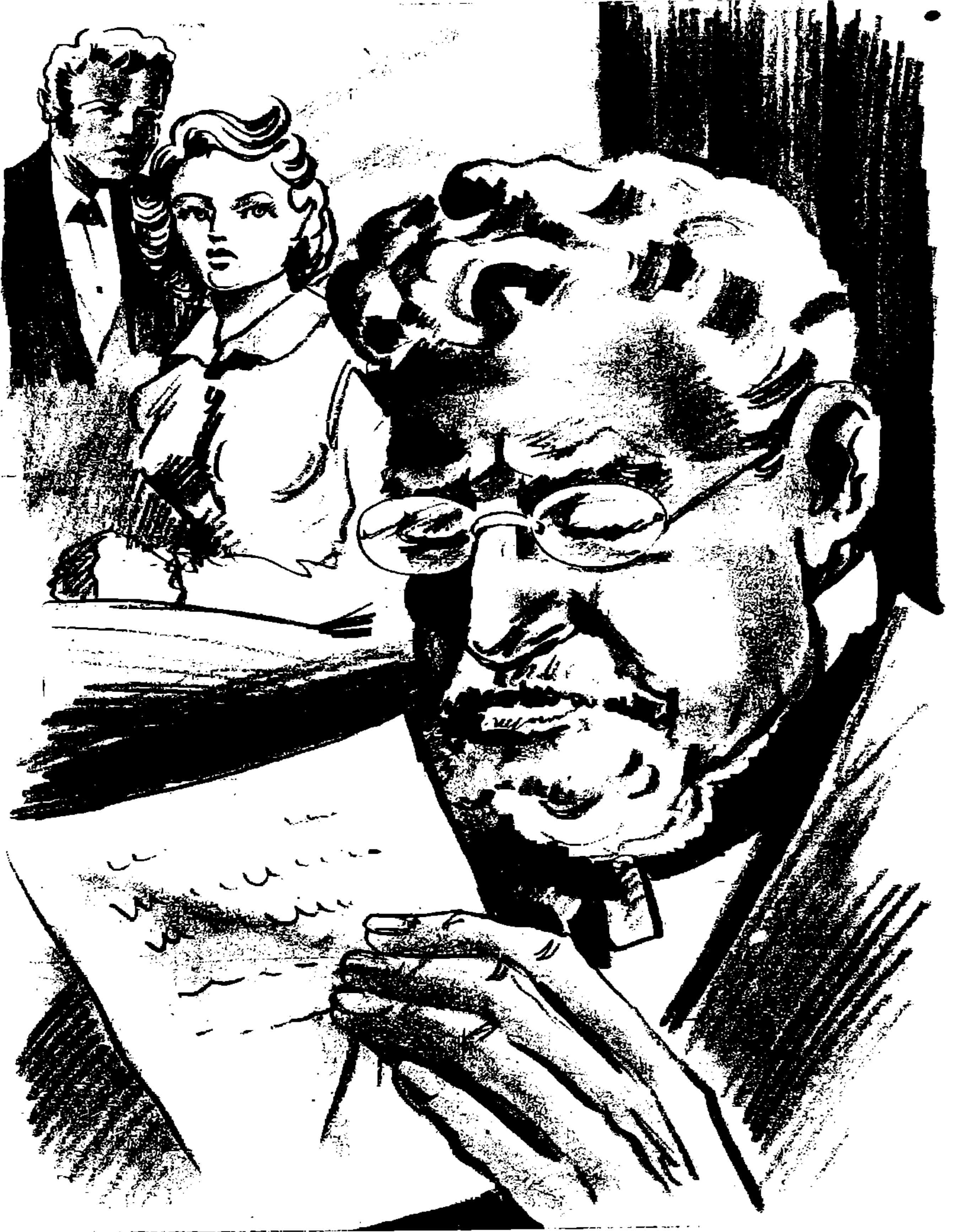
لم يغب انشغال فكر « جرانديه » وهو يطالع الخطاب عن انتباه مسجل العقود والقاضي ، فحاول كلاهما أن يستنتج محتويات الرسالة بمراقبة التغيرات التى تطرأ على وجه الرجل البخيل ، الذى كان ضوء الشمعة مركزا كله عليه .. وقد وجد زارع الكروم مشقة فى الاحتفاظ بثباته ومظهره الطبيعي ، وأترك لخيال القارىء تصور التعبير الذى ارتسم على محياه .. وفيما يلى نص الخطاب الخطير :

« أخي .. انقضت قرابة ثلاث وعشرين سنة منذ رأى كلانا الآخر ، وقد كان لقاؤنا الاخير يوم اجتمعنا لاعداد معدات زواجي ، وافترقنا يومئذ بسلام وكلانا منشرح الصدر . ولم يجل بخاطرى فى ذلك الحين ـ وأنت تغبط نفسك على بحبوحة عيشنا ـ أنه سيجيء يوم تصبح فيه أنت موضع أمل أسرتنا الوحيد ومعقد رجائها .. ففي الساعة التي يصل فيها هذا الخطاب الى يديك ، لن يكون لى أنا وجود !.. ففي مركزى وظروفى الراهنة لن أستطيع أن أعيش لاواجه عار اشهار افلاسى . لقد احتفظت برأسي مرفوعا فوق سطح الامواج حتى اللحظة الاخيرة ، آملا أن اتمكن من مقاومة العاصفة والتغلب عليها .. لكن جهودى كلها لم تعد تجدى الآن ، وصار حتما على أن أغوص فى الاعماق !

« لقد بدأ الأمر بخسائرى فى البورصة ، ثم تلا ذلك فشل (روجان) مسجل عقودى ، الذى جرف معه كل ما تبقى من مواردى ولم يبق لى منها شيء!.. وقد بلغ من تعاستى أنى بت مدينا بنحو أربعة ملايين من الفرنكات، ولم تعد ممتلكاتى تجاوز ربع ديونى !.. انى أملك كميات كبيرة من النبيذ المخزون ، ونظرا الى وفرة كرومك وجودتها فقد انهارت قيمة نبيذى فى الاسواق .. وصرت فى موقف يحتم على أن أستيقظ خلال ثلاثة أيام فاذا باريس بأسرها تقول : لقد كان مسيو جرانديه محتالا !.. وحينئذ أصبح ـ وأنا الرجل الشريف الامين ـ مجللا بلوثة الخزى والعار !.. لقد جردت ابنى من ثروة أمه ومن اسم أبيه النظيف الذى لوثته ، والمسكين التعس لا يعلم بعد شيئا من كل هذه التطورات !. ومن حسن حظه أنه لم يعرفها وأنا أصافحه لآخر مرة ، وقلبى يخفق ويفيض رقة نحوه !.. وما أسرع ماسوف يكف هذا القلب عن الخفقان !.. ترى هل سيلعن ذكراى يوما ؟. أواه يا أخي !.. ان لعنة الابناء لشيء رهيب .. فلئن كانت لعنتنا نحن لابنائنا قد تغفر لنا فى بعض الاحيان فان لعنة أبنائنا لنا تحيق بنا الى آخر الدهر !

« جرانديه .. أنت أخى الأكبر ، وعليك أن تحمينى من ذلك. . لا تدع شارل يمس ذكراى بكلمة سوء وأنا راقد فى أعماق قبرى !.. أواه يا أخى .. لو أن كل كلمة من هذا الخطاب كتبت بدمعى ،أو بدمى ، لما كلفتنى هذا العذاب المرير ، لانى كنت أبكى أو أنزف دما أو أحشرج محتضرا ، فكان ذلك يخفف من عذابى أو ينهيه !.. لكنى الآن ما زلت أتألم ، وأرى الموت أمامى بعينين جافتين !. انك منذ الآن ، والد شارل ، فليس له أقرباء من ناحيـــة أمه ، لأسباب أنت تعلمها .. لماذا لم أذعن للفوارق الاجتماعية ؟. لم استسلمت للحب ؟.. لم تزوجت الابنة غير الشرعية لاحد النبلاء ؟.. ان شارل هو آخر فرد فى أسرته ، وهو وحيد فى الدنيا .. يا له من تعس مسكين !.. أصغ الى يا جرانديه ، لست أطلب شيئا لنفسى ، وأنت لن تستطيع اشبـــاع مطالب دائنى حتى لو أردت .. فان ثروتك لا يمكن أن تكفى لسد ثلاثة ملايين من الفرنكات . لــكنى من أجل ابنى أكتب هذا اليك . ينبغى أن تعلم يا أخى أنى وأنا أفكر فيك أقدم طلبتى بيدين مضمومتين .. انها صـــلاتى الاخيرة على فراش الموت !.. جرانديه ، أعلم أنك ستكون أبا له . اعلم أنى لن أسألك ذلك بلا جدوى وان منظر مسدسى لا يحدث لى أى انزعاج !

« .. ثم أنت تعلم مبلغ شغف شارل بى ، فلقد كنت عطوفا عليه ، ولم أرفض له يوما طلبا ، فهو لن يلعننى !.. وسوف ترى بنفسك دماثة خلقه وطاعته ، لقد ورث أخلاق أمه ، وهو لن يسبب لك أدنى قسط من المتاعب، يا للمسكين !.. انه قد ألف معيشة الترف ، ولم يعرف شيئا من المصاعب التى ذقناها أنت وأنا فى الايام الخوالى يوم كنا فقراء ... والآن هو لا يملك فرنكا واحدا ، وهو وحيد فى الدنيا ، فانى واثق بأن أصدقاءه جميعا سوف يهجرونه ، وأنا الذى جلبت عليه هذه المذلة .. آه لو كنت أملك القوة على أن أرسله الآن رأسا الى السماء ، حيث تقيم أمه !.. لكن من الجنون أن أستعيد الآن ذكرى تعاستى ونصيب شارل منها !.. لقد أرسلته اليك كى تنهى أنت اليه نبأ موتى وتوضح له مصيره ومستقبله .. كن أبا له ، بل كن له أكثر من ذلك ، كن أبا متسامحا معه ! .. لا تنتظر منه أن يطلق كسله وترفه مرة واحدة ، فان ذلك قد يقتله . وانى اذ أركع على ركبتى لاتوسل اليه أن يكف عن كل مطالبـــة بثروة أمه . أجدنى لا أجرؤ على مصـــارحته بذلك ، فان شرفه يمنعه من أن يضيف نفسه الى قائمة دائنى !.. لذلك أترك اليك أن تعمل على أن يتنازل عن مطالبه عندما يأتى الوقت المناسب . وعليك أن توضح له كل شىء على حقيقته يا جرانديه : الكفاح والصعوبات التى سيكون عليه أن يواجهها فى هذه الحياة التى أفسدتها أنا عليـــــه .. وحينئذ اذا بقى فى قلبه شىء من الحنان والذكرى الحسنة نحوى ، فقل له نيابة عنى انه لم يفقد كل شىء من فرص المستقبل . اياك أن تهمل فى قول ذلك له . فان العمل ــ الذى كان سلاحنا ــ يمكن أن يرد اليه الثروة التى خسرتها ، واذا هو أصغى الى صوت أبيه ، من وراء القبر ، فنصيحتى اليه أن يغادر هذه البلاد ويذهب الى بلاد الهند



« ولما فرغ جرانديه من قراءة الخطاب ، أعاده الى ظرفه »

« أخى ، ان شارل أمين ونشيط ، وسوف تساعده بخبرتك فى مغامرته التجارية الاولى ، أعلم أنك ستفعل ذلك يا جرانديه ، والا فانك سوف تعض أصابعك ندما . . آه ، فلو لم يجد ابني منك عطفا وعونا فسوف أصلى لله أبدا كي يعاقبك من أجل قسوة قلبك !. ولو كان فى استطاعتى أن أحتفظ بقدر من المال ولو ضئيل ، لكنت أدخرت له مبلغا ما ، فان من حقه ولا شك أن ينال جانبا من ثروة أمه . . لكن مطالب آخر الشهر استنفدت كل مواردى فلم يتيسر لى ذلك . وليتنى استطعت أن أموت مستريح البال بشأن مستقبله ، وقد كنت أود لو أتلقى منك وعدا صريحا مكتوبا باستجابتك لرجائى ، اذن لادخل ذلك شيئا من الدفء على قلبى . . لكن الوقت يمر سريعا وهو يتطلب منى عدم الابطاء فى حسم الامور ، ولا سيما أن على أن أنتهى من اعداد أوراقى وترتيب كل شيء بينما شارل فى طريقه اليك ، كى يظهر للجميع أن فشلى لا يرجع الى اهمال أو غش ومنافاة للامانة، وانما يرجع فقط الى كوارث لا قبل لى بمقاومتها . أو لست أعانى كل ذلك من أجل شارل ؟!

« وداعا يا أخى ، وليباركك الله من أجل كرمك الذى لا أشك فى أنك ستستجيب به لرجائى وتنفذ رغبتى . . ولتثق بأن هناك صوتا لن يكف عن الصلاة من أجلك فى العالم الذى سنذهب اليه جميعنا عاجلا أو آجلا . . والذى أنا ذاهب اليه الآن !

« فيكتور انج وليم جرانديه»

ولما فرغ جرانديه من قراءة الخطاب أعاده الى ظرفه وأودعه جيب سترته ، ثم قال لمن حوله : «اذن فأنتم تشغلون أنفسكم بالحديث ؟»، ونظر الى ابن أخيه فى خجل وارتباك ، محاولا اخفاء مشاعره وما يدور فى نفسه . . وسأله :

ـ هل تحس بمزيد من الدفء ؟

ـ انى مرتاح جدا يا عمى العزيز !

ـ لست أدرى أين ذهب النساء ؟

وكان قد نسى تماما أن ابن أخيه سوف ينام فى البيت ، وأن زوجته وابنته قد ذهبتا لاعداد العدة لذلك . . وفيما هو يسأل عنهما دخلتا الحجرة ، فتنبه الى الامر وأدرك ما كان يشغلهما ، فقال يسأل ابنته :

ـ هل كل شيء معد فى الطابق الاعلى ؟-

ـ نعم يا أبى !

ـ حسنا !. . والآن يا ابن أخى اذا كنت تحس أنك متعب فسوف تقودك نانون الى غرفتك . . انها ليست غرفة جميلة فيما أعتقد ، لكنك ستتغاضى عن ذلك هنا بين زارعى الكروم الفقراء الذين لا يملكون شروى نقير . . ان الضرائب تبتلع كل ما نملك !

وهنا قاطعه المالى دى جراسان : «نحن لانريد أن نكون دخلاء يا جرانديه؛ وقد يكون عندك ما تتبادله من حديث مع ابن أخيك . . لذلك سنذهب نحن ونتركك . . فالى اللقاء غدا ! »

وعند هذا نهض الجميع وانصرفوا واحدا فى أثر الآخر ، كل وفق أسلوبه الخاص فى التوديع والتحية . . ومضى مسجل العقود المسن الى ناحية الباب ليبحث عن مصباحه ثم أضاءه وتطوع بأن يرافق آل دى جراسان حتى بيتهم . ولم تكن مدام دى جراسان قد تأهبت لانتهاء السهرة فجأة فى هذه الساعة المبكرة ، ولم تكن خادمتها قد حضرت بعد لترافقها . . فابتدرها الاب كروشو قائلا :

ـ هل لك أن تشرفينى يا سيدتى بأخذ ذراعى ؟

فأجابت المرأة فى جفاء :

ـ شكرا يا سيدى ، ان ابنى معى !

ـ يبدو أنى لست رفيقا صالحا لسيدة . .

وهنا قال لها زوجها :

ـ خذى ذراع الاب كروشو !

ولم تكد تفعل حتى أسرع الاب مبتعدا بها عن بقية الجماعة ، وقال لها وهو يضغط ذراعها كأنما ليؤكد كلامه : « ان هذا الشاب وسيم الخلقة جميل الطلعة يا سيدتى !. وينبغى أن تصرفى ذهنك عن الآنسة جرانديه ، فان أوجينى قد أعدها القدر لابن عمها ، وما لم يكن الشاب قد تعلق قلبه بحسناء باريسية فان ابنك أدولف سوف يجد له منافسا آخر ! »

فقالت له : « هذا هراء يا سيدى القس !. لن يلبث الشاب حتى يتبين أن أوجينى فتاة ضعيفة الشخصية لا تقرر أمرا بنفسها . . كما أن جمالها قد غاض وذوى . ألم تلحظ مبلغ شحوبها الليلة ؟ »

ـ أغلب الظن أنك لم تضيعى فرصة فى لفت نظر ابن عمها الى هذا الشحوب ؟

ـ بل لم أكلف نفسى عناء ذلك !

ـ لو أنك حرصت ياسيدتى على الجلوس دائما بجانب أوجينى ، لما صارت بك حاجة الى أن تقولى للشاب شيئا كثيرا عن ابنة عمه . . ففى وسعه أن يقارن بنفسه !

ـ لقد وعدنى من فوره أن يأتى ليتعشى معنا بعد غد

ـ آه يا سيدتى ، لو أنك . . .

ـ لو أننى . . ماذا يا سيدى الأب ؟ . . هل تقصد أن تدخل الى ذهنى ايحاءات شريرة ؟ . . أم ترانى بعد أن بلغت التاسعة والثلاثين وسمعتى ناصعة لا غبار عليها ـ ولله الحمد ـ أجىء اليوم فأعرضها لما يشين ، ولو أعطيت أمبراطورية المغول العظيمة !. . ان كلينا من كبر السن بحيث يدرك

ماذا يعنى هــذا الكلام ، ثم ينبغى أن أقول أن أفــكارك هــذه لا تتفق مع رسالتك المقدسة . يا للعار !.. ان هذا جدير بـ « فوبلا »

ـ اذن فأنت قد قرأت « فوبلا » ؟

ـ كلا يا سيدى القس !. بل قصدت بكلامى كتاب « العلاقات الخطرة »

فقال رجل الدين ضاحكا :

ـ أوه، هذا الكتاب أكثر تمشيا مع الاخلاق الحميدة بلا شك ... لكنك قد نسبت الى ما لم يخطر ببالى . كل ما قصدته أنك ...

ـ أتجرؤ على القول بأنك لم تقصد سوءا ؟.. ان الامر واضح بما فيــه الكفاية . فلو حدث أن ذلك الشاب ـ الذى أتفق معك فى أنه وسيم الطلعة ـ قد غازلنى ، فلن يكون ذلك من أجل اهتمامى بأمر ابنة عمه تلك !.. وأنا أعلم جيدا أن فى باريس أمهات رقيقات القلب يضحين بأنفسهن هكذا فى سبيل سعادة أولادهن ورفاهيتهن ، لكننا لسنا فى باريس يا سيدى الاب !

ـ نعم يا سيدتى !

ـ ثم أننى ـ لا أنا ولا ابنى أدولف ـ على استعداد لبذل هذا الثمن فى سبيل مائة مليون من الفرنكات !

ـ سيدتى ، أنا لم أقل شيئا بشأن المائة مليون ... ولعل مثل هــذا الاغراء كان كثيرا على كلينا . ومع ذلك فمن رأيى أن المرأة الشريفة تستطيع أن تنغمس فى مغازلة صغيرة بريئة ، فى أضيق الحدود ، فهــــذا جزء من واجباتها الاجتماعية ، ثم أن ...

ـ أنت تعتقد ذلك ؟

ـ أليس من واجبنا نحو أنفسنا يا سيدتي أن نبذل ما فى وسعنا كى نرضى الآخرين بقدر الامكان ؟.. اسمحي لي أن أنظف أنفى .. ولتثقى يا سيدتى أن الشاب قد نظر اليك باعجاب يفوق الاعجاب الذى رأى من المناسب أن يرمقنى به ، لكنى أغفر له احتفاءه بالجمال أكثر من الشيخوخة ..!

وهنا قال القاضى بصوته الأجش : « من الواضح أن مسيــو جرانديه الباريسى قد أرسل ابنه الى سومور لان عزمه قد صح على عقد صفقة ! »

فتساءل مسجل العقود : « اذن فيم كان هبــوط ابن الاخ هــــكذا من السماء ؟ »

فقال مسيو جراسان : « لا شيء فى هــــذا .. فجرانديه الشيخ ليس بعيدا ! »

وهنا قالت له زوجته : « لقد دعوت هذا الشــــاب كى يأتى فيتناول العشاء معنا ، ومن ثم ينبغى يا عزيزى أن تذهب الى مسيو دى لارسونيير وزوجته وتدعوهما ، وكذلك آل «دى‌هوتوى» ويجب أن يحضروا معهــم بالطبع ابنتهم الجميلة ، وأرجو أن ترتدى ثيابا لائقة ولو مرة فى حياتها .. ان أمها تغار منها وتجعلها تبدو فى هذا المظهر الشاذ ! .. كذلك أرجو أن

تشرفونا بالحضور أنتم أيضا أيها السادة » .. قالت ذلك وهى تستدير لتوجه الدعوة الى الحاضرين من آل كروشو !

وهنا كان الجميع قد بلغوا بيت المالى الكبير ، فقال مسجل العقود محدثا زوجة الرجل : « ها قد بلغنا بابك يا سيدتى » . ثم افترق أفراد أسرة كروشو الثلاثة عن أفراد أسرة جراسان الثلاثة .. وأثناء عودة الاولين الى دارهم انهمكوا فى مناقشة عنيفة حول الاحداث التى جرت فى تلك الليلة وأثرها فى موقف كل من الاسرتين ومستقبلهما . ومن الطبيعى أن الجميع قد اتفقت غايتهم على الحيلولة بين أوجينى وبين الوقوع فى هوى ابن عمها ، وشغله هو عن التفكير فى أمرها ، متوسلين الى ذلك بأسلحة الايماءات الماكرة والايحاءات الخبيثة والكلام المسموم والتنفير الذى يساق فى قالب مديح ... الى غير هذه الوسائل ، فأية مقاومة يمكن أن يصد بها الفتى الباريسى هذه الهجمات الخفية ؟

أما أسرة جرانديه فلم يكد ضيوفهم يخرجون ويخلو البيت الا منهم حتى قال كبيرهم محدثا ابن أخيه : « ينبغى أن نأوى الى الفراش الآن ، فالوقت متأخر بحيث لا يسمح لنا بأن نبدأ الكلام فى الموضوع الذى أحضرك الى هنا .. وفى الغد متسع لهذا كله . نحن نتناول طعام الافطار عادة فى الساعة الثامنة . وعند الظهر نأكل وجبة بسيطة .. قليلا من الفاكهة وشطرة من الخبز ، وكأسا من النبيذ الابيض .. ثم نتغدى ــ مثل أهل باريس ــ فى الساعة الخامسة . هذا هو نظامنا .. واذا راق لك أن تتفرج على المدينة أو تتنزه فى الاقليم المحيط بنا فلك ملء الحرية فى أن تفعل ذلك .. وأرجو أن تعذرنى اذا كنت لا أستطيع أن أصحبك دائما فى هذه الجولات .. ولهذه المناسبة ، أغلب الظن أنهم سيقولون لك فى كل مكان انى غنى .. ومن عادتى أن أدعهم يتقولون كما يشاءون ، فان ثرثرتهم لا تضرنى فى شىء . لكنى لا أملك فى الواقع فرنكا واحدا يزيد على حاجتى .. وبرغم شيخوختى فانى أعمل مثل أى شاب لاهم له غير عمله .. ولعلك سوف تتبين بنفسك فى يوم من الايام كم يكلفك من الجهد أن تربح ريالا بكدك وتعبك .. هيا يانانون ، أحضرى الشموع ! »

وقالت له مدام جرانديه : « أرجو أن تجد كل ما تبغيه يا ابن الاخ .. ولكن اذا كنا قد نسينا شيئا فما عليك الا أن تطلبه من نانون ! »

فقال الضيف : « لن يحوجنى الامر الى شىء فيما أحسب ، يا زوجة عمى العزيزة .. فانى أعتقد أنى أحضرت معى كل ما أحتاج اليه .. واسمحى لى بأن أتمنى لك ولابنة عمى العزيزة ليلة سعيدة ! »

ثم تناول شارل شمعة مضاءة من نانون . وكانت شمعة مصنوعة محليا، اصفر لونها فى الحانوت الذى جلبت منه ، من قدم العهد بها !.. وقال رب البيت لضيفه : « سأريك الطريق الى غرفتك ! »

وكان أحد أبواب حجرة المائدة يفضى مباشرة الى المر الذى فيه السلم ،

لكن جرانديه سلك بدلا منه ـ بدافع التكريم لضيفه ـ الممر الذى يفصل المطبخ عن حجرة المائدة ، وكان يفضى اليه باب ذو لوح بيضاوى الشكل من الزجاج ، قصد به منع تيارات الهواء البارد

وخرجت نانون ، ففتحت بوابة البيت الرئيسية ، ثم مضت الى الحظيرة فأطلقت سراح كلب كبير من كلاب الحراسة معروف بطبعه الوحشى ، بحيث لم يكن سواها يعرف كيف يروضه ، اذ كان كلاهما يفهم صاحبه . .!



تطلع شارل الى ما حوله . . الى الجدران الصفراء القذرة والسقف الذى سوده الدخان ، ورأى كيف تهتز درجات السلم المتآكلة تحت قدمى عمه الثقيلتين . . انه يعود الى حواسه بسرعة ، وهذه هى الحقيقة الواقعة ، ان المكان أشبه بحظيرة دجاج . . ونظر فى تساؤل الى وجهى زوجة عمه وابنتها، لكنهما كانتا قد ألفتا السلم على هذه الحال بحيث لم يخطر ببالهما أن أمرها يثير دهشة أحد !. . وقد فسرتا الضيق الذى بدا عليه بأنه ليس سوى تعبير عن النفور ، فابتسمتا له ابتسامة ودية عريضة ، وكانت تلك الابتسامة هى القطرة التى جعلت الكأس تفيض . فقد نفد صبر الشاب وحدث نفسه حانقا : « أى شيطان جعل أبى يرسلنى الى هذا المكان ؟ !»

واذ بلغ الطابق الاول رأى أمامه ثلاثة أبواب قد دهنت بلون بنى يميل الى الاحمرار ، ولا يكاد يميزها شيء من الجدران القذرة التى حولها . وكان باب منها ـ هو المواجه للسلم والمفضى الى الحجرة التى تعلو المطبخ ـ يبدو مغلقا . . والواقع أن المدخل الوحيد اليها كان خلال حجرة جرانديه ، وهذه الغرفة التى فوق المطبخ كانت محراب زارع الكروم ومكان خلوته !

وكان ضوء النهار يدخل الى الحجرة من نافذة واحدة تطل على الفناء ، وتحميها شبكة من القضبان الحديدية . وكان رب البيت لا يسمح لاحد ، حتى زوجته ، بأن تطأ عتبة هذه الغرفة !. كان يحتفظ لنفسه فقط بذلك الحق ، فيجلس هناك وحيدا ، لا يزعجه انسان ، مثل كيميائى وسط بواتقه . . كان هناك ولا شك مخبأ سرى يحتفظ فيه الماكر بكنز ما . وكان الكنز حجج ملكيته لاملاكه الواسعة ، كما أنه كان يحتفظ فى تلك «الصومعة» بالميزان الدقيق الذى يزن به نقوده الذهبية . . وهناك كان يكتب كل ليلة الايصالات، والمخالصات عن المبالغ التى يتسلمها ، ويضع خططه المختلفة بشأن الامور المالية ، بحيث كان غيره من رجال المال الذين لم يروه يوما منشغلا بأعماله الواسعة بل متأهبا على الدوام لاى طارىء ، يعذرون اذا تصوروا أن عنده جنية خفية أو حليفة من عالم الارواح تشد أزره وتخضع لسلطانه وتدير له أعماله الواسعة فى الخفاء !

وفى هذه الغرفة ، كان الرجل الشحيح يأتى ليجتمع بذهبه الحبيب ، فى

الوقت الذى تكون فيه نانون غارقة فى نومها وشخيرها يهز الفراش ، ويكون كلب الحراسة المتوحش منهمكا فى نباحه بالخارج ، بينما تكون زوجته وابنته قد استغرقتا فى النعاس . . وكان الرجل اذا خلا الى ذهبه راح يتأمله فى شغف ، ثم يلهو به ويدلله ويعبث به بيديه حتى يخلد الى النعاس آخر الامر وقد استولى حب الذهب على حواسه وتشبعت به مشاعره !

وكانت الجدران السميكة ، ونوافذ الغرفة المغلقة تصون سره . وكان وحده الذى يحتفظ بمفتاح هذا « المعمل » الذى لو نطقت جدرانه وروت ما يجرى داخلها لقصت على الناس كيف يدرس البخيل كل شاردة وواردة من أموره ، وكل صغيرة وكبيرة ، ويعرف عن كل كرمة من كرومه ما يجعله يعلم علم اليقين مقدما مقدار محصوله المنتظر ومبلغ ايراده السنوى الضخم بالضبط !

وكان باب حجرة أوجينى يقع فى مواجهة هذه الصومعة المغلقة . أما مخدع الرجل وزوجته فكان يقع فى نهاية الممر ، ويتألف من واجهة البيت بأكملها . وكان مقسما من الداخل بحاجز ، كما كان المخدع يتصل بغرفة أوجينى بباب زجاجى . أما النصف الآخر من الحجرة ، الذى يفصله عن الصومعة السرية جدار سميك ، فكان كذلك خاصا برب البيت العجوز البخيل !

وقد أسكن جرانديه الماكر ابن أخيه عامدا فى غرفة صغيرة فى الطابق الثانى ، تقع فوق حجرته مباشرة ، كيما يسمع كل صوت يصدر منها ويقف على كل حركات الشاب وسكناته ، وساعات دخوله وخروجه ، اذا ما خطر للاخير أن يغادر حجرته !



بوادر الحب

وصلت أوجيني وأمها الى الطابق الاول فقبلت كلتاهما الاخرى وحيتهـا تحية المساء. ثم افترقتا عن شارل بعد أن تبادلتا معه بضع كلمات على سبيل المجاملة بغير اهتمام قلبى .. ثم مضت كل منهما الى حجرتها ، تاركتين الفتى مع جرانديه ...

وقال جرانديه لابن أخيه وهو يفتح له باب الحجرة التى خصصت له : « هذه حجرتك يا ابن الاخ .. فاذا أردت الخروج فعليك أن تنادى نانون ، لانك اذا لم تفعل فسوف يفترسك الكلب الذى فى الحديقة ويمزقك شر ممزق قبل أن تعرف ماذا أصابك !.. والآن أتمنى لك ليلة سعيدة ونوما هنيئا .. ها ها ! لقد اشعلت النساء النار فى حجرتك أيضا ! »

ثم تركه وتأهب ليمضى عنه ، ولكن نانون ظهرت فى تلك اللحظة تحمـل قدرا كبيرة من التى تستخدم فى التدفئة .. فهتف بها مسيو جرانديه : «هل رأى أحد شيئا من هذا القبيل ؟ .. هل تحسبين ابن أخى امرأة أو طفلا ؟ انه ليس عاجزا كسيحا .. اذهبى يانانون ، أنت وقدرك الساخنة ! »

ــ لكن الملاءات باردة رطبة يا سيدى ، والسيد يبدو رقيقا مثل امرأة !

ــ حسنا !. امضى فيما أنت ماضية فيه ، ما دمت قد وضعت الفكرة فى رأسك !

قال جرانديه ذلك وهو يدفعها بيده فى كتفها ، ثم استطرد وهو يهبط السلم الى طابقه : « ولكن حذار من أن تشعلى النار فى البيت كله ! »

وبقى شارل مدهوشا بين حقائبه وأمتعته ، فنظر فيما حوله ، الى سقف الحجرة المائل ، والى ورق الجدران الذى كان من طراز مألوف فى حانات الريف المتواضعة ، والى المدفأة الحجرية الخشنة المليئة بالشـــقوق وقد أرسل منظرها الرعدة فى أوصاله برغم النار المشتعلة فى المكان !..

ثم أجال الفتى بصره فى المقاعد المتداعية ، والسجادة المهلهلة التى بجانب الفراش الشبيه بالكنبة .. ثم الى الستائر التى كانت تهتز كل لحظة كأنما البناء المتآكل كله يوشك أن ينهار .. وأخيرا استدار ليوجه اهتمامه الى نانون ، قائلا فى لهجة جادة :

ــ أنصتى الى يا فتاتى الطيبة .. هل أنا حقا فى منزل مسيو جرانديه ؟.. مسيو جرانديه عمدة سومور السابق ، وشقيق مسيو جرانديه الذى يعيش فى باريس ؟

ـ نعم يا سيدى أنت فى بيته !. وانه لرجل لطيف المعشر رقيق الحاشية جدا ..! هل تبغى أن أعينك على حل وثاق حقائبك ؟

ـ أود لو تفعلين .. اليك مفتاح احداها ، فأخرجى منها ثوب النوم

وفغرت نانون فمها دهشة حين رأت « بيجامة » حريرية خضراء مطرزة بالزهور الذهبية على الطراز العتيق . وسألته :

ـ هل تنوى أن تنام فى هذه ؟.. يا للعذراء المقدسة !. يا لها من ثوب جميل يصلح لكهنة الكنيسة . أوه يا سيدى الشاب العزيز ، ينبغى أن تهديها للكنيسة ،وبذلك تنقذ روحك ، فأغلب الظن انك ستفقدها من أجل هذا « الشىء » .. أوه ، ما أجمل ما تبدو فيها ! سأذهب وأنادى الآنسة كى تراك !

ـ تعالى يا نون ـ أليس هذا اسمك ؟ ـ هل لك أن تعقلى لسانك وتدعينى أنام ؟ سأرتب حاجياتى غدا ، وما دمت قد أعجبت ببيجامتى فأمامك فرصة لانقاذ روحك . انى أطيب وأكثر تدينا من أن آخذها معى حين أذهب . سوف تنالينها ، ولك أن تفعلى بها ما تشائين !

وقفت نانون مشدوهة ، تحدق فى شارل . لم تستطع أن تصدق أنه قد عنى حقا كل ما قال !.. ثم تساءلت وهى تستدير لتذهب : « هل تنوى حقا أن تعطى هذه (البيجامة) الفاخرة لى أنا ؟ لا شك انك تحلم يا سيدى. طابت ليلتك يا سيدى »

ـ طابت ليلتك يا نانون

ثم حدث نفسه وهو يتأهب للنوم : « ماذا جئت أفعل هنا ؟!.. ان والدى ليس غبيا ، وهو لم يرسلنى الى هنا عبثا ! »



قالت اوجينى تحدث نفسها وهى تتلو صلواتها : « أيتها العذراء .. ما أجمله فتى .. ! » .. وفى تلك الليلة بقيت صلاتها ناقصة لم تتمها !

وكانت مدام جرانديه هى الوحيدة التى نامت فى تلك الليلة مستريحة البال . ومن خلال الحاجز الذى يفصل مخدعها عن مخدع زوجها سمعت وقع خطاه وهو يذرع الحجرة ذهابا وجيئة . ومثل جميع النساء الخجولات ذوات الحساسية البالغة كانت المرأة قد درست خلق زوجها ومولاها .. وكما تحس بعض حيوانات البحر باقتراب العاصفة أدركت هى من علامات لا تخفى أن عاصفة عاتية تصطرع فى ذهن جرانديه . وكان من عادتها فى مثل هذه الاحوال أن تستكين فى فراشها بلا حراك كمن فقدت الحياة .. لقد اتجهت عينا جرانديه نحو صومعته .. نظر الى الباب ، الذى كان مزودا بالعوارض الحديدية من ناحية مخدعه ، بناء على طلبه ، وغمغم :

ـ أية فكرة بعيدة عن الصواب من جانب أخي جعلته يعهد بابنه الى !.. يا لها من تركة جميلة ! .. انى لست فى غنى عن عشرين ريالا اعطيه اياها ومع ذلك فماذا تفعل عشرون ريالا لفتى مدلل مثل هذا ؟

وفيما كان جرانديه يفكر فى النتائج المحتملة لهذا التوسل المحزن الصادر من رجل ميت ، كان على درجة من الانزعاج لعلها تفوق انزعاج اخيه الذى كتب ذلك التوسل اليائس !

أما نانون فحدثت نفسها : « هل سأحصل حقا على البيجاما المذهبة ؟» ثم استغرقت فى النعاس ، وحلمت ـ لأول مرة فى حياتها ـ بالثياب المزركشة الجميلة ، كما حلمت اوجينى بالحب !

وفى حياة الفتاة الساذجة الخالية من الاحداث ، تحل أحيانا ساعةغامضة من النشوة تغمر فيها أشعة الشمس نفسها ويبدو لها ان الازهار تعبر عن الافكار التى تدور فى خاطرها ، والتى تتعاقب بسرعة دقات القلب وتتمخض عن شعور مبهم بالشوق .. وتحفل أيامها بالبلبلة العذبة والسعادة المتعة .. ان الاطفال يبتسمون حين يرون النور لأول مرة ، وحينما تدرك الفتاة وجود الحب فى دنياها تبتسم كما كانت تبتسم فى طفولتها .. ولئن كان النور هو اول شيء نتعلم أن نحبه ، أفليس الحب مثل النور فى القلب ؟ .. هذه اللحظة قد حلت فى حياة أوجينى ، فرأت حقائق الحياة بوضوح للمرة الاولى !

ان النهوض مبكرا هو القاعدة المتبعة فى الريف ، ومن ثم كانت اوجينى تبكر فى اليقظة شأنها شأن أكثر الفتيات .. لكنها فى هذا الصباح قد استيقظت فى ساعة أكثر تبكيرا من المعتاد ، فتلت صلاتها وبدأت ترتدى ثيابها .. وعنيت بزينتها عناية لم تألفها من قبل . بدأت بتمشيط شعرها الكستنائى ، وتهذيب ضفائرها الثقيلة ، مع الحرص على الا تتناثر خصلات منها خارج « الاكليل » الذى يتألف منها والذى يتناسب مع وجهها الصريح الخجول وقسماتها البريئة !

وفيما هى تغسل يديها مرة بعد مرة بماء النبع البارد الذى يسبب خشونة واحمرارا للجلد ، نظرت الى ذراعيها المستديرتين الجميلتين وعجبت ماذا فعل ابن عمها ليحصل على نعومة يديه وبياضهما ، وانتظام أظافره وجمالها ! .. ثم ارتدت جوربين جديدين ، وأحسن أحذيتها .. ولأول مرة فى حياتها ودت لو انها تبدو جميلة ، أجمل ما يمكن أن تكون . وأحست متعة فى أن يكون لها ثوب جديد جميل لترتديه !

ودقت ساعة الكنيسة وقد فرغت من ارتداء ثيابها ، فأحصت دقاتها. وأدهشها ان الساعة لم تزل السابعة ! لشد ما اشتاقت أن يتسع لها الوقت للتزين ، فاستيقظت مبكرة أكثر مما يلزم . والآن لم يبق أمامها شيء تفعله

وكانت اوجينى ، فى جهلها ، لم تفكر لحظة فى « دراسة » الوضع الملائم لشعرها ، وفى تجربة اثنى عشر وضعا مختلفا كى تنتقى أحسنها ..

وانما كان حسبها أن تعقد ذراعيها وتجلس الى النافذة لتنظر الى الفناء الخارجى ، والحدائق الواسعة الممتدة أمامها على مرمى البصر .. وكان منظرا موحشا بعض الشيء ، تحده حوائط من الصخور ، وان لم يخل من جاذبيته الخاصة ، تلك الجاذبية الغامضة التى للحدائق الهادئة المظللة بالاشجار ، أو الاماكن المنعزلة الموحشة !

وكانت توجد تحت نافذة المطبخ بئر ذات سور حجرى يحيط بها .. وقد امتدت فوق السطح بكرة جرارة مثبتة الى قوس حديدى تغطيه كرمة صغيرة . وكانت أوراق الكرمة الحمراء قد بهتت وحال لونها بحلول الخريف .. وكان ذلك الصباح ناعما مشرقا كما هو مألوف فى تلك المناطق المتاخمة لنهر اللوار فى أشهر الخريف . ولم يكن ثمة أثر للضباب الخفيف الباقى من الليلة السابقة فقد تلاشى سريعا أمام أشعة شمس الخريف الرقيقة وهى تشرق على المناطق البهيجة الخضراء والجدران القديمة ، والحشائش والمزروعات النامية فى الفناء والحديقة !

كل هذه الاشياء كانت منذ زمن مألوفة لعينى اوجينى ، لكنها بدت لها اليوم وكأنها اكتسبت جمالا جديدا !.. ان حشدا من الافكار المتضاربة قد ملأ ذهنها بينما أشعة الشمس تملأ الفضاء حولها !.. وسعادة جديدة غامضة غير مفهومة قد انتعشت فى أعماقها فغلفت روحها كما تغلف سحابة من الضوء شيئا ما فى العالم المادى ..!

والحديقة الجميلة ، والجدران العتيقة ، وكل تفصيل فى حياتها الصغيرة ، بدا كأنما يعيش معها خلال هذه التجربة الجديدة. الطبيعة كانت منسجمة مع أدق أفكارها الداخلية .. وضوء الشمس قد زحف على الجدران حتى بلغ شجرة صغيرة من نبات السرخس . والتموجات الملونة المتغيرة لصدر حمامة قد سطعت من بين الاغصان المتكاثفة .. وكل مستقبل أوجينى صار مشرقا بالآمال البهيجة .. صار الجدار القاتم ، والازهار الشاحبة ، والحشائش الذابلة ، مناظر جميلة يانعة فى عينيها ، تستدعى الى ذهنها أشياء وخواطر لها صلة بذكريات الطفولة الجذابة !

وحفيف أوراق الشجر وهى تتساقط الى الارض ، والاصوات الصادرة من الفناء ، بدت أشبه باجابات عن أسئلة الفتاة لنفسها وهى جالسة ساهمة شاردة .. وقد كان يمكن أن تجلس هكذا الى جوار النافذة طيلة النهار دون أن تتنبه الى مرور الساعات. لكن أفكارا أخرى كانت تصطرع فى نفسها ، فنهضت المرة بعد المرة ووقفت أمام المرآة تنظر الى نفسها ، كما يعيد الكاتب المدقق النظر فيما كتب ، وينقده ، ويقسو فى نقده !

ـ لست جميلة الى الحد الكافى بالنسبة له !

هذا ما فكرت فيه أوجينى ، وكانت الفكرة شديدة الخصوبة فى لحظات الالم ، فلم تنصف المسكينة نفسها .. ان المذلة ـ أو بتعبير أدق وأصدق : الخوف ـ يولد مع الحب !.. وقد كان جمال اوجينى من اللون الريفى

الذى يكثر بين الطبقات المتوسطة والوضيعة ، اللون الذى ينقصه التهذيب وكان يختلط فيها الجمال الوثنى لتمثال « فينوس دى ميلو » بالجمال النبيل المطهر للعاطفة المسيحية ، التى تريق على المرأة وقارا لم يعهـده المثالون الاقدمون ..

وكان رأسها كبيرا للغاية ، وجبهتها الدقيقة الشبيهة بجبهة الرجال تذكر بصورة الاله « جوبيتر » .. وكل اشراق حياتها النقية يبدو كأنه ينبع من عينيها الصافيتين الغبراوين .. وكانت قد أصـيبت بالجدرى اصابة خفيفة لم تخلف آثارا تذكر فى وجهها البيضـاوى أو قسماتها ، سوى تأثيرها فى لون البشرة الذى أزال صفاءه وغض من نضارته ونعومته، فخلفه خشنا الى حد ما ، وان ظلت قبلة الام الرقيقة تترك حمرة خفيفة على خدها .. وربما كان أنفها أيضا أكبر من المعتاد قليلا ، ولكن ليس الى الحد الذى يتعارض مع تعبير الفم العاطفى الرقيق ، والشفتين الحمراوين الدقيقتين !

وكانت رقبتها مستديرة جميلة .. وثمة شيء فى خطوط وجهها يجذب الانتباه ويثير الخيال . وكان ثوبها مغلقا عند الرقبة ، يكاد يغطيهـا . ولاشك ان قليلا من الجلال الذى بدا لها كان مرجعه الى زينتها .. أما قوامها فكان طويلا قويا ، له جماله الخاص فى نظر خبراء الجمال .. كان جمالها من النوع الذى لايقدره عامة الناس ، وانما يقدره الفنانون وحدهم يقدره مثلا رسام يبحث عن وجه نسائى روحانى ذى جمال كالذى حلم به « رفاييل » وأخرجه الى الوجود . وعينين مفعمتين بالمذلة المتكبرة .. وقسمات طاهرة من اللون الذى لاتوحى به أو تحافظ عليه غير الحياة الفاضلة الحريصة على أوامر الدين ونواهيه

مثل هذا النموذج الخاص كان الرسام يستطيع أن يجده على الفور فى وجه أوجينى جرانديه ، حيث يقرأ نبل الروح الداخلى غير الواعى .. ويقرأ خلف الحاجبين الساكنين عالما من الحب ، وفى طريقة تحريك أجفانها ولفتات عينيها تلك المسحة الالهية التى تجل عن الوصـف .. كان فى ملامحها هدوء رصين ، لايفسـده تعبيرها عن المرح والبهجة ، وكأنك ترى على صفحة بحيرة ساكنة ظلال تلال عالية تطاول السحاب .. أو فلنقل ان جمال وجه اوجينى الهادىء الناعم كان أشبه بجمال زهرة نصـف متفتحة ينسكب عليها الضوء ، وتكمن جاذبيتها التى تفتن كل من يمسك بها فى سكونها وتعبيرها الغامض عن طبيعتها الجميلة

وكانت اوجينى ما تزال على هامش الحياة الموشي بالزهر، حيث تزدهر الاوهام وتجتمع المباهج التى لا تعرف فى السن المتقدمة .. وهكذا نظرت الفتاة الى المرآة ، ودون أن تجول بخاطرها بعد أية فـكرة عن الحب ، حدثت نفسها : « انه لن يفكر فى .. انى قبيحة الخلقة ! »

ثم فتحت بابها وأطلت من السلم تستمع الى ما يجرى فى الطابق الاسفل

من المنزل .. وقالت لنفسها : « انه لم ينهض بعد » . وسمعت نانون تسعل سعال الصباح وهي تروح وتجيء بين الردهة وغرفة الطعام، وتشعل النار في المطبخ ، وتقيد الكلب في سلسلته ، ثم تحدث أصدقاءها الحيوانات في الحظيرة !

وهرعت اوجيني الى الطابق الاسفل ، وأسرعت الى نانون التي كانت تحلب البقرة ، فصاحت بها : « نانون .. قليلا من القشدة لقهوة ابن عمي ! »

فقالت نانون وهي تنفجر ضاحكة : « ولكن يا آنسة لن تستطيعي الحصول على قشدة من لبن هذا الصباح . لن أستطيع صنع قشدة لك . ان ابن عمك جذاب للغاية ، وانت لم تريه في بيجامته الحريرية المطرزة بالزهر والذهب ، أما أنا فرأيتها . انها أشبه بحلة سيدي القسيس الكهنوتية ! »

— نانون .. اصنعي لنا كعكا !

— ومن يحضر الخشب لايقاد النار في الفرن ، والدقيق والزبد ؟

وكانت نانون في كفاءتها كأنها رئيس وزارة للمنزل ، وكانت اوجيني وأمها تعرفان مدى أهميتها ، ومن هنا عادت نانون تتساءل مخاطبة سيدتها : « هل نسرقه كي نعد وليمة لابن أخيه ؟ اسأليه أن يعطينا الزبد والدقيق والوقود .. انه أبوك ، فاذهبي واسأليه ، فقد يعطيك ما تطلبين .. هذا هو هناك يهبط السلم لينظر في أمر التموين ! »

لكن أوجيني فرت الى الحديقة ، أفزعها وقع خطوات ابيها على درجات السلم المتداعية . لقد أحست لاول مرة بمدى انعدام الراحة في بيت ابيها ، وفي حيرتها وبلبلتها ودت المسكينة لو يتغير كل ذلك وتجعله أقرب الى الانسجام مع أناقة ابن عمها . أحست بشوق جارف الى أن تفعل شيئا من أجله ، دون أن تكون لديها أدنى فكرة عن ماهية هذا الشيء !.. كانت غريزة الانوثة التي استيقظت فيها منذ رأت ابن عمها أقوى من المألوف لانها قد بلغت عامها الثالث والعشرين ونضج عقلها وقلبها نضجا تاما . وكانت في حركاتها لذلك بسيطة كل البساطة بحيث تصرفت وفقا لطبيعتها الملائكية دون أن تخضع نفسها ومشاعرها لأية خطة مرسومة !

ولأول مرة في حياتها أحدثت رؤيتها لأبيها نوعا من الذعر في قلبها ، فأحست انه كان سيدها المسيطر على مصيرها ، وانها تود لو تخفي عليه بعض أفكارها .. فبدأت تسير ذهابا وايابا في خطوات سريعة ، وهي تسائل نفسها : « كيف صار الهواء بهذه الدرجة من العذوبة ، والشمس بهذا الدفء الذي يشيع القوة في الاجسام ، والذي يبدو كأنه يملأ باطنها وأعماقها كما يشرق على ظاهرها .. وأية حياة جديدة قد بدأت بالنسبة لها .. ! »

وفيما هي تفكر كيف تبلغ هدفها بشأن صنع الكعكة ، نشب شجار

بين نانون وجرانديه ، الامر الذى كان نادر الحدوث .. فقد أخذ الرجل المفاتيح كى يخرج الحاجات اللازمة للطعام والشراب ، فسأل نانون : « هل يوجد خبز باق من أمس ؟ »

ثم تناول رغيفا كبيرا مستدير الشكل على هيئة السلة المسطحة التى تستخدم فى اقليم « انجو » وكاد يكسره كى يترك لها جزءا منه ويخفى جزءا .. فصاحت به نانون :

ـ نحن اليوم خمسة أشخاص ياسيدى !

ـ هذا صحيح ، لكن هذه الارغفة التى تصنعينها يزن الواحد منها ستة أرطال ، وسوف يبقى جزء منه .. فضلا عن ان أهل باريس المتأنقين لايكاد الواحد منهم يلمس الخبز ، كما سترين بنفسك الآن !

ـ اذن فهم يأكلون ما يوضع على الخبز ويتركون الخبز نفسه .. يأكلون الزبد ، أو الفاكهة المحفوظة .. الخ

فأجاب جرانديه فى لهجة صارمة :

ـ كلا !.. انهم لايأكلون هذا ولا ذاك .. انهم أشبه بالفتاة العاشقة التى لا تشتهى طعاما !

واذ فرغ البخيل أخيرا من « اختزال » كميات المؤن الى أقل حد ممكن ، تأهب لاغلاق الخزانة والمضى الى الحديقة .. لكن نانون استوقفته قائلة :

ـ اعطنى قليلا من الدقيق والزبد ياسيدى ، كى أصنع كعكة للأولاد

فصاح بها : « هل اعتزمت أن تقلبى بيتى رأسا على عقب ، لأن ابن أخى قد حضر ؟ ! »

ـ ابن أخيك لم يخطر ببالى أكثر مما خطر به كلبك .. ها أنت ذا قد أعطيتنى ست قطع من السكر ، فى حين انى أريد ثمانى قطع !

ـ ماذا دهاك يا نانون ؟ لم أرك يوما هكذا .. ماذا جرى لك ؟.. هل أنت سيدة البيت هنا ؟.. لن تنالى أكثر من ست قطع من السكر !

ـ حسنا ! .. وبماذا يحلى ابن أخيك قهوته ؟

ـ يستطيع أن يأخذ قطعتين ، وسوف أستغنى أنا عنهما !

ـ انت تستغنى عن السكر ؟.. وفى مثل سنك ؟.. انى أفضل على ذلك أن أدفع ثمن القطعتين من جيبى الخاص !

ـ لا تتدخلى فيما لايعنيك !

وبرغم رخص أسعار السكر ، فانه كان فى نظر جرانديه أثمن جميع المؤن المنزلية ، كان الرطل منه يساوى ستة فرنكات ، كما كان فى عصر الامبراطورية . وقد صار التقتير فيه عادة متأصلة فى الرجل . لكن كل امرأة ـ مهما تكن بساطتها ـ تستطيع أن تصل الى غايتها بالحيلة

والخداع .. وقد تركت نانون مسألة السكر تمر دون احداث أزمة بشأنها ، كيما تحصل على مبتغاها فيما يختص بالكعكة .. فنادت سيدتها من النافذة :

ــ آنستى ، ألا تريدين كعكا ؟

فصاحت أوجينى قائلة : « كلا !.. كلا ! »

وهنا قال جرانديه وقد سمع صوت ابنته : « خذى يا نانون ، اليك المؤن » . وفتح غرارة الدقيق فوزن قدرا منه ، وأضاف بضع أوقيات من الزبد الى الكمية التى كان قد سمح بها للطعام .. فقالت له نانون : « وخشب الوقود ؟.. لابد لى منه كى أشعل الفرن ! »

فأجابها الرجل فى حسرة : « آه ، حسنا ، خذى منه ما يلزمك .. على أن تصنعى لنا فطيرة بالفاكهة فى الوقت نفسه ، وتطهى الطعام أيضا فى الفرن ، كى توفرى وقود اشعال نار أخرى ! »

فصاحت نانون : « لاحاجة بك الى أن توصينى بذلك ! »

وحدج جرانديه رئيسة وزرائه الامينة بنظرة شبه أبوية .. فصاحت هذه بسيدتها : « يا آنسة .. سوف نصنع كعكا ! »

وعاد جرانديه من الحديقة يحمل الفاكهة وألقى حمله على منضدة المطبخ .. فقالت له نانون : « اصغ الى ياسيدى .. أى حذاء جميل يرتديه ابن أخيك ، وأى جلد .. يا لرائحته الجميلة . بماذا ينظف مثل هذا الحذاء ؟ هل أستعمل له صبغة البيض السوداء التى تخص سيدى؟»

فقطعت اوجينى كلامها قائلة : « كلا يا نانون !.. أعتقد ان البيض يفسد الجلد . الافضل أن تقولى له انك لاتعرفين كيف تنظفين الجلد المراكشى الاسود .. نعم ، انه جلد مراكشى ، وسوف يشترى هو لك بنفسه دهانا من سومور لتمسحى به حذاءه .. لقد سمعتهم يقولون انه ينبغى وضع السكر فى الصبغة كى تصير لامعة ! »

فسألت الخادمة وهى تتناول الحذاء وتشمه : « اذن فالصبغة صالحة للأكل ؟.. ان رائحة الحذاء أشبه بماء الكولونيا .. ما أغرب هذا ! »

فقال سيدها : « عجبا !.. ان من الناس من ينفق على أحذيته أكثر مما يستحق هو نفسه ؟ »

وكان الرجل قد عاد من جولة ثانية وأخيرة فى مشتل الفاكهة ، ولم ينس أن يغلق الباب بعناية عند انصرافه ، فقالت له نانون :

ــ سوف تشرب حساء مرة أو مرتين فى الاسبوع أثناء وجود ابن أخيك هنا ياسيدى .. أليس كذلك ؟

فأومأ موافقا ، وعادت هى تسأله :

ــ هل أذهب الى القصاب ؟

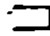
ــ لن تفعلى شيئا من هذا القبيل . تستطيعين أن تعدى شيئا من

مرق الكتكوت . وسوف أوصى « كورنوايبه » بأن يقتل بعض الغربان ، فمنها يصنع أشهى مرق فى العالم . .!

ــ هل صحيح ياسيدى ان الغربان تقتات من الطيور الميتة ؟

ــ أنت حمقاء يا نانون ، بل انها تعيش ــ مثل أى كائن حى آخر ــ على أى شيء تستطيع اصطياده . ألسنا جميعا نعيش على الاشياء الميتة ؟ وما قولك فى الوصايا ؟

ثم أخرج جرانديه ساعته ، واذ وجد انه ما يزال باقيا على موعد الافطار نصف ساعة ، تناول قبعته وقبل ابنته ثم قال : « هل تحبين أن تخرجى فى نزهة على شاطىء اللوار ؟ عندى شيء أريد أن أراه فى الحقول التى هناك »



ووضعت اوجينى على رأسها قبعتها المصنوعة من القش والحرير الاحمر ثم خرج الاب والابنة الى الشارع المتعرج فى اتجاه ميدان السوق

وقال مسجل العقود كروشو حين التقى بهما يسأل جرانديه : « الى أين أنت ذاهب فى هذه الساعة المبكرة من الصباح ؟ »

فأجابه بقوله : « نحن ذاهبان لنلقى نظرة على شيء ما ! »

ولم يسع مسجل العقود الا أن يصحب الرجل ، فقد كان يعلم بالتجربة انه حين يذهب ليلقى نظرة على شيء ، فان هناك نفعا من الذهاب معه !

وفى أثناء الطريق قال جرانديه لصديقه : « هيا بنا ياكروشو ، أنت واحد من أصدقائى ، وأنا ذاهب لأريك أية حماقة تنطوى عليها زراعة أشجار الحور فى التربة الطيبة ! »

فقال كروشو وهو يفتح عينيه دهشة :

ــ اذن فالستون الف فرنك التى حصلت عليها فى مقابل أشجار الحور المزروعة فى الحقول المحاذية لنهر اللوار هى مسألة تافهة بالنسبة لك ؟ ! يا لك من محظوظ !. . تملأ مخازنك بالاخشاب فى الوقت الذى لايوجد فيه خشب أبيض فى « نانت » . . بحيث يعود عليك كل جذع شجرة بثلاثين فرنكا !

وكانت اوجينى تسمع هذا النقاش وكأنها لم تسمعه ، فقد كانت غائبة عن ادراك ان أحرج ساعات حياتها تقترب بسرعة فائقة ، وان «مرسوما » أبويا يوشك أن ينطق به ، وان مسجل العقود العجوز سوف يكون له دور فى هذا الشأن !

وبلغ جرانديه الغابة الفاخرة المحاذية للوار ، التى صارت ملكا له فى عهد الجمهورية . وكان نحو ثلاثين من العمال منهمكين فى الحفر حول جذور أشجار الحور التى كانت قائمة هناك ، وفى ملء الحفر الشاغرة وتسوية الارض . . فقال جرانديه لصديقه المسجل : « والآن يا مسيو

كروشو ، أترى مقدار المساحة التى تشغلها شجرة الحور ؟.. » ثم نادى أحد عماله وقال له : « جان .. قس مساحة هذه الحفرة »

وأتم العامل مهمته وقال : « ثمان أقدام مربعة »

فقال جرانديه لكروشو معلقا : « أى ان اثنتين وثلاثين قدما تذهب هباء !.. ولقد كان فى هذا الصف ثلاثمائة شجرة حور ، أليس كذلك ؟ ومن ثم يمكنك تصور المساحة الضائعة دون استثمار . فى حين انها لو استثمرت فى الزراعة لبيع محصولها بما لايقل عن ... »

فقطع كروشو كلامه وقال يعينه على اتمام الحسبة : « .. ما لا يقل عن ألف ومائتى فرنك كل سنة ! .. »

فاستطرد جرانديه قائلا : « ولو ضربت هذا الرقم فى أربعين سنة ، بالفائدة المركبة طبعا ، لكانت النتيجة .. »

فعاد المسجل يسبقه فى استخراج الرقم وقال مكملا : « ستين ألف فرنك ، أو نحو ذلك .. »

فقال جرانديه : « نعم ، ستون ألف فرنك .. فى حين ان ألفين من أشجار الحور لن تدر فى الاربعين سنة خمسين ألف فرنك .. هذه هى الحسبة التى اكتشفتها أنا ! »

ونطق جرانديه بالعبارة الاخيرة فى غرور ، ثم التفت الى العامل جان وقال له : « املأ جميع الحفر ما عدا تلك المحاذية لشاطىء النهر ، حيث تستطيع أن تزرع شتلات الحور التى ابتعتها ، فاذا زرعتها بمحاذاة اللوار فسوف تنمو نموا رائعا ، على حساب الحكومة ! »

قال ذلك والتفت الى صديقه ، وهو يبتسم ابتسامة ماكرة ، فقال هذا وقد ملكته الدهشة من فطنة جرانديه : « هذا واضح غاية الوضوح ، فأشجار الحور ينبغى الا تزرع الا فى التربة الفقيرة ! »



كانت أوجينى تسرح بصرها فى الفضاء الشاسع الجميل الممتد أمامها ، وفى صفحة اللوار الرجراجة ، دون أن تلقى بالا الى حساب أبيها .. لكن حديث كروشو مع عميله لم يلبث أن اتخذ مجرى آخر ، استرعى انتباهها فجأة .. فقد قال له : « اذن فقد صار لك صهر من باريس . ان المدينة كلها لا تتحدث الا عن ابن أخيك ..! »

فأجابه جرانديه وقد اهتز كيس الدهن الذى يعلو أنفه لفرط انفعاله المفاجىء : « هل صحوت مبكرا لتقول لى هذا الكلام ؟ حسنا ! انت زميل قديم لى ، وسأكون صريحا معك .. انى لأفضل أن ألقى بابنتى فى لجة هذا النهر على أن أزوجها من ابن عمها . تستطيع أن تقول للناس ذلك . ولكن لا بأس بأن تدعهم يتقولون ويثرثرون ! »

غام كل شىء أمام عينى أوجينى ، وأحلامها الغامضة بالسعادة البعيدة

اتخذت فجأة شكلا آخر!.. لقد نبتت آمالها فى هذه السعادة وازدهرت ، ولكن ها هى ذى كل أزهارها النضرة يلقى بها فجأة الى الارض وتداس بالاقدام !.. انها منذ أمس قد نسجت رباط السعادة الذى يربط روحها بروح شارل ، ولكن يبدو أن الاسى وحده هو الذى سيقوى هذا الرباط منذ الآن !..

وساءلت نفسها : « كيف انطفأت مشاعر الابوة هكذا فى قلب أبى؟.. أية جريمة يمكن أن تلصق بشارل ؟. وأية نذر شر وسوء غامضة ومحزنة بدأت تحيط بالعاطفة النامية التى تعتمل فى أعماقى ؟ »

وحين استداروا ليعودوا من حيث أتوا ، ارتجفت كل أوصال الفتاة !.. وبدا الطريق الذى سلكته منذ قليل وهى فرحة مستبشرة،وكأنما استحالت ظلاله الوارفة الناعمة الى ظلمة كئيبة رهيبة ، واستحال الهواء الذى تتنفسه الى شواظ من نار . وبدا كل شيء حولها يجلله الحزن والعبوس

واذ اقتربوا من البيت ، سبقت اباها الى الباب وطرقته ، ثم وقفت حائرة تنتظر فتحه ، ثم لفت انتباهها صوت أبيها وهو يسأل المسجل :

ــ ما أنباء السندات اليوم ؟

فأجابه كروشو : « اعلم إنك لن تأخذ برأيى ونصيحتى يا جرانديه ، لكنى سأصارحك بها على أية حال . ينبغى أن تبادر فورا بشراء كل ما يمكن شراؤه من السندات . ان فرصة ربح عشرين فى المائة خلال عامين ما تزال سانحة لك . وفى وسعك أن تجنى فائدة كبيرة أخرى .. »

فقال جرانديه وهو يحك ذقنه مفكرا :ـ « سوف نرى ! »



انتحار فيكتور جرانديه

كان المسجل ينظر فى صحيفة معه فأبعدها فجأة وصاح فى جزع ودهشة : « يا الاهى ! » . ثم دفع الصحيفة الى جرانديه وقال له وهو يشير بأصبعه الى نبأ فيها : « اقرأ بنفسك ! »

وقرأ جرانديه النبأ فاذا هو :

« باتت باريس ليلتها تتحدث عن انتحار مسيو جرانديه ـ التاجر الكبير المعروف ـ فقد أطلق الرصاص على رأسه مساء أمس ، بعد أن أرسل الى رئيس مجلس النواب استقالته من المجلس ، واستقال فى الوقت نفسه من منصب قاضي المحكمة التجارية . والمفهوم انه انتحر متأثرا بافلاس مندوبه فى البورصة ومسجل عقوده المسيو روجان سوشيه . ولا شك أن رجلا فى مثل المكانة الكبيرة للمسيو جرانديه فى مختلف الاوساط،كان فى استطاعته أن يجد عونا مؤقتا فى السوق يمكنه من التغلب على مصاعبه . ولكن مما يؤسف له أنه برغم قوة خلقه وشخصيته أسلم قياده لاول بادرة يأس وهكذا لم يجد لنفسه مخرجا الا بالخروج من عالم الاحياء »

وقال جرانديه معلقا : « كنت أعلم ذلك ! » . فسرت فى أوصال صاحبه قشعريرة رهيبة لدى سماعه هذه العبارة وقال لنفسه : « لعل جرانديه الباريسي استنجد دون جدوى بشقيقه المليونير البخيل .. ثم سأل جرانديه :

ـ وابنه ؟ .. لقد كان مرحا منبسط الاسارير ليلة أمس !

ـ ابنه لا يعلم شيئا من أمر هذا النبأ حتى الآن !

وهنا قال كروشو وقد فهم الموقف على حقيقته وهو يمد يده الى صديقه: « الى اللقاء يا مسيو جرانديه » .. ثم مضى ليطلع القاضى دى بونفون على الانباء

وكانت مائدة الافطار قد أعدت حين دخل المنزل جرانديه وابنته ، وقد جلست زوجته على مقعدها المألوف تنسج ثيابا صوفية لفصل الشتاء .. فجرت أوجينى نحو أمها وأحاطتها بذراعيها بذلك الاشتياق للحنان الذى ينبع من القلق المخبوء !

وقالت نانون وهى تهبط السلم مسرعة : « فى وسعكم تناول افطاركم . انه ما يزال مستغرقا فى النعاس ، وقد دخلت حجرته وناديته ، لكنه لم

يسمعنى .. ولم يبد على جفنيه المطبقين أنهمـــا يريدان تغيير وضعهما اللطيف »

وصاح بها جرانديه : « دعيه نائما .. هذا خير له من أن يسمع أنباء سيئة حين يستيقظ ! »

وهنا نفد صبر أوجينى فسألت أباها جزعة : « ما جلية الامر ؟ »

وأصغت اليه فى انتباه .. وكذلك صنعت أمها ، فكفت عن النسج وتعلق بصرهابزوجها فى صمت وترقب ، بينما قال هذا فى برود عجيب :

ــ لقد ألهب أبوه رأسه برصاص مسدسه !

فهتفت أوجينى : « عمى ؟! »

وصاحت أمها : « أوه !. يا للفتى المسكين ! »

وواصل جرانديه كلامه فقال :

ــ انه مسكين حقا ، لا يملك بنسا واحدا !

وقالت نانون فى لهجة ملؤها الدهشة والرثاء :

ــ لو أنكم رأيتموه وهو نائم ؟! لا شك أنه فى أحلامه يرى نفسه ملكا

ولم تستطع أوجينى أن تأكل شيئا !. كان قلبها قد انفطر شأن كل امرأة حين تملأ الشفقة روحها كلها تأثرا بحزن الرجل الذى تحبه !

وانفجرت الدموع من عينيها .. فقال لها أبوها وهو يحدجها بمثل نظرة النمر الجائع ، أو نظرته هو الى أكوام ذهبه المدخر : « انك لم تعرفى عمك يوما ، ففيم بكاؤك ؟ »

فقالت الخادمة : «ومن لا تدركه الشفقة والرثاء للشاب المسكين،المستغرق هناك فى النعاس .. لا يدرى عن مصيره شيئا ؟ »

فالتفت اليها عابسا وقال : « انى لم أوجه كلاما اليك يا نانون.. فاحبسى لسانك ؟ »

وفى تلك اللحظة تعلمت أوجينى أن المرأة التى تحب ينبغى أن تخفى مشاعرها .. فلاذت بالصمت . بينما استطرد أبوها فقال محدثا أمها : « لا تقولى للفتى شيئا عن هذا الامر حتى أعود .. ان أعمال الحفر قائمة فى الغابة التى الى جوار النهر ويجب أن أشرف بنفسى على سير العمل،وسأعود وقت الظهر . وحينئذ نتحدث فى الامر أنا وابن أخى .. أما أوجينى فلتكف عن البكاء من أجل الببغاء النائم حتى الآن . وعما قريب يسافر الى الهند ، ثم لا تقع عيناها عليه بعد ذاك ! »

وتناول قفازيه من مكانهما المختار فوق حافة قبعته ، ووضع يديه فيهما ببطئه وبروده المعهودين .. ثم غادر المنزل دون أى كلمة أخرى فى الموضوع!

وما كادت أوجينى تخلو الى امها حتى صاحت باكية : « أوه يا أماه ! .. أكاد لا أستطيع أن أتنفس . لم أتألم فى حياتى مثلما أتألم الآن ! »

وجزعت الام اذ رأت وجه ابنتها الابيض الشاحب ، ففتحت النافذة وتركت الهواء المنعش يتسلل اليها .. وتنفست هذه الصعداء وقالت : « أشعر الآن بتحسن قليل ! »

وأحدث هذا الانفعال العصبي من جانب فتاة عرفت دائما بالهدوء والسيطرة على النفس ، تأثيرا في نفس أمها .. فنظرت الى ابنتها مشفقة راثية لحالها ، وحدثتها غريزة الامومة بكل شيء ، ولا سيما أن التفاهم كان تاما بينهما ..

وقالت مدام جرانديه وهي تجذب رأس أوجيني حتى يستريح على صدرها :

ـ آه يا ابنتي الصغيرة المسكينة !

فرفعت أوجيني وجهها اليها ورمقتها بنظرة تساؤل بدت كأنها تقرأ أعمق أفكارها .. ثم قالت :

ـ لم يترك المسكين يرحل الى الهند ؟.. أليس الافضل ما دام في محنة أن يبقى معنا هنا ؟.. أليس هو أقرب أقربائنا الينا ؟!

فقالت لها أمها في هدوء : « بلى يا ابنتي !.. كان هذا هو الامر الطبيعي ، لكن أباك عنده ولا ريب أسباب تبرر ما يتخذه من اجراء ، ويجب أن نحترم قراره ! »

ثم جلست الأم والابنة صامتتين ، وتناولت الاثنتان ابرهما وانهمكتا في نسج الصوف . لقد أحست أوجيني أن أمها تفهمها ، فامتلأ قلبها شكرا لها على هذا العطف الرقيق !

ثم تناولت يد أمها فقبلتها وقالت لها : « لكم أنت شفيقة يا أمي العزيزة ! »

فأضاءت هذه الكلمات وجه الأم الصبور الممزق الذي جعلته الاحزان يبدو كوجه امرأة متقدمة في السن .. ثم سألتها أوجيني :

ـ أراضية أنت عن هذا التصرف يا أماه ؟

وسكتت أمها قليلا مكتفية بالابتسام ، ثم غمغمت : « لا يمكن أن تكوني أحببته حقا بهذه السرعة ، والا يكون الامر داعيا الى الأسف »

فتساءلت أوجيني :

ـ لم يكون داعيا الى الاسف ؟.. انه يعجبك ، ويعجب نانون .. فلم لا يعجبني أنا أيضا ؟.. والآن يا أماه ، دعينا نعد المائدة لافطاره !

ثم ألقت بما في يدها جانبا ، وحذت أمها حذوها وهي تقول : « انك فتاة مجنونة ! »

لكنها مع ذلك قبلت أن تشارك ابنتها جنونها ، بمساعدتها فيه .. أما أوجيني فنادت نانون ، وجاءها صوت هذه تتساءل :

ــ ألم تحصلى على كل ما انت فى حاجة اليه يا آنسة ؟

فقالت لها : « نانون .. لا شك انه سيكون عندك قدر من القشدة نحو الساعة الثانية عشرة ؟ »

ــ الثانية عشرة ؟ .. بلا شك !

ــ حسنا !. اذن فلتجعلى القهوة قوية مركزة ، فقد سمعت مسيو دى جراسان يقول ان أهل باريس يشربون القهوة قوية .. وعلى هذا أكثرى من البن حين تصنعينها

ــ ومن أين آتى به ؟

ــ يجب أن تبتاعى ما تحتاجين اليه من السوق

ــ واذا حدث أن قابلنى السيد فى الطريق ؟

ــ انه قد ذهب فى طريق النهر ، فخذى سبيلا آخر

ــ اذن فسوف أتسلل بسرعة . لكن مسيو «فيسار» سألنى حين ذهبت لشراء الشمعة عما اذا كان «الملوك الثلاثة المقدسون» سوف يزوروننا !؟ . ان البلدة كلها سوف تتحدث عنا !

وأضافت مدام جرانديه تخاطب ابنتها : « ان أباك قدير على أن يضربنا اذا اشتبه فى شىء من هذا كله ! »

فردت أوجينى بسرعة : « لا بأس فليضربنا كما يشاء ! »

وهنا رفعت أمها عينيها الى السماء ، ولم تزد على أن تنهدت ، بينما وضعت نانون قبعتها التى تحميها من الشمس على رأسها وخرجت .. أما أوجينى فنشرت على المائدة غطاء نظيفا من التيل ثم صعدت الى الطابق الاعلى لتحضر بعض عناقيد العنب التى سلت نفسها بتعليقها فى خيوط فى المخزن .. وتسللت محاذرة فى الممر كيلا تزعج ابن عمها .. ولم تستطع مقاومة الاغراء الذى يحثها على أن تتوقف لحظة أمام الباب لتصغى على الاقل لتردد أنفاسه ! وحدثت نفسها وهى واقفة : « ان المتاعب تستيقظ وهو نائم ! »

ورتبت عناقيد العنب على بضع وريقات العنب الخضراء الباقية ، ببراعة الخبير المجرب ، ثم وضعتها على المائدة مبتهجة .. ورصت ثمار الكمثرى ــ التى أحصاها أبوها بعناية ! ــ على شكل هرم ، تتخللها أوراق أشجار الخريف .. ثم راحت تذرع الحجرة ، وتدخل وتخرج ، وترقص مرحة .. انها تود لو تستطيع أن تنهب كل ما فى البيت من أجله ، والعزيمة متوافرة لديها . لكن أباها يحرص على أن يغلق أبواب المخازن ، ويضع المفاتيح فى جيبه .. !

وأقبلت نانون تحمل بيضتين طازجتين .. فودت أوجينى لو تعانقها شاكرة !.. فقالت الخادمة موضحة : « التقيت بفلاح أعرفه يحمل بيضا

فى سلته .. فسألته أن يعطينى بعضه . ولكى يرضينى أعطانى الرجل الطيب هاتين البيضتين ! »

وبعد ساعتين من العمل المتواصل نجحت أوجينى فى اعداد وجبة بسيطة لم تكلف كثيرا ، لكنها كانت مخالفة صريحة وعدوانا صارخا على قوانين الدار ولوائحها وعاداتها .. ولم يكن أحد يجلس على مقعد ليتناول وجبة منتصف النهار ، التى تتألف من قليل من الخبز وبعض الفاكهة أو الزبد وكأسا من النبيذ .. بل كانوا يتناولونها وقوفا ... وخلال تينك الساعتين تركت أوجينى عملها نحو عشرين مرة كى ترقب غليان القهوة ، أو تصغى الى أى صوت ينبىء عن يقظة ابن عمها .. أو تتأمل نظام المائدة التى وضعت قريبة من المدفأة وتصدرها المقعد المخصص له وعليها طبقا الفاكهة ، وزجاجة النبيذ الابيض ، والخبز ، والهرم الصغير المؤلف من قطع السكر الابيض !

وارتجفت أوجينى المسكينة من قمة رأسها الى أخمص قدمها اذ تصورت النظرة التى لا بد أن يحدجها بها أبوها لو صادف أن دخل فى هذه الساعة ! ومن ثم ظلت تنظر بين حين وآخر الى الساعة لترى هل هناك متسع من الوقت لان يفرغ ابن عمها من افطاره قبل عودة أبيها !

ولحظت أمها قلقها ، فقالت تطمئنها : « لا تخشى شيئا يا أوجينى .. اذا جاء أبوك الآن فسأحمل عنك اللوم ! »

ولم تستطع أوجينى أن تقمع دموعها ، فصاحت متأثرة : « أوه يا أمى الرحيمة ، انى مقصرة فى حبك ! »



وهبط شارل أخيرا ، بعد أن قام بجولات عدة فى أنحاء غرفته ، مترنما ببعض الاغانى المرحة .. وكان مظهره ينم عن أنه بذل مجهودا كبيرا فى التزين ، وبدأ الحديث قائلا :

ــ أرجو أن تكونى قد نعمت بنوم هنىء يا زوجة عمى العزيزة .. وأنت كذلك يا ابنة العم ؟

وردت مدام جرانديه تحيته بمثلها فقالت :

ــ ان أقصى ما يسرنا أن تكون راضيا عن ليلتك !

وهنا تدخلت أوجينى فى الحديث قائلة له :

ــ يا ابن العم ، لا بد أنك جوعان .. اجلس

فقال : « الحق أنى لا أتناول افطارى عادة قبل الثانية عشرة ، حين أنهض من فراشى .. لكنى لم أتناول غذاء طيبا أثناء رحلتى ، ولهذا يبدو أنى سأستسلم لاغراء ألوان الطعام هنا .. ثم أنى ... »

وقطع كلامه ليخرج من جيبه أجمل ساعة أنتجتها مصانع « بريجيه » .. ثم قال وهو ينظر اليها : « يا الاهى !.. ان الساعة الآن لم تجاوز الحادية عشرة .. لقد نهضت قبل الموعد المناسب ! »

فتساءلت مدام جرانديه متعجبة : « قبل الموعد المناسب ؟! » . وأجاب الفتى قائلا :

ـ نعم .. فلقد أردت أن أرتب حاجياتي .. والآن ، انا على أتم استعداد لتناول .. دجاجة مثلا ، أو قطاة !

فصاحت نانون مذعورة حين سمعت هذه العبارة :

ـ أيتها العذراء المقدسة !

وأشارت مدام جرانديه الى المقعد الرئيسي حول المائدة وقالت للفتى في هدوء : « هيا .. اجلس هنا يا بنى العزيز ! »

وغاص الشاب المدلل فى المقعد ذى الذراعين ، واتخذ جلسة أشبه باسترخاء غانية على أريكتها .. فجذبت أوجينى وأمها مقعديهما نحو النار وجلستا بالقرب منه !

وتساءل شارل ، وقد رأى الحجرة فى ضوء النهار أبشع مما بدت على ضوء الشموع :

ـ أتعيشون دائما هنا ؟

فأجابت أوجينى وهى تنظر اليه :

ـ نعم دائما .. فيما عدا أوقات حصاد الكروم حين نذهب لنساعد نانون ، وعندئذ نقيم جميعا فى « نوايه »

ـ ألا تمشون للتنزه قط ؟

ـ فى أيام الآحاد بعد الصلاة ، حين يكون الطقس صافيا ، نمشى حتى نبلغ القنطرة .. أو نذهب لنتفرج على القرويين أثناء عملهم !

ـ أليس عندكم مسرح هنا ؟

فصاحت مدام جرانديه ملتاعة :

ـ ماذا ؟.. انذهب الى المسرح لنتفرج على المثلين ؟.. أوه يا سيدى ، الا تعلم أن هذه خطيئة مميتة ؟

وهنا حضرت نانون تحمل البيض قائلة :

ـ اليك يا سيدى .. نحن نقدم اليك الدجاج بقشره !

فقال شارل وكان قد نسى كل شيء عما طلبه شأن المترفين أمثاله :

ـ أوه ! بيض طازج !.. هذا بديع .. هل أجد عندكم شيئا من الزبد يا فتاتى الطيبة ؟

فقالت الخادمة :

ـ زبد ؟. اذا حصلت على الزبد الآن فلن تحصل على الكعك فيما بعد !

فصاحت بها أوجينى : « هيا .. احضرى شيئا من الزبد يا نانون ! »
وراقبت الفتاة ابن عمها وهو يقطع نصيبه من الخبز والزبد الى شطائر صغيرة .. وأحست بسعادة فائقة . لقد بدا الفتى أنيقا نظيفا مترفا ناعما ــ شأن أية « غندورة » متأنقة من الجنس الآخر ــ فقد أشرفت على تنشئته أم جميلة جذابة ، وتولت تربيته سيدة من نساء المجتمع العصريات

وأحدث ميل الفتاة الصامت نحو الفتى تأثيرا شبه مغناطيسى فى نفسه ، وزاد فى تأثره ما وجده من رعاية ابنة عمه وأمها ، على هذه الصورة ، فلم يستطع مقاومة تأثير رقتهما الحانيـــة ، وبدا مشرقا منبسط الأسارير ، والنظرة التى رمق بها أوجينى كانت أشبه بابتسامة .. وفيما هو ينظر اليها بامعان ، عن قرب ، لاحظ قسماتها النقية الوسيمة ، وبساطتهـــا والصفاء العجيب فى عينيها اللتين يلمع فيهما الحب . برغم أنها لم تعرف من الحب بعد غير آلامه وأشواقه الموجعة ..!
وقال يخاطبها : « الواقع ، يا ابنة عمى العزيزة،انك لو وجدت فى مقصورة بالأوبرا ، فى ثياب السهرة ، لكان للملاحظة والدتك عن (الخطيئـــــة المميتــة) ما يبررها .. فان كل الرجال يحسون عندئذ بالحسد ، وكل النســـاء بالغيرة ! »
وهنا تتابعت دقات قلب أوجينى بسرعة ، من فرط فرحها بهذه التحية والاطراء ، برغم أنها لم تحمل أى معنى خاص الى عقلها .. وقالت تجيبه :
ــ انك تسخر من ابنة عم ريفية مسكينة !
فقال لها : « لو أنك عرفتنى على حقيقتى يا ابنة العم لعرفت أننى أمقت المزاح . انه يجرح القلب ويقتل الشعور ! »
ثم ابتلع قطعة من الخبز والزبد بشهية ملحوظة واستطرد فقال :
ــ كلا !. أنا لا أسخر قط من الآخرين ، ربما لانى لست بارع الدعابة الى الحد الكافى ، وهو نقص ــ أو نقيصة تسبب لى ضيقا شديدا . وفى باريس يوجد مثل سائر أو عبارة مأثورة تقول : « فلان طيب القلب » . وهذا يعنى أن ذلك المسكين شديد الغباء !.. ولكن نظرا الى انى غنى ، والى أن الجميع يعلمون قدرتى على أصابة أصغر هدف على بعد ثلاثين مترا بأى نوع من المسدسات وفى أى مكان أو مناسبة ، فان هذه العبارات الساخرة لا توجه الى ..!
وهنا قالت مدام جرانديه ، بلهجة جادة :
ــ يبدو من كلامك أيها العزيز أنك رقيق القلب
وسألته أوجينى :
ــ هل لى أن أرى الخاتم الجميل الذى فى اصبعك ؟
فنزع شارل الخاتم من يده وقدمه لابنة عمه ، التى احمر وجهها خجلا حين تلامست أطراف أناملها بأظافر ابن عمها الوردية .. وما لبث أن هتفت :

ـ أماه ، أنظرى كم هو دقيق الصنع !
وقالت نانون وهى تضع القهوة على المائدة :
ـ أوه ، يا لثقل الذهب الذى يحويه !
أما شارل فتساءل ضاحكا وهو يشير الى الفنجان العتيق المملوء بسائل بنى يغلى كانت ذرات البن ترى فيه بوضوح وهى تطفو على السطح ثم تغوص : « ما هذا ؟ »
فأجابت نانون فى بساطة : « قهوة ساخنة ! »
فالتفت شارل الى زوجة عمه وقال : «أوه يا زوجة عمى العزيزة.. ينبغى على الاقل أن أخلف ورائى هنا أثرا طيبا . انكم متخلفون كثيرا عن موكب العصر !.. سأريكم كيف تصنع القهوة الفاخرة فى باريس ! »
ثم أخذ يشرح لهم الطريقة الحديثة لصنعها .. فقالت نانون متضجرة :
ـ يا للهول !.. انها طريقة تشغل وقتك كله . لن أصنع القهوة قط بهذه الطريقة .. والا فمن عساه يجتث الحشائش لبقرتنا أثناء انهماكى فى مراقبة آنية القهوة ؟
فقالت أوجينى : « أنا سأصنعها بالطريقة الحديثة ! »
فهتفت بها أمها وهى تحدجها بنظرة خاصة : « أوجينى ! »
وسرعان ما طافت بذهن الفتاة خواطر متلاحقة تتصل بالفاجعة التى توشك أن تحل بالشاب الغافل . ثم صمتت النسوة الثلاث فجأة ، ونظرن اليه فى عطف ورثاء ، لم يفهم معناهما .. فسأل أوجينى : « ماذا هناك فى الامر يا ابنة العم ؟ »
واذ رأت الأم ابنتها توشك أن تجيب هتفت بها :
ـ أوجينى .. أنت تعلمين أن والدك قرر أن يتحدث الى السيد بنفسه فلا ...
فقطع الشاب كلامها قائلا : « لا داعى للقب السيد هذا فيما بيننا .. قولى شارل فقط ! »
فقالت أوجينى متسائلة :
ـ هل اسمك شارل ؟.. انه اسم لطيف !
وفى تلك اللحظة فوجئت كل من مدام جرانديه وأوجينى ونانون بسماع طرقة جرانديه المألوفة على الباب فاعترتهن رعشة الخوف والقلق لهذه المفاجأة ، وصاحت أوجينى : « هذا أبى ! »
وأعقبت ذلك بأن اختطفت آنية السكر من فوق المائدة ، تاركة قطعة أو اثنتين فوق الغطاء .. بينما سارعت نانون بدورها الى اخفاء طبق البيض . وبدت على مدام جرانديه سيماء الرعب المفاجىء .. الامر الذى دهش له شارل ، وقد كان خالى الذهن عن الحقيقة الخافية عليه .. فتساءل حائرا : « ماذا ؟.. ماذا هنا لك ؟ »

فأجابت أوجينى : « إن أبى قد عاد ! »

ولم يفهم الفتي شيئا من هذا الجواب ، وقبل ان ترد أوجينى على تساؤله دخل أبوها الغرفة ، فألقى نظرة حادة على المائدة ، وأخرى الى شارل . .

وأدرك من فوره حقيقة ما يحاولون اخفاءه . . فقال دون تردد :

ـ آه ، انكم تقيمون وليمة لابن أخى . . حسنا !. حسنا جدا فى الواقع!. اذا غاب القط لعب الفار !

وكان شارل ما زال يجهل كل شيء عن سير الامور فى بيت عمه ، فسأل نفسه متعجبا :« وليمة ؟! »

ثم قال رب الدار لخادمته العجوز :

ـ احضرى لى نظارتى يا نانون

وذهبت أوجينى لاحضارها ، وأخرج جرانديه من جيب سترته مطواة حادة ذات مقبض على هيئة قرن الوعل ، ثم قطع بها شريحة من الخبز ودهنها بالزبد فى بطء وحذر ، ثم بدأ يأكل وهو واقف على قدميه. . .بينما وضع شارل السكر فى قهوته ، فنبهت الحركة مضيفه الى قطع السكر التى فوق الغطاء . . فألقى الى زوجته نظرة صارمة ، شحب لها وجهها،فنهضت وخطت خطوة أو خطوتين نحوه . . واذ ذاك انحنى فهمس فى اذن المرأة المسكينة :

ـ من اين جاء كل هذا السكر ؟

ـ جلبته نانون من حانوت « فيسار » . . لم يكن يوجد سكر فى البيت !

من المستحيل وصف الأثر الموجع الذى خلفه هذا المشهد فى نفوس النسوة الثلاث . . اما شارل فلم يفهم من الامر شيئا ، وحين ذاق القهوة ووجدها ما تزال مرة بحث بعينيه عن قطعة من السكر ، لكن جرانديه كان قد أخفى ما وجده منه على المائدة . . فلما رأى حركة ابن أخيه سأله :

ـ ماذا تريد يا ابن الاخ ؟. . اذا كانت القهوة ما زالت مرة فيحسن أن تصب عليها مزيدا من اللبن !

وهنا أخذت أوجينى آنية السكر التىكان ابوها قد استولى عليها وأعادتها الى المائدة ، وهى تنظر الى ابيها فى هدوء !. . والحق أن العاشقة الباريسية التى تستخدم كل قوة ساعديها الضعيفين كى تعين عاشقها على الفرار بواسطة سلم من الحبال ، انما تظهر بهذا العمل شجاعة أقل من التىاظهرتها أوجينى حين أعادت السكر الى المائدة ! . . فالعاشقة الباريسية تعلم أنها سوف تنال مكافأتها على شجاعتها . . فقد ترى عشيقها فيما بعد آثار الجروح على ذراعها البضة الناعمة ، فيغمرها الرجل بدموعه وقبلاته التى تطفىء ألمها وتنسيها ماقاست . . لكن شارل لم تكن لديه أدنى فكرة عن التضحية التى تحملتها ابنة عمه من أجله ، أو عن الفزع الرهيب الذى ملأ قلبها حين التقت عيناها بعينى أبيها الغاضبتين . .!

وقال الرجل يخاطب زوجته ..

ــ انك لا تأكلين شيئا ؟

فاتجهت المسكينة الى المائدة ، وقطعت بيد مرتجفة قطعة من الخبز وثمرة كمثرى .. اما أوجينى التى غدت « مستهترة » فقد مدت يدها بالعنب الى أبيها قائلة :

ــ جرب فاكهتي انا يا ابى !. لقد أحضرتها خصيصا لك !

ثم اتجهت به الى شارل وقالت له :

ــ وأنت يا ابن العم .. انك ستجربها أيضا ..

فقال جرانديه يخاطب ابن أخيه :

ــ انهن لو استطعن لقلبن (سومور) كلها رأسا على عقب من أجلك يا ابن أخى !.. بعد فراغك من الافطار سوف نقوم بجولة فى الحديقة معا !. فعندى ما أقوله لك ، وما سيحوجك الى الكثير من السكر لازالة أثره !

ورمقت أوجينى وأمها الشاب بنظرات حزينة آسفة

فقال يسأل عمه :

ــ ماذا تعني بذلك يا عمى ؟ .. منذ ماتت امي (وهنا بدا صوته أكثر رقة) .. لم يبق ثمة مكروه يمكن أن يصيبنى !

فقالت زوجة عمه :

ــ من يدرى اى كوارث يرسلها الينا الله كى يجرب ايماننا يا ابن الاخ ؟

فغمغم زوجها يسكتها :

ــ صه ! ها انت ذى تبدئين حماقتك متعجلة

ثم التفت الى شارل وقال له :

ــ لكم يؤسفنى أن ارى يديك بهذا البياض يا ابن الاخ !

وأرى الرجل لضيفه يديه هو ، الشبيهتين بكتفى الشاة قائلا :

ــ هذا نوع الايدى الذى ينفع الانسان.. انك تلبس احذية مصنوعة من الجلد الذى تصنع منه محافظ الجيب التى تحفظ فيها الفواتير والمستندات هذه هى التربية التى نشأت عليها ، وهذا أمر سيء جدا

ــ ماذا تعنى يا عمى ؟ . سحقا لى اذا كنت قد فهمت كلمة واحدة مما تقول !

ــ تعال معى ...

وطوى البخيل مطواته وفتح الباب .. واذ ذاك قالت أوجينى تخاطب ابن عمها :

ــ اوه !.. تذرع بالشجاعة يا ابن العم !

وكان فى صوت الفتاة ما أرسل رعدة مفاجئة فى أوصال الفتى ، فتبع

عمه موطنا نفسه على أسوأ الاحتمالات !.. بينما مضت أوجيني وأمها ونانون الى المطبخ تقودهن رغبة لا تقاوم الى حيث أردن مراقبة الرجلين وهما يمثلان « الدراما » الموشكة أن تبدأ على مسرح الحديقة الصغيرة الرطبة !

سار العم وابن الاخ فى البداية معا صامتين ، وقد أحس جرانديه حرج الموقف .. لم يكن يشفق من اطلاع شارل على نبأ موت أبيه ، بل انه أحس شيئا من الرثاء للشاب الذى ترك كى يواجه الحياة وهو لايملك بنسا واحدا .. وحار العم فى اختيار العبارات والالفاظ التى ينهى بها النبأ القاسى الى ابن أخيه

انه يستطيع أن يقول له : « لقد فقدت أباك ! » . وليس فى هذا من ضر .. فالآباء عادة يسبقون أولادهم الى الموت .. أما أن يقول له : « انك لا تملك فرنكا واحدا على سطح البسيطة ! » ، ففى هذه العبارة تتركز كل بلايا الارض !

وهكذا ذرع الرجل الممر الذى يتوسط الحديقة لثالث مرة ، وهو يدق الارض بقدميه الثقيلتين ، من دون أن ينطق بحرف !

فى جميع الازمات الخطيرة التى تعترض حياتنا ، فى اى فرح مفاجىء أو حزن عظيم ، يعرض لنا احساس حاد بالظروف التى تحيط بنا يطبعها فى الذاكرة الى الابد .. وقد بقى شارل حتى آخر حياته يذكر بالتفصيل ما شعر به خلال تلك الدقائق الرهيبة والمناظر التى استفزت كل حواسه وانتباهه : أوراق الخريف المتساقطة من الشجر ، وجدران البيت القاتمة ، والاغصان المحملة بثمار الفاكهة ، وجميع المناظر التى احتوتها الحديقة فى تلك الساعة

وقال جرانديه وهو يأخذ نفسا عميقا من الهواء :

ـ الطقس بديع ، دافىء جدا .. !

ـ نعم يا عمى ، ولكن لماذا ؟

ـ الواقع يا ابنى ان عندى لك أنباء سيئة .. فان أباك مريض جدا !

فصاح شارل على الفور :

ـ وماذا أفعل أنا هنا ؟ .. أين نانون ؟.. يجب اعداد جياد للسفر .. اننى واثق بأنى سأجد عربة من أى نوع فى الميدان !

ولم يبد عمه حراكا ، لكنه قال يجيبه والفتى ينظر الى ما أمامه فى صمت :

ـ الجياد والعربة لا فائدة منهما البتة !.. نعم يابنى المسكين. لعلك فهمت ما أعنى ؟.. لقد مات أبوك

ـ أبى مات ؟ ؟ !

ـ نعم !.. وهناك ما هو أسوأ من ذلك ، لقد أطلق الرصـــاص على نفسه !

وغمغم الفتى فى ذهول : « ماذا ؟.. رصاص ؟ ! »

فقال له عمه : « نعم !.. لكن هـــذا بدوره لاشيء ، بجانب ما هو أدهى. ان الصحف تخوض فى الأمر كأنما هو يخصها . خذ واقرأ بنفسك !

وكان جرانديه قد استعار صحيفة كروشو ، فوضع السطور التى فيها النبأ أمام بصر الشاب ، الذى لم يبذل أية محاولة لاخفاء مشـــاعره ، فانخرط فى البكاء !

واذ ذاك قال جرانديه يحدث نفسه : « هذا أفضل .. ان النظرة التى كانت فى عينيه قد اخافتنى . انه يبـــكى ، وسرعان ما ســـيتغلب على ضعفه » . ثم استطرد الرجل بصوت مسموع ، دون أن يدرى اذا كان الشاب قد سمعه أم لا :

ـ خفف عن نفسك يا ابن أخى المسكين.. ان فقدك أباك قد يمكن التغلب على الشعور بألمه .. ولكن ..

وصاح الفتى باكيا : « كلا !.. كلا ..! آه يا أبى العزيز ! »

وهنا قال عمه فى هدوء : « مســـكين انت يا بنى .. لقد دمرك .. انك لاتملك شيئا ! »

ـ وماذا يهمنى فى هذا ؟ أين أبى ؟.. أبى !

وملأ صوت نشيجه الحديقة الصغيرة ، فرددته جدران البيت المطلة على المكان .. والبكاء مثل الضحك سريع العدوى ، فلم تلبث النســـوة الثلاث أن بكين بدورهن ، اشفاقا على الفتى المسكين

وترك شارل عمه من دون أن ينتظر ليسمع منه مزيدا ، وهرع دون كلمة الى داخل البيت ثم الى غرفته حيث ألقى بنفسه على الفراش ودفن وجهه فى الوسادة كى يطلق لأشجانه العنان !

وقال جرانديه يحدث نفسه وهو يعود الى الداخل : « فليبق وحده حتى يزول الاثر الاول للصدمة ! »

وكانت اوجينى وأمها قد سارعتاعائدتين الى مكانيهما ، وجففتاعينيهما، واستأنفتا حياكتهما بأصابع باردة مرتجفة .. فقال جرانديه :

ـ ان هذا الشاب لايصلح لشيء .. لقد بلغ من تأثره انه لم يعد يفكر حتى فى المال !

وارتجفت أوجينى اشمئزازا لسماع أبيها يتحدث عن أقدس الاحزان بهذه اللهجة !.: ومنذ تلك اللحظة بدأت تنتقد أباها .. ان نشيج شارل، برغم محاولته كبته ، قد رن فى أرجاء ذلك البيت الذى يردد الاصداء . كانت الاصوات كأنها تصدر من باطن الارض ، نحيب خافت يفطر القلوب

لبث يضعف شيئا فشيئا حتى آخر النهار .. ولم يتوقف الا بعد هبوط الليل !

وقالت مدام جرانديه معلقة : « يا للفتى المسكين ! »

لكنها كانت ملاحظة غير موفقة .. فقد نظر جرانديه اليها ، ثم الى اوجينى ، ثم الى آنية السكر . لقد ذكر الافطار السخى الذى أعدتاه للفتى فى الصباح ، فقال لزوجته بلهجته الفاترة المألوفة :

ـ لهذه المناسبة أرجو ألا تستمرا فى اسرافكما بعد اليوم .. أتسمعان ما أقول ؟ اننى لا أعطيكما مالى لكى تبدداه فى شراء السكر لهذا الشاب الاخرق الذى ...

فقطعت اوجينى كلامه قائلة له فى جرأة :

ـ أمى ليست الملومة فى هذا الشأن .. لقد كنت أنا التى ...

فقطع هو بدوره كلامها قائلا :

ـ الأنك قد بلغت رشدك ، تحسبين نفسك أهلا لأن تعارضينى ؟ .. الزمى حدودك يا أوجينى !

ـ ولكن يا أبى ، لاينبغى أن يبقى ابن أخيك محروما من السكر فى بيتك

ـ صه !.. أو تحتجان بابن أخى فى كل شىء ؟.. هذا الشاب لايعنى شيئا بالنسبة لنا .. انه لايملك شروى نقير ، وأبوه قد أشهر افلاسه.. وبعد أن يأخذ حظه من البكاء سوف يتمالك نفسه .. انى لن أسمح بأن يقلب بيتى رأسا على عقب من أجله !

فتساءلت أوجينى : « ما معنى انه أشهر افلاسه ؟ ! »

ـ ان اشهار الافلاس يلصق بصاحبه أشنع تهمة يمكن أن تمس شرف انسان !

فقالت مدام جرانديه : « لابد انها خطيئة كبيرة .. ولعل أخاك قد فقد الى الابد فرصته فى أن يكون من أهل الجنة ! »

فأجابها وهو يهز كتفيه : « هل عدت الى مواصلة مواعظك ؟ »

ثم استطرد يشرح الامر لابنته فقال :

ـ ان الذى يشهر افلاسه يا أوجينى ليس سوى لص ، وان كان القانون يحميه لسوء الحظ !.. لقد وثق الناس بوليم جرانديه ، فعهدوا اليه فى تصريف بضاعتهم ، واثقين من خلقه وأمانته .. لكنه أخذ كل ما لهم ولم يترك لهم غير عيونهم كى يبكوا بها حالهم !.. الذى يشهر افلاسه أسوأ من قاطع الطريق .. فقاطع الطريق يترك لمن يهاجمه فرصة الدفاع عن نفسه ، ثم انه يخاطر بحياته أيضا أثناء المهاجمة .. والواقع ان شارل قد تلطخ بالعار !..

وملأت الكلمات قلب الفتاة المسكينة أسى ، وثقلت على نفسها .. انها مثل أمها حيـة الضمير الى حد التزمت . ما من زهرة فى قلب الغابة

نبتت وترعرعت خالصة من أى عيب أو شائبة مثلها . انها لم تعرف شيئا من مقاييس الحكمة الدنيوية ، وسفسطتهـا وترهاتها .. وهكذا قبلت تعريف أبيها القاسي للمفلسين على علاته .. ولم يفرق هو بين الافلاس المصحوب بالغش والتدليس وبين الفشل نتيجة لأسباب لاتمكن مقاومتها. فكيف تستطيع هى أن تفرق بين الحالين ؟

— ولكن يا أبى ، ألم يكن فى وسعك أن تمنع هذه الكارثة ؟

— لم يسألنى أخى نصحا .. وسوى ذلك فان خسائره تصل الى أربعة ملايين ..!

فسألته أوجينى ببساطة الطفل الذى يود لو تتحقق أمنيته على الفور :

— وكم يبلغ المليون يا أبى ؟

— المليون ؟.. انه مليون فرنك ، أى مائتا الف قطعة من ذات الخمسة فرنكات . والفرنك يساوى عشرين سنتيما ..

فصاحت أوجينى جزعة :

— يا الهى !.. يا الهى !.. وكيف استطاع عمى أن تكون له أربعه ملايين ؟.. أيوجد فى فرنسا حقا من يملك كل هذا المبلغ ؟

فداعب جرانديه ذقن ابنته وابتسم !

— وماذا سيكون مصير ابن العم شارل ؟

— سوف يبحر الى جزر الهند الشرقية ، ليحاول أن يجمع لنفســه ثروة . هذه هى رغبة أبيه الاخيرة !

— ولكن هل عنده المال الذى يسافر به ؟

— سوف أدفع له نفقات السفر حتى ... نعم ... حتى « نانت »

واذ ذاك نهضت أوجينى فألقت ذراعيها حول رقبة أبيها صائحة :

— اوه يا أبى !.. انك طيب !

وسبب عناقها الحار شيئا من الارتباك لأبيها .. ولعل ضميره لم يكن مستريحا !.. بينما عادت هى تسأله :

— هل لابد من وقت طويل لكى يجمع الانسان مليونا ؟

وفيما هو يهم بالاجابة عن سؤالها سمع صوت نشـيج خافت ، أكثر وضوحا من كل ما سبقه ، وكان صادرا من شارل . فارتجفت أوجينى وأمها .. وصاح جرانديه بخادمته :

— نانون .. اصعدى لئلا يقتل الفتى نفسه !

ثم استطرد محدثا زوجته وابنته اللتين شحبت وجناتهما للهجتــه : « اسمعا ، انتما الاثنتان .. اياكما والحماقات !.. انى ســأترك البيت ، سأذهب فى جولة لأرى الهولنديين الذين سيسافرون اليوم .. ثم أمر بعد ذلك على كروشو لأتحدث اليه فى كل هذه الامور ! »

ثم خرج وأغلق الباب وراءه ، فتنفست أوجينى وأمها الصعداء !

بين الألم والأمل

كانت الساعات القليلة التى انقضت منذ الصباح قد أحدثت فى أفكار أوجينى ومشاعرها تغييرات سريعة فقالت لأمها :

ـ اماه .. كم يساوى برميل النبيذ ؟

ـ يبيعه أبوك بثمن يتراوح بين مائة فرنك ومائة وخمسين فرنكا .. وأحيانا يبلغ ثمنه مائتين ، على ما سمعت منه ذات مرة !

ـ وهل تملأ الكرمة ألفا وأربعمائة برميل ؟

ـ لست أعرف تماما يا ابنتى .. ان والدك لايحدثنى فى شؤونه المالية !

ـ على أية حال ، لابد أن أبى غنى ؟ !

ـ ربما .. لكن مسيو كروشو أخبرنى ان أباك اشترى ضيعة « فراودفون » منذ عامين . ولاشك ان هذا عبء ثقيل عليه

وعند هذا كفت أوجينى ـ برغم حيرتها بصدد حقيقة ثروة أبيها ـ عن استنتاجاتها الحسابية !

وهنا قالت نانون : « ان الفتى المسكين لم يرنى .. وهو راقد هناك على فراشه مثل الحمل ، يبكى كالعذراء ، بشكل لم أر له مثيلا !.. يا للشاب التعس ، ترى ماذا يكون من أمره ؟ »

فقالت أوجينى : « فلنصعد لنسرى عنه يا أمى ، حتى نسمع طرقة أبى على الباب فننزل ! »

وكان فى لهجة الابنة الموسيقية ما لم تستطع الام مقاومة جاذبيته !.. وصعدتا السلم الى غرفة شارل .. وكان بابها مفتوحا ، لكن الشاب كان مستغرقا فى شجنه ، وبين حين وآخر كانت تصدر منه انة مكتومة !

وقالت أوجينى فى صوت خافت : « لكم يحب أباه ! »

وكانت فى صوتها لهجة حزينة تفضح العاطفة التى فى قلبها ، والآمال المبهمة التى كانت هى نفسها تجهل كنهها !.. لكن أمها أدركت ما هناك فنظرت اليها وهمست فى أذنها بصوت خفيض :

ـ خذى حذرك .. والا وقعت فى حبه !

وزفرت الفتاة قائلة : « حبه ؟.. آه لو علمت ما قاله أبى ! »

وتحرك شارل قليلا فرأى ابنة عمه وأمها .. واذ ذاك صاح ملتاعا :

ـ لقد فقدت أبى . . أبى المسكين ! لو انه وثق بى وحدثنى عن خسائره ، لعملنا معا على تعويضها . يا الهى ! أبى الرحيم ! كنت موقنا بأننى سأراه ثانية ، وودعته فى غير اهتمام . . أخشى . . لم يجل بخاطرى . .

وكان نشيجه يقطع كلماته ، فقالت له مدام جرانديه مواسية : «سوف نصلى من أجله حتما . . سلم أمرك لله يا بنى »

بينما قالت أوجينى فى رقة :

ـ تذرع بالشجاعة يا ابن العم . لاشيء يمكن أن يعيد اليك أباك . . فليكن تفكيرك الآن فى الطريقة التى بها تنقذ شرفك !

والمرأة تحتفظ دائما بسرعة خاطرها ، حتى وهى تقوم بدور المواسية . . وهكذا رأت اوجينى ـ بلباقة غريزية ـ ان تحول أفكار ابن عمها عن شجنه بجعله يفكر فى نفسه !

لكن الشاب صاح وهو يزيح شعره عن عينيه فى حدة :

ـ شرفى ؟

ثم جلس فى فراشه وعقد ذراعيه وقال :

ـ ماذا ؟ . . لقد قال عمى ان أبى فشل !

وأخفى وجهه بين يديه وهو يطلق صرخة ألم تفطر القلوب . . وراح يناشد الفتاة :

ـ اتركينى ، اتركينى يا ابنة عمى . . اتركينى يا أوجينى . آه يا الهى ! اغفر لأبى . . لابد انه كان شقيا الى أقصى حد !

وكان فى منظر شقاء الشاب ، واستسلامه المطلق لأحزانه ، ما يحرك النفس ويثير كوامن أساها . . كان حزن الفتى من النوع الذى ينفر من نظرات الآخرين ، وكان فى مناشدته لابنة عمه وأمها تركه لنفسه ما لمس شغاف قلبيهما . . ففهمتا حالته ، ثم خرجتا من الغرفة فى صمت وهبطتا السلم الى حيث أخذتا مكانهما المألوف بجانب النافذة الكبرى وجعلتا تنسجان صوفهما نحو ساعة من دون أن تتبادلا كلمة !

وكانت أوجينى قد أجالت بصرها فى أرجاء الغرفة . . بنظرة خاطفة من تلك النظرات التى بها ترى الفتاة كل شيء فى ومضة عين . . فلاحظت حاجيات الفتى الصغيرة الجميلة الموضوعة على منضدة الزينة : المقص ، والموسى المحلاة بالذهب . . ودلائل الترف والنعماء ، وسط كل هذا الشقاء . . فساهم ذلك كله فى جعل شارل يبدو شائقا فى عينيها ، ربما بقوة المفارقة وحدها بين معيشته ومعيشتها ! . . ان حياتهم كانت دائما موحشة هادئة ، لم يتخلل تتابعها الرتيب حادث واحد ، ولو أليم مثل هذا الحادث ، ولا وقع شيء يستثير خيالهم الراكد . . والآن ها هى هذه الدراما المفجعة تمثل أمام بصرهم وسمعهم . .

وقالت أوجينى تسائل أمها :

ـ أماه .. هل سنرتدى ثياب الحداد ؟
ـ أبوك هو الذى يقرر ذلك
ومرة أخرى عادت المرأتان تنسجان الصوف فى صمت .. وكانت ابرة أوجينى تتحرك بانتظام آلى فضح انشغال ذهنها برغبتها فى مشاركة ابن عمها حزنه وحداده .. !



وحوالى الساعة الرابعة سمعت طرقة حادة على الباب أرسلت فى أوصال مدام جرانديه ، رجفة مفاجئة من الرعب ، فقالت تسائل ابنتها :
ـ ترى ما الذى جعل أباك يعود ؟
وأقبل جرانديه منشرحا منبسط الاسارير وفرك فى نشاط يديه الغليظتين المصبوغتين مثل الجلد المدبوغ !.. وجعل يذهب ويجيء برهة ، وينظر الى الطقس فى الخارج ، ثم أفصح عن سره فقال لزوجته :
ـ لقد أوقعت بهم .. بعنا نبيذنا !.. كان الهولنديون والبلجيكيون على أهبة الرحيل هذا الصباح .. فربضت فى ميدان السوق أمام حانتهم ، فى أبسط مظاهرى .. واذ ذاك جاءنى الرجل ، لست أعرف اسمه ، وكان نافد الصبر . ان جميع زارعى الكروم الجديدة يحتفظون بحاصلاتهم ويؤثرون الانتظار على بيعها !. وبدأنا نتساوم ، فأخذ محصولنا كله بمائتى فرنك للبرميل الواحد يدفع نصفها ذهبا مقدما وتكتب بالباقى كمبيالات .. هاك ستة ريالات ذهبية لك . ان الاسعار سوف تهبط خلال ثلاثة أشهر !
نطق جرانديه بالعبارات الاخيرة فى هدوء ملحوظ ، ولو انها بلغت مسامع زراع الكروم الصغار الذين وقفوا فى ميدان السوق مذعورين من أنباء بيع جرانديه لمحصوله ، لحدث ذعر فى الاسواق وهبطت أسعار النبيذ خمسين فى المائة ..!
وسألت أوجينى أباها :
ـ انك تملك ألف برميل هذا العام يا أبى ، أليس كذلك ؟
ـ نعم ، يا فتاتى الصغيرة
وقد دلت هذه الكلمات على أن فرحة الرجل قد بلغت غايتها . فقالت له أوجينى :
ـ اذن بعتها بمائتى ألف فرنك ؟.. حسنا !.. ان هذا يجعل من السهل عليك أن تساعد شارل ؟!
وأحدثت هذه المفاجأة فى نفس جرانديه مزيجا من الحيرة والسخط .. كان فى نشوة فرحته بتلك الصفقة الرابحة قد نسى كل شيء عن شارل ،

وها هو ذا يتبين أن أفكار ابنته الداخلية العميقة تدور كلها حول ابن أخيه، وأن استنتاجاتها الحسابية انما ترمي الى مساعدته !.. وسرعان ما زايله الهدوء وصاح بها فى صوت كالرعد :

ــ اسمعى!.منذ وضع هذا الاحمق قدمه فى البيت انقلبت فيه الاوضاع!. لقد أخذتم على عاتقكم أن تشتروا السكر خصيصا من أجله ، وأقمتم له مأدبة حافلة !.. انى لن أستطيع تحمل هذه الامور .. وانى لأعرف بما يصح ومالا يصح .. وعلى أية حال لست فى حاجة الى أن أتلقى دروسا من أحد ، وسوف أفعل لابن أخى ما أراه صوابا . وهذا من اختصاصي وحدى .. أسامعة أنت يا أوجينى ؟. حذار أن تنطقى بعد الآن بحرف واحد فى هذا الموضوع والا أرسلتك ومعك نانون الى « نوابيه »

وسكتت أوجينى على مضض !. بينما واصل هو كلامه فقال : « أين هو ذلك الفتى الأحمق ؟.. ألم يهبط بعد ؟! »

فقالت زوجته : « انه ما زال فى غرفته ! »

فعاد يسأل : « ماذا يفعل فى غرفته حتى الآن ؟ »

وأجابت أوجينى : « انه يبكى على والده .. ! »

فنظر اليها شزرا ، ثم لم يجد شيئا يقوله فأخذ يذرع الحجرة فى خطى قلقة ، ثم مضى الى غرفته الخاصة ليفكر هناك فى عقد صفقة جديدة !

لقد ربح من الغابات التى اشتراها حوالى ستمائة الف فرنك . وهناك الايراد المتحصل من بيع أشجار الحور .. والمال المدخر هذا العام والاعوام السابقة .. وان مجموع هذا كله ليزيد على تسعمائة ألف جنيه !

وكان يجرى هذه العمليات الحسابية على هامش الصحيفة التى نشرت نبأ مصرع أخيه . بينما أنات شارل المسكين تبلغ سمعه من الحجرة العلوية، لكنه لم يلق اليها بالا ، بل مضى فى عمله حتى طرقت نانون بشدة على الحائط داعية اياه الى الغداء ، فنهض متثاقلا ، وغادر غرفته بعد أن أحكم غلق بابها، فلما بلغ الدرجة الاخيرة من السلم ، وقف قليلا ليتم ما كان يفكر فيه ! وأخذ يحدث نفسه قائلا :

ــ هناك الفائدة التى تزيد على ثمانية فى المائة ، ان حصيلتها مليون ونصف مليون من الفرنكات الذهبية فى عامين !

ثم مضى الى المائدة ، ولم يكن شارل قد هبط من غرفته ، فسأل نانون : « أين هو ؟ هل أكل ؟ »

فقالت : « انه لايود أن يأكل شيئا .. ولكن يجب أن يأكل ، والا مرض !»

فقال لها : « لن يمرض ان لم يأكل ، ولكن هذا يوفر لنا ما كان سيأكله ! »

وفغر النسوة الثلاث أفواههن دهشة وجزعا ، ولم تنطق احداهن بأية كلمة ، بينما واصل هو كلامه فقال :

ـ انه لن يبكى الى الابد .. فالجوع يخرج الذئب من الغابة !
وساد الصمت على المائدة ، وحين أزيلت الاطباق قالت له زوجته :
ـ ألا ينبغى أن نرتدى الحداد يا عزيزى ؟
فقال لها : « ماذا ؟.. انك لبارعة حقا فى التخلص من النقود !. ألا تعلمين أن الحزن انما يكون فى القلب وليس فى الثياب ؟! »
ـ ولكن من أجل الاخ الشقيق لا يكون مفر من الحداد .. ثم أن الكنيسة توصينا ...
ـ اذن فلتشترى ثياب الحداد من الستة ريالات التى تخصك،أما أنا فان شريطا أسود فوق السترة يكفينى .. اشترى لى واحدا !
ولم تقل أوجينى شيئا ، بل اكتفت بأن رفعت بصرها الى السماء !. ان غرائزها الكريمة ، التى طال كبتها وقمعها ، قد استيقظت فجأة من سباتها. وبرغم أن تلك الليلة انقضت مثل آلاف الليالى الاخرى فى المنزل ، كانت فيما يختص بها وبأمها مختلفة كل الاختلاف عن ليالى حياتهما الرتيبة السابقة !
كانت أقساها وطأة وايلاما لهما ، فبقيتا تنسجان الصوف من غير أن ترفعا راسيهما .. أما جرانديه فجلس يعبث بأصابعه ، مستغرقا فى اعداد خططه التى يقدر لها نتائج سوف تذهل أهل سومور جميعا ..!
وانقضت أربع ساعات وهم على هذه الحال . والواقع أن المدينة بأسرها كانت تلغط بالاحاديث عن مسلك جرانديه ازاء افلاس أخيه وقدوم ابن أخيه !. وبلغ من فضول الجميع ولهفتهم على قتل هذا الموضوع بحثا أن اجتمع كل زراع الكروم ـ كبيرهم وصغيرهم ـ فى بيت آل دى جراسان ، حيث انهالوا لوما وتعنيفا على رأس عمدتهم السابق !
وكان صوت عجلات مغزل نانون هو الصوت الوحيد المسموع فى الحجرة الكبرى بالمنزل ، ثم قالت أخيرا وقد افترت شفتاها عن أسنانها الكبيرة :
ـ ان ألسنتنا قد أصابها الجمود !
فأجابها جرانديه وقد أفاق من حساباته المعقدة :
ـ لا حاجة بها الى أن تنشط !
انه يرى بعين الخيال صورة رائعة للمستقبل .. صورة ثمانية ملايين من الفرنكات خلال ثلاث سنوات . لقد شرع فى رحلة طويلة فوق بحر من الذهب !.. وما عتم أن قال :
ـ فلنذهب لننام .. سأصعد الى غرفة ابن أخى وأرجو له ليلة سعيدة باسمكم جميعا ، وأرى اذا كان فى حاجة الى شىء !
اما زوجته فبقيت على عتبة باب حجرتها لتحاول سماع ما قد يقوله زوجها لشارل .. بينما أظهرت أوجينى جرأة تفوق جرأة أمها ، اذ صعدت درجة أو درجتين من السلم المؤدى الى غرفة الشاب

وسمعت صوت جرانديه وهو يخاطب ابن اخيه قائلا :

ــ وبعد ؟! أحسبك تشعر بالشقاء يا ابن الاخ ؟ ان لك أن تبكى ، فهذا أمر طبيعى ، والاب هو الاب دائما .. لكننا يجب أن نتحمل متاعبنا بصبر . لقد كنت أفكر فى أمرك وأنت تبكى . انى عم طيب القلب كما ترى .. فلا تبتئس .. هل لك فى قليل من النبيذ ؟ . ان النبيذ لا يكلف شيئا فى سومور فهو شائع هنا ، يقدم كما يقدم فنجان من الشاى فى جزر الهند .. لكنك منقبض أكثر مما ينبغى ، وهذا أمر يدعو الى الاسف ، فالانسان يجب أن يتدبر ما هو فاعل !

واتجه جرانديه الى المدفأة .. واذ ذاك صرخ كالملسوع :

ــ ما هذه الشمعة ؟ من أين بحق الشيطان جئن بها ؟.. ان الخبيثات سوف ينزعن بلاط بيتى آخر الامر

واذ سمعت الام والابنة هذه العبارة هرعتا لائذتين بغرفتيهما ودلفتا الى فراشهما كالفيران المذعورة !

وبعد حين أقبل الرجل على مخدع زوجته يقول :

ــ مدام جرانديه .. يبدو أنك تخفين مبلغا كبيرا من المال فى مكان ما ..؟!

ــ انى أتلو صلاتى يا عزيزى .. انتظر قليلا

ــ الى الشيطان أنت وصلاتك هذه !

ان البخلاء أمثاله لا يؤمنون عادة بحياة أخرى !. فالحاضر عندهم هو كل شيء ، والمال فى عصرنا الحاضر هومحور القوانين الاجتماعية والسياسية، وجميع الدساتير والنظريات والمعاملات تعمل على اضعاف الايمان بالحياة الاخرى التى كانت الاساس لصرح المجتمع طيلة القرون العديدة الماضية !.. ولقد أوشك الموت أن يفقد رهبته فى نظرنا ، ولم يعد يهمنا أمر المستقبل البعيد الذى ينتظرنا بعد الموت ، فصار يتملكنا جميعا أمل واحد أو مطمع واحد هو أن نتمتع بما فى الفردوس الارضى من الترف والبذخ والغرور ، وأن نميت الروح من أجل ذلك ، فى حين كان الناس فى الماضى يحرصون على بلوغ الفردوس الخالد الموعود والتضحية فى سبيله بكل شيء فى حياتهم الدنيا

هذا الخاطر يقرأ الآن بسهولة على جبين كل انسان ، وهو مطبوع على عصرنا الذى يسأل المشرع الذى يصدر القوانين « ماذا تدفع ؟ » بدلا من ان يسأله « ماذا ترى ؟ »

وعاد صانع البراميل يسأل زوجته : « هل فرغت من صلاتك ؟ »

ــ انى أصلى من أجلك يا عزيزى !

ــ حسنا .. طابت ليلتك ، وغدا صباحا سوف يكون لى حديث معك !

يا للمرأة المسكينة !.. لقد حاولت جهدها أن تنام ، لكنه كان نوما أشبه بنوم التلميذ الذى لم يؤد واجباته ، فبات يرى أمامه وجه مدرسه

الغاضب حين يلقاه فى الصباح ! .. وقد دفعها الفزع الى أن تلف وجهها وراسها بأغطية الفراش كى تحجب كل الاصوات . وفى تلك اللحظة أحست قبلة تطبع على جبهتها . وكانت أوجينى قد انسلت الى الغرفة فى الظلام ووقفت هناك حافية القدمين فى ثوب النوم ، ثم همست لأمها : « آه يا أمى الرحيمة .. سوف أقول له صباح غد ان الامر كله من صنعى ! »

فقالت لها : « كلا !.. انه حينئذ يرسلك بعيدا الى (نوايه) !.. دعينى أنا أدبر الموقف بنفسى .. انه لن يأكلنى على كل حال ! »

ـ اوه ، امى ، اتسمعين ؟

ـ ماذا ؟

ـ انه ما زال يبكى !

ـ عودى الى فراشك يا عزيزتى ، فالبلاط رطب وأخشى أن يصيب البرد قدميك !

وهكذا انتهى اليوم الذى جلب على أوجينى المسكينة حملا من الاسى لازمها مدى الحياة . فلم تعد تنام بعد ذلك نومها العميق الهادىء الذى كانت تنامه فى الماضى !.. ان هذه العاطفة التى بذرت بذورها فى أعماق نفسها يمكن أن تدرس كما لو كانت نسيجا دقيقا لعضو حى ينبغى أن يكتشف سر نموه . انها عاطفة شديدة الاثر فى مجرى حياتها كله وسوف يطلق عليها يوما ـ فى سخرية ـ انها « مرض » !

وكثير من الناس يفضلون أن يعتبروا الكارثة بعيدة الاحتمال عن أن يضطلعوا بمهمة تتبع ملابسات الاحداث التى تؤدى اليها ، واكتشاف الطريقة التى تربط حلقات سلسلتها ، ومن هنا يدهمهم وقوعها ويقفون أمامها حيارى عاجزين !

ان الشفقة النسائية ، ذلك الشعور الغادر ، قد ملأ روح أوجينى لأن حياتها الماضية كانت خالية من الاحداث بحيث لم يحدث فيها ما يستثير هذه الشفقة من قبل

وهكذا أزعجت اضطرابات اليوم المثيرة راحة الفتاة ، فاستيقظت المرة بعد المرة كى تصغى لأدنى صوت يصدر من حجرة ابن عمها ، حاسبة أنها ما تزال تسمع الانين الذى تجاوبت أصداؤه فى قلبها طيلة النهار !.. وأحيانا كانت تتخيل انها تراه راقدا ، يكاد يموت غما .. وأحيانا تحلم بأنه يموت جوعا !

وقرب الصباح سمعت بوضوح صرخة رهيبة ، فارتدت ثيابها على عجل ، وهرعت فى ضياء الفجر الباهت نحو غرفة ابن عمها فى الطابق الاعلى ، محاذرة احداث أدنى صوت ..؟

كان الباب مفتوحا والشمعة قد احترقت عن آخرها .. وكان شارل ما يزال مرتديا ثيابه وقد غلبه النعاس فأغفى فى مقعده الكبير ، ورأسه

ملقى على الفراش !

وأعجبت أوجينى بوجهه الصبوح برغم انه كان محتقنا مقرح الاجفان من البكاء .. وكان يبدو كأنه ما زال يبكى فى نومه ، فتساقطت دموع أوجينى من فورها على خديها

واستيقظ الفتى بتأثير شعور مبهم بوجود ابنة عمه على مقربة منه ، ففتح عينيه .. ورأى مبلغ تأثرها ! .. فقال فى لهجة حالمة :

ــ اغفرى لى يا ابنة عمى !

وكان واضحا انه لم يتنبه بعد الى حقيقة الوقت الذى هو فيه ، من الليل أو النهار !.. واجابته أوجينى :

ــ هناك قلوب تشاركك ألمك يا ابن العم . وقد حسبنا انك قد تكون فى حاجة الى شىء . ينبغى أن تأوى الى فراشك ، فسوف تتعب نفسك اذا نمت بهذا الوضع !

ــ هذا صحيح .. الحق معك

ــ وداعا .. !

وفرت عائدة من حيث أتت ، وقد امتزج اضطرابها بابتهاجها لرؤيته !

ولم ترتجف أوجينى فى حضرة ابن عمها .. لكنها حين بلغت غرفتها الخاصة لم تستطع أن تقف على قدميها من فرط اضطرابها .. ان حياة الجهالة السابقة قد انتهت فجأة بالنسبة لها .. فاحتجت على نفسها ، ولامتها مرارا وتكرارا : « ماذا سيظن بى ؟.. سوف يعتقد انى أحبه ! » ومع ذلك أحست ان ذلك هو ما تتمنى أن يعتقده !

لقد تكلم الحب بأفصح لسان فى أعماقها ، وعرفت بالغريزة كيف يستجيب الحب للحب . واللحظة التى انسلت فيها الى مخدع ابن عمها صارت حدثا تذكاريا فى حياتها الموحشة

وبعد ساعة مضت الى غرفة أمها ، لتعينها على ارتداء ثيابها كعادتها كل يوم .. ثم هبطت المرأتان الى حيث أخذتا مكانهما المألوف عند النافذة ، وانتظرتا حضور جرانديه فى قلق محرق لكنه يحدث قشعريرة كالتى يحدثها البرد !

وهناك طبائع تجبن أمام مشاهد الانفعال الموجع ، وأخرى تغدو مستهترة لا تبالى .. والشعور بالخوف وترقب الالم يجعل الحيوانات المستأنسة تصرخ لأقل ألم يلحق بها عقابا على أمر ارتكبته ، فى حين انها لا تطلق أدنى صوت اذا حل بها ألم مفاجىء على غير انتظار !

وهبط صانع البراميل من حجرته فخاطب زوجته كالشارد ، وقبل أوجينى ، ثم جلس الى المائدة وكأنما نسى تهديد الليلة المنصرمة !.. ولم يلبث أن تساءل :

ــ ما أنباء ابن أخى ؟



وقال جرانديه : « آه ، انكم تقيمون وليمة لابن أخى .. حسناً ! »

فأجابته نانون : « انه ما زال نائما ياسيدى »

فقال : « هذا افضل .. فلن يحوجه النوم الى شمعة ! »

وأدهش زوجته هدوؤه غير العادى ومزاحه المقرون بالتهكم ، فنظرت اليه نظرة جادة ولم تنبس بكلمة .. أما هو فتناول قبعته وقفازيه قائلا :

ـ سأقوم بجولة فى ميدان السوق ، فانى أريد ان أقابل آل كروشو !

واذ ذاك همست الام لابنتها :

ـ اوجينى ، لابد ان أباك يضمر أمرا !

والواقع ان جرانديه لم يكن ينام عادة الا وقتا ضئيلا ، اذ كان يقضى نصف ليله فى اعداد خطط ثرائه التى كان لها فضل نجاحه المستمر الذى ألهج ألسنة أهل سومور بالاعجاب به .. فان الزمن والصبر يحدثان أثرهما فى أكثر الاشياء ، والرجل الذى يصل الى أحسن النتائج هو الرجل ذو العزيمة القوية والقدرة على أن يصبر وينتظر !

وان حياة البخيل تجربة مستمرة لكل موهبة بشرية . فهو يؤمن بحب الذات والمصلحة ، ولا شىء غيرهما !



مؤامرة فى مأدبة !

كان جرانديه فى الواقع يضمر شيئا فى نفسه كما توجست زوجته ! .. وكان من دأبه ـ ككل بخيل ـ أن يسخر الناس أحدهم ضد الآخر لمصلحته الخاصة .. ويجردهم من نقودهم دون أن يخالف القانون . أو ليس كل واحد من ضحاياه يقع فى قبضته انما يجدد فيه احساسه بالقوة والسلطان ، واحتقاره العادل للضعيف الذى يترك نفسه يصبح فريسة له بهذه السهولة ؟ .. انه يوقع كل ضحية جديدة الى حبائله ثم يقتلها ويطهوها ويأكلها !

وخلال الليل أخذت أفكار الرجل اتجاها جديدا تماما ، هو الذى فسرته زوجته بأنه ظاهرة للطف ووداعة غير مألوفين !.. لقد كان ينسج فخا ليوقع فيه بضحاياه فى باريس . انه سوف يلفهم فى طياته ، ليصبحوا أشبه بالعجين فى يده !

لقد كان يفكر فى ابن أخيه . أراد أن ينقذ اسم أخيه من العار بطريقة لا تكلفه أو تكلف الشاب فرنكا واحدا .. وقد كان يوشك أن يستثمر أمواله لمدة ثلاثة أعوام ، ومن ثم كان ذهنه خاليا من مشاغله الخاصة .. لكنه كان فى الوقت نفسه فى حاجة الى ميدان يستغل فيه نشاطه الخبيث .. الى منفذ يطلق منه طاقته من المكر والدهاء ، وها هى ذى فرصته قد حانت بفضل افلاس أخيه .. كانت مخالبه فارغة ، ولم يكن عنده ما يعصره بينها .. فلم لايسحق الباريسيين بينها لمصلحة شارل ويبدو فى الوقت نفسه فى مظهر الاخ النبيل ، دون أن يدفع لقاء ذلك غير ثمن زهيد ؟ !

والواقع ان شرف الاسرة لم يكن له فى نظره اى اعتبار . ولكنه نظر اليه بعين المقامر الذى يلذ له أن يرى لعبة تلعب باتقان ولو لم يكن له فيها شأن !.. وقد كان هو فى حاجة ملحة الى آل كروشو ، لكنه لم يرد أن يذهب للبحث عنهم ، بل أراد أن يأتوا هم اليه فى ذلك المساء لتبدأ المهزلة التى رسم خطوطها الرئيسية !

وقد كانت أوجينى فى غياب أبيها حرة فى أن تشغل نفسها بابن عمها علانية ، وتستمرىء متعة اغداق ثروتها من الشفقة عليه ، تلك الشفقة التى تملأ قلبها وتفيض .. ففى الشفقة وحدها تسر النساء بأن نحس نحن بتفوقهن علينا

وقد مضت أوجينى ثلاث مرات أو أربع مرات كى تنصت لصوت تنفس ابن عمها لتعرف هل هو نائم أم يقظان .. وحين وثقت من قرب نهوضه صرفت همها الى اعداد افطاره ، من القشدة والقهوة والفاكهة والبيض .. الخ ، ثم صعدت السلم مرة أخرى فى حذر لترى هل نهض لارتداء ثيابه أم ما زال ينشج بالبكاء ؟ !

وأخيرا ذهبت الى الباب ونادته : « يا ابن العم .. هل تفضل تناول أفطارك فى الطابق الارضى أم هنا فى حجرتك ؟ »

فقال لها : « كما تشائين يا ابنة العم ! »

فسألته : « وكيف حالك ؟ »

فأجاب : « يخجلنى أن أقول انى جائع ! »

وكان هذا الحديث عبر الباب المغلق أشبه فى نظر أوجينى بفصل شائق من قصة غرامية ، فواصلت كلامها قائلة لابن عمها :

— حسنا ! اذن فسوف نحضر لك افطارك فى حجرتك حتى لا يتكدر أبى !

وانتقلت تهبط السلم وهرعت الى المطبخ فى خفة الطائر ، وقالت لنانون : « اذهبى لترتيب غرفته حالا ! »

يالله مما يصنع الحب !.. ان درجات السلم المألوف التى طالما صعدتها أوجينى وهبطتها ، وطالما كانت تئز وتئن تحت الاقدام بشتى الاصوات ، لم تعد تبدو قديمة متآكلة فى نظرها .. بل بدت مشرقة بهيجة ، تنطق بلغة تفهمها هى .. حتى لكأنها قد عادت شابة مثلها ، شابة مثل الحب الذى ينطوى عليه قلبها .. !

والام ، المتسامحة الرحيمة ، صارت على استعداد للاستجابة الى أتفه نزوات ابنتها . وما كادت نانون تفرغ من ترتيب غرفة شارل حتى صعدت الاثنتان لتجلسا معه وتؤنسا وحدته !

وبات شارل جرانديه يتلقى أرق رعاية وأكرمها .. وقد تأثر فى عزلته الموحشة أكبر التأثر بهذه اللباقة الناعمة والعطف المحبب العذب !

وكان فى استطاعة أوجينى أن تستغل القرابة التى تربطها به لترتب ثيابه فى الغرفة بيدها ، وتعيد النظر فى أوضاع الاشياء الصغيرة التى تزدحم بها منضدة زينته .. بل فى استطاعتها ان تتأمل الحاجيات الرائعة وأدوات الترف المدهشة ، الفضية ، والذهبية ، التى أحضرها الفتى معه !

وقد أثر فى نفس شارل — أعمق الاثر — هذا الاهتمام الكريم الذى لقيه من زوجة عمه وابنتها .. وكان يعرف من دقائق الحياة الباريسية ما يجعله يوقن ان أصدقاءه ورفاقه القدامى ، ما كانوا ليعاملوه فى ظروفه الحاضرة بمثل هذه العناية . وقد أبرزت محنته كل عناصر الجمال الكامنة فى شخصية أوجينى ، فبدأ يعجب ببساطة المسلك الذى سلكته بالامس لتسليته . فلما تولت أوجينى بنفسها تقديم الطعام اليه بهذا الود الصريح ،

وأخذت من يد نانون آنية القشدة والقهوة لتضعها بيدها أمامه ، امتلأت عينا الفتى الباريسي بالدموع ، وحين التقت نظراتهما تناول يدها في يده وطبع عليها قبلة !

وسألته : « والآن ، ماذا بك أيضا ؟ »

فأجاب : « انها دموع الشكران ! »

فاستدارت اوجيني عنه على عجل ، وأخذت الشموع من فوق رف المدفأة ثم سلمتها الى نانون قائلة : « خذيها بعيدا . .! »

وحين استطاعت أن تنظر الى ابن عمها مرة أخرى كانت حمرة الخجل ما تزال تصبغ وجهها ، لكن عينيها على الاقل لم تشيا بالفرحة الطاغية التى غمرت قلبها .. وان كانت الافكار ذاتها قد تجاوبت فى نفسيهما وأسفرت فى عيونهما ، بحيث أدركا ان المستقبل لهما !.. وقد أفعم قلب شارل شعورا بلذة هذا القبس من السعادة الذى أضاء ظلمة حزنه العظيم !

وسمع طرق على الباب ، فهرعت المرأتان من فورهما الى مكانهما عند النافذة . وكان من حسن حظهما انهما هبطتا الى الطابق الاول فى الوقت المناسب ، بحيث وجدهما جرانديه حين دخل مكبتين على عملهما المألوف !

وبعد أن تناول وجبة منتصف النهار واقفا على قدميه ، اقبل حارس الغابة « كورنوابيه » ـ الذى لم يتسلم بعد مكافأته الموعودة ـ قادما من « فروادفون » ، وقد أحضر معه أرنبا بريا وبعض طير القطا التى اصطادها فى الغابة ، وسمكا أرسله مدير الطاحونة .. فهتف جرانديه بالحارس :

ــ اه ، أهذا أنت ياكورنوابيه ؟.. لقد أتيت فى الوقت المناسب مثل السمك الملح فى « لينت » . هل كل هذا صالح للأكل ؟.. حسنا !.. تعالى يا نانون .. خذى هذه من أجل عشاء الليلة فسوف يحضر السيدان كروشو

فتحت نانون عينيها دهشة وحدقت فى الرجلين لحظات ، ثم قالت :

ــ من أين نأتى بالاعشاب وشحم الخنزير ؟

فقال جرانديه ، مخاطبا زوجته :

ــ اعطى نانون ستة فرنكات ، وذكرينى كى أهبط الى المخزن لأحضر زجاجة من النبيذ الجيد !

واذ ذاك قال الحارس وقد تاق الى تقرير مصير مرتبه : « مسيو جرانديه ، والآن . . . »

فقطع كلامه قائلا : « اعرف ما تريد أن تقول . انك رجل طيب ، وسوف ننظر فى الامر غدا ، فانى جد مشغول اليوم ! »

ثم أضاف وهو يخاطب زوجته : « اعطيه خمسة فرنكات ! »

وتنفست المرأة الصعداء . سر المسكينة أن تشترى السلام بأحد عشر

فرنكا . وكانت قد تعلمت بالتجربة ان جرانديه يقضي بضعة أيام هادئا بعد أن يفلح في جعلها تبدد بضعة الفرنكات التي أعطاها اياها من قبل ، فرنكا في اثر فرنك !.. فقالت وهي تدس في يد الحارس عشرة فرنكات :

ـ اليك ياكورنواييه .. سوف نكافئك على خدماتك يوما من الايام !

ولم يجد الرجل في جعبته ردا حاضرا فانصرف !

وقالت نانون ، وقد أرتدت قبعتها السوداء ووضعت السلة في ذراعها : « سيدتي .. تكفي ثلاثة فرنكات ، فاحتفظي بالباقي ، سأدبر شراء كل الحاجيات بثلاثة فرنكات ! »

فقالت أوجيني : « احرصي على أن تعدي لنا عشاء طيبا يا نانون .. فان ابن عمي سوف ينزل ليتعشى معنا ! »

وقالت مدام جرانديه لابنتها : « هناك شيء غريب جدا يجري في هذه الايام .. هذه هي المرة الثالثة منذ زواجنا التي يدعو فيهـا أبوك أحدا لتناول الطعام ! »

وكانت الساعة قد قاربت الرابعة بعد الظهر ، فوضعت أوجيني وأمها غطاء المائدة وأعدتا الاطباق من أجل ستة أشخاص .. وأحضر رب البيت زجاجتين أو ثلاثا من النبيذ المعتق من القبو !

ودخل شارل قاعة الطعام شاحب الوجه سـاهما . وكانت في حركاته ووجهه ونظراته ونبرات صوته جاذبيةتدعو الى الاشفاق . كانحزنه عميقا أضفى عليه المظهر المثير لفضول النساء واعجابهن !.. وقد أحبته أوجيني أكثر من الماضي لأن وجهه كان يمزقه الالم . وربما تكون هذه المحنة قد زادتهما قربا من وجوه أخرى ، اذ لم يعد شارل ذلك الشاب الفني الانيق الذي يعيش في جو من البذخ يفوق الجو الذي تعيش فيه ابنة عمه .. وأكثر من هذا كان يعاني محنة رهيبة جعلت حزنه العميق يزيده قربا الى أوجيني .. والنساء كالملائكة يبسطن حمايتهن على الحزانى والمعذبين !

وقد فهم شارل واوجيني أحدهما الآخر دون أن يتبادلا كلمة !.. ان الفتى المتأنق الذي سقط بالامس من حالق فصار يتيما مسكينا يجلس في ركن الغرفة هادئا ذليلا .. وكان اذ تلتقي عيناه بعيني ابنة عمه ، وتستقر نظرتها الرحيمة المحبة على محياه ، لايسعه الا أن يجاهد نفسه ليخفف من تعبير وجهه الكئيب الحزين ، وليتطلع واياها الى مستقبل حافل بالآمال !

وقد أحدث نبأ المأدبة التي يقيمها جرانديه من الضجيج في سـومور أضعاف ما أحدث نبأ صفقة بيع محصول كرومه ، تلك الصـفقة التي انطوت على جريمة بل خيانة عظمى ضـد جميع زراع الكرومَ !.. لكن جرانديه أحس انه. فوق الرأى العام في هذه البلدة التي يستغلها اقبح استغلال ، وقد كان لايأبه لرأى أهلها فيه !

وكان آل دي جراسـان قد سـمعوا بنهـاية وليم جرانديه المفجعة وافلاسه ، فاعتزموا أن يزوروا أخاه في ذلك المساء ليواسـوه ويظهروا

شعورهم الودى نحوه .. وفى الوقت نفسه كانوا يسعون الى اكتشاف الدوافع التى تجعل الرجل يدعو آل كروشو للعشاء فى ظرف مثل هذا !

ولم يحل الموعد المحدد حتى كان القاضي دى بونفون وعمه مسجل العقود ، يطرقان باب الدار وقد ارتديا أحسن ثيابهما فى هذه المرة . ولما جلس الجميع الى المائدة بدآ بمهاجمة الوان الطعام بشهية عظيمة ، بينما لاذ شارل بالصمت واحتفظ جرانديه بوقاره المعهود . أما أوجينى وأمها فكانتا معتدلتين فى الكلام .. وعلى أية حال كان جو المأدبة كئيبا مقبضا أشبه بجو المآتم والجنازات .. وحين نهض الجميع من المائدة قال شارل مخاطبا عمه وزوجة عمه :

— هل تسمحان لى بالانسحاب ؟.. ان لدى خطابات طويلة ومعقدة على أن أكتبها !

فقال له عمه : « كما تشاء يا ابن الاخ ! »

وحين ترك شارل الحجرة ، واطمأن عمه الى استغراقه فى كتابة خطاباته ، حدج الرجل زوجته بنظرة شزراء وقال لها :

— ان ما سنتكلم فيه الآن قد يستعصى على فهمك ، وقد حان وقت ذهابك الى فراشك

ثم قبل أوجينى قائلا لها : « طابت ليلتك » .. فانصرفت مع أمها

وبدأت المأساة ! .. فأظهر جرانديه اقصى ما حذق من الفطنة والمكر اللذين اكتسبهما بطول المران والتمرس بالناس والحوادث ، واللذين استحق من أجلهما لقب « الثعلب العجوز » بين أولئك الذين عضهم بنابه !.. ولو سمت أطماع عمدة سومور السابق ، أو لو شاء له الحظ أن ينشأ فى بيئة اجتماعية اعلى وهيأت له الظروف حضور مؤتمرات من تلك التى تتقرر فيها مصائر الشعوب لجنت فرنسا خيرا كثيرا من عبقريته التى اختص بها أمورا ذات آفاق خاصة محدودة !

على ان صانع البراميل الهمام لو انتقل من سومور لفقد شخصيته واضحى انسانا تافها ، فان الاذهان — مثل بعض أنواع النبات والحيوان — تصاب بالعقم اذا نقلت الى جو وتربة غير اللذين ألفتهما !

وابتدر المضيف ضيفه الشاب قائلا بلهجته المتقطعة التى تجمع بين الفأفأة والتأتأة

— سيدى القاضي ، كنت تقول ان الافلاس ..

وهنا كان الضيق قد بلغ حده بالضيفين بحيث ارتسمت على وجهيهما تقطيبة غير ارادية وراحا يحركان شفاههما كأنما يريدان اكمال الكلمات التى تقطعت بالرجل سبل اتمامها !

والواقع أن جرانديه كان يتظاهر بذلك كما يتظاهر بالصمم ، لكن الناس لطول عهدهم بهاتين العاهتين فيه كانوا يحسبونهما طبيعيتين فيه !

ولهذا التظاهر قصة طريفة ، فقد حدث يوما أن هزمه ــ برغم فطنته ــ يهودى ماكر فى احدى المساومات ، وفطن جرانديه فيما بعد الى أن سبب هزيمته تلك أن اليهودى تظاهر بالصمم فاستدرجه بذلك الى اكمال عباراته الناقصة والاجابة عن أسئلته المطروحة ، فأخذ جرانديه عنه هذه الحيلة منذ تلك الساعة ..!

ولم يشعر جرانديه بأنه أحوج ما يكون الى تلك الحيلة كما شعر بذلك وهو يتحدث فى بيته مع السيدين كروشو ، فقد أراد أن يلقى عبء آرائه ومقترحاته عليهما بحيث يوحيان اليه بالخطط التى تكون غائبة عن ذهنه أو ادراكه ، بينما يظل هو محتفظا بفرصة التفكير فى رد أو حيلة للخروج من المأزق !

واستطرد جرانديه مخاطبا ضيفه القاضى :

ــ مسيو دى بونفون ..

وكانت هذه ثانى مرة خلال ثلاث سنوات يخاطب فيها الرجل أصغر أفراد أسرة كروشو بلقب مسيو دى بونفون،بحيث كان يحق للقاضى الشاب أن يعتبر ذلك بشيرا بقرب صيرورته صهرا له ، وعلى هذا أرهف سمعه ، ومضى جرانديه فقال :

ــ كنت تقول انه فى حالات خاصة يمكن ايقاف اجراءات اشهار الافلاس بواسطة ....

فأجابه مسيو دى بونفون وقد أدرك ما ينوى أن يقول :

ــ بواسطة اللجوء الى المحكمة التجارية ، هذا أمر يحدث كل يوم..وعند ما يكون المفلس شخصا ذا مكانة فى الأوساط المالية وحظـــوة لدى الكبراء والبارزين ، مثل أخيك المرحوم..وحين يصبح اشهار افلاسه أمرا محتوما، تملك المحكمة التجارية أن تعين أشخاصا يتولون تصفية ماله وما عليه .. والتصفية غير اشهار الافلاس ، أتفهمنى ؟. فالثانى عار مزر بالتاجر أما الاولى فلا غبار عليها البتة !

ــ انها أمر مفضل ، اذا لم تكن تكاليفها اكثر ؟

ــ انالتصفية يمكن اجراؤها بصفة خاصة بغيرلجوء الى المحكمة التجارية .. والآن دعنى أسألك : كيف يشهر افلاسالتاجر ؟

ــ نعم كيف ؟.. انى لم أفكر قط فى هذا الامر

ــ أولا ، قد يحرر التاجر التماسايودعه قلم كتاب المحكمة ، ثم يسحبه بنفسه أو ينيب عنه من يفعل ذلك ، ويسجل ذلك..أويشهر دائنوه افلاسه .. ولكن فلنفرض ان المدين لم يكتب التماسا ، ولم يتقدم أحد من دائنيه الى المحكمة طالبا اشهار افلاسه ، فلنر ما يحدث عندئذ ...

ــ نعم ، لنر ما يحدث !

ــ فى هذه الحالة تصفى أسرة الميت ، أو ممثلوه ، أو هو نفسه اذا لم يكن

قد مات ، أو أصدقاؤه اذا كان قد لاذ بالفرار .. يصفى واحد من هؤلاء أموال التاجر . والآن لعلك تبغى أن تفعل ذلك فى حالة أخيك ؟

فقال مسجل العقود :

ـ هذا يكون تصرفا غاية فى النبل منك يا جرانديه !.. اننا فى الاقاليم لنا نزعاتنا التى تقدس الشرف . فاذا أنقذت اسم أخيك من العار فانك تنقذ اسمك فى الوقت نفسه ، وفى هذه الحالة يعتبر تصرفك ساميا

وهنا قال جرانديه : « الواقع ان اسم أخى كان جرانديه ، لست أنكر ذلك ، وعلى أى حال فان التصفية تكون عملا طيبا بالنسبة لابن أخى من جميع الوجوه ، وأنا شغوف به جدا . لكننا سوف نرى ، فانى لا أعرف شيئا عن محتالى باريس ، وأنا لم أقبل فى حياتى كمبيالة أو أضع اسمى على ورقة . وقد سمعت أن فى الامكان شراء الكمبيالات ؟

ـ نعم ، فى وسعك أن تشتريها فى الاسواق ، نظير نسبة مئوية معينة . هل تفهم ما أعنيه ؟

وهنا وضع جرانديه يده على أذنه متظاهرا بالصمم ، فاضطر محدثه الى ان يكرر العبارة ، وعندئذ أجابه :

ـ ولكن يبدو أن لكل شىء من ذلك محاسنه ومساوئه .. وفى سنى هذه لا أعرف شيئا عن الموضوع وينبغى أن أكف عن أى شىء آخر لأعنى بالكروم ، فهى لا تتوقف عن النمو ، ويجب أن يكفى ثمن الثمار لتسديد كل شىء . ان الكروم ينبغى أن تلقى العناية اللازمة قبل أى شىء آخر . وفى يدى من الاعمال فى فروادفون مالا أستطيع تركه لأى شخص غيرى . وأنا لا أفهم شيئا من كل هذه الامور وليس فى وسعى ترك مقر عملى لاتولاها ، فأنت تقول اننى لكى أحصل على التصفية ينبغى أن أكون فى باريس ..

فصاح مسجل العقود : « فهمت غرضك .. وأنا أقول لك بدورى ان وراءك أصدقاء مخلصين تستطيع أن تركن اليهم عند الحاجة . واذا توجه أحدنا الى باريس ، ووجد أكبر دائنى أخيك وليم ، وقال له ... »

فقطع جرانديه كلامه قائلا : « اصغ الى لحظة !. ينبغى لمن يذهب فى هذه المهمة أن يذكر لذلك الدائن اننى أحب أخى وأفكر فى مصلحة ابنه ، وفى شؤون أسرته كلها .. ومن ثم لن أتخلى عنهم ، ولقد بعت أخيرا محصول كرومى بسعر لابأس به . وعلى هذا يجب وقف اجراءات اشهار الافلاس ، ثم عقد اجتماع من الدائنين وتعيين المصفين للتركة فى انتظار اتفاق ودى معى هو خير ألف مرة من ترك المحامين يدسون أنوفهم فى الموضوع !.. هذا ما ينبغى أن يقال ! »

فأومأ القاضى موافقا واستطرد جرانديه فقال :

ـ ان الانسان ينبغى أن ينظر الى موضع قدمه قبل ان يخطو ، وهو لا يستطيع أن يفعل أكثر مما فى وسعه .. وقضية خطيرة مثل هذه تتطلب

عناية فائقة والا جلبت على القائمين بها الدمار .. أليس كذلك ؟

فقال القاضي : « نعم .. وفى رأيي انك خلال بضعة أشهر سوف تستطيع شراء الديون بمبلغ محدد يدفع على أقساط .. ان فى مقدورك أن تجر الكلب مسافة طويلة بالتلويح له بقطعة من الشحم . وحين لا يشهر الافلاس تغدو سمعتك عقب حصولك علىالكمبيالات ناصعة كالثلج !.. وأنا أعتقد انك تستطيع شراء ديون أخيك بربع قيمتها ! فاذا أردت أن تجنب نفسك كل تعب ففى وسعى أن أسافر أنا الى باريس نيابة عنك ، وهناك أقابل الدائنين وأتحدث اليهم وأدبر الامر معهم .. على أن تكون أنت مستعدا لان تضيف مبلغا بسيطا الى قيمة التصفية كى تحصل على الكمبيالات ! »

فقال جرانديه : « سوف نرى !.. انى لا أستطيع أن أتخذ أية خطوة مالم أعرف ... ان المرء لا يقدر أن يفعل أكثر مما فى طاقته وأنا حائر فى فهم كل هذه الآراء !.. انها أول مرة فى حياتى أضطر فيها للتفكير فى أمر كهذا .. لذلك ينبغى أن تدع لى فرصة لتدبر الامر ، فانى زارع كروم فقير ولا خبرة لى بهذه الشؤون ! »

وهنا قال مسجل العقود مخاطبا ابن اخيه القاضى :

ـ دع مسيو جرانديه يفكر فى الامر بروية . انها مسألة خطيرة،وما عليك انت الا أن تتلقى تعليماته فى صددها ..

وهنا سمع طرق على الباب ينبىء بوصول آل دى جراسان ، فحال وصولهم وتبادلهم التحيات مع الموجودين بين مسجل العقود وبين اتمام عبارته .. وقد رحب هو بهذه الفرصة للاستراحة من عناء النقاش مع البخيل ، ولا سيما انه كان قد لاحظ على هذا بوادر اختلاج شفتيه الذى ينبىء باختمار عاصفة فى جوفه .. وبامعان كروشو فى تبصر الامر فى فترة « الاستراحة » وصل الى نتيجة مؤداها أنه ليس من الصواب تكليف ابن أخيه بمهمة السفر الى باريس ومفاوضة الدائنين وغير ذلك من الامور التى لا تتفق ووقار منصبه .. الى ما تبينه من كلام جرانديه مما ينم عن انه لا يعتزم الانفاق بسخاء على هذه المهمة .. وهكذا انتهز كروشو فرصة دخول الضيوف الجدد وجذب ابن أخيه القاضى من ذراعه الى جوار النافذة حيث همس له :

ـ انك قد تماديت فى اظهار استعدادك للاضطلاع بهذه المهمة ، بحكم لهفتك على الزواج من الفتاة .. يا للشيطان ! انك لا ينبغى أن تندفع فى أمر كهذا ببلاهة الغراب المفتوح الفم حين يندفع نحو شجرة الجوز ! .. دع لى قيادة السفينة فترة ووجه شراعك حسب اتجاه الريح .. والآن عليك أن تلعب دورك بما لا يتنافى مع منصبك وكرامة القضاء !

وتوقف كروشو عن الكلام فجأة اذ سمع مسيو دى جراسان يقول لمضيفه وهو يمد اليه يده :

ـ لقد سمعنا بأمر الخطب الرهيب الذى حل بأسرتك ، وافلاس مؤسسة

أخيك المسيو وليم جرانديه ووفاته .. وقد جئنا لنعبر لك عن أسفنا ومشاركتنا لك في مصابك الاليم

وهنا تدخل مسجل العقود في الحديث قائلا : « لو أن المسيو وليم جرانديه لجأ الى أخيه الاكبر ملتمسا مساعدته لما أحوجه الامر الى الانتحار . وها هو ذا صديقنا النبيل الشريف يتأهب لتصفية ديون أخيه المرحوم .. ولكي نجنب صديقنا عناء ما هو من اختصاص رجال القانون تطوع ابن أخي بوصفه قاضيا للسفر فورا الى باريس لمفاوضة الدائنين والوصول الى اتفاق معهم ! »

وأجفل آل دي جراسان الثلاثة لدى سماع هذا النبأ ، بينما بدا الارتياح على جرانديه ، الذي راح يفرك ذقنه بيده . وكان أفراد أسرة جراسان الثلاثة قد خاضوا أثناء قدومهم الى منزل جرانديه في الحديث عن بخله الشديد ، حتى لقد اتهموه بأنه سبب انتحار أخيه . على أن كبيرهم رجل المال ما كاد يسمع ذلك النبأ من مسجل العقود حتى هتف بزوجته قائلا :

ــ هذا ما توقعته !.. ألم أقل لك منذ هنيهة ان جرانديه لايمكن أن يحيد عن سبيل الشرف قيد أنملة ؟.. وانه لن يرضى قط بأن يلطخ اسمه بأية شائبة !.. ان المال مع فقد الشرف يستحيل الى مرض عضال . ونحن هنا في الاقاليم نقدر قيمة الشرف ونلتزم طريقه . ولهذا لا يسعنا الا أن نهنىء مواطننا العظيم جرانديه على هذا التصرف الدال على النبل والسمو !

ثم صافح جرانديه في حرارة وحماسة مكررا له التهنئة ، فقال هذا :

ــ لكن هذا التصرف سوف يكلفني كثيرا !

فاستطرد المالي دي جراسان قائلا :

ــ هذه يا عزيزي مسألة لها حديث آخر .. انها تحتاج ــ مع احترامي لصديقنا العزيز حضرة القاضي ــ الى رجل أعمال محنك حتى لا يكلفك نفقات لا داعي لها . وأنا ذاهب الى باريس لاعمال خاصة بي وفي وسعي أن أتولى ...

فقطع جرانديه كلامه قائلا : « سوف نرى ما ينبغي عمله في هذه المسألة .. انني لا أريد أن أزج بنفسي في عمل لا خبرة لي به ، وقد عرض سيدي القاضي أن يسافر الى باريس للاضطلاع بهذه المهمة على أن أدفع له نفقات السفر والاقامة ... »

وهنا تدخلت مدام دي جراسان في الحديث قائلة :

ــ انها لمتعة أن يقيم المرء بباريس بضعة أيام .. وانه ليسرني أن أذهب أنا الى العاصمة على نفقتي الخاصة ..!

وأشارت المرأة الى زوجها اشارة تستحثه بها على انتهاز الفرصة لقهر خصومهم والاضطلاع بالمهمة دونهم !.. ثم القت نظرة على السيدين كروشو اللذين بدا عليهما القلق ازاء هذه المنافسة الخطيرة . وانتهز جرانديه الفرصة

فجذب رجل المال من سترته الى ركن قصى وقال له :
ــ انى اثق بك اكثر من ثقتى بالقاضى .. ثم انى اريد أن أستثمر بضعة آلاف من الفرنكات فى صكوك الدين ، على الا ادفع أكثر من ثمانين الفا .. وأنت طبعا خبير فى هذه الامور
ــ فى وسعى أن اشترى لك من الصكوك ما قيمته بضعـــة آلاف من الجنيهات
ــ هذا يكفى ، فى البداية .. لكنى اريد ان اعقد هذه الصفقة دون أن يعلم بأمرها أحد .. فلتشترها لى فى نهاية الشهر ولا تقل عنها شيئا لآل كروشو، فان ذلك سوف يضايقهم .. وما دمت ذاهبا الى باريس فيمكنك الاضطلاع بتلك المهمة أيضا من أجل ابن أخى المسكين !
فقال دى جراسان بصوت مسموع :
ــ حسنا !. سأسافر الى باريس غدا ، فمتى أتلقى تعليماتك ؟
ــ فى الساعة الخامسة بعد ظهر اليوم
وسكت الفريقان المتنافسان ، ثم قطع دى جراسان حبل الصمت مرة أخرى قائلا وهو يربت كتف جرانديه :
ــ انه لمن الممتع أن يكون للمرء عم فى مثل هذا النبل !
فقال جرانديه : « نعم ، انى ولا فخر عم طيب !.. لقد أحببت اخى وها أنذا سأثبت ذلك ، اذا لم يكلفنى الامر ... »
ومن حسن حظه أن جراسان قطع كلامه قائلا :
ــ ينبغى أن نذهب يا جرانديه ، فان سفرى قبل الموعد الذى كنت قد حددته يضطرنى الى انجاز بعض الاعمال الآن
ــ الحق معك .. وأنا نفسى يجب أن اتدبر الامر بعناية كما قال حضرة القاضى !
وهنا حدث القاضى نفسه فى اكتئاب :
ــ لعنة الله عليه !. انه لم يعد ينادينى بلقب مسيو دى بونفون !
وخرج عميدا الاسرتين المتنافستين فى وقت واحد ، وقد نسى كلاهمـا جريمة جرانديه التى اقترفها فى الصباح . ثم سأل دى جراسان غريمه مسجل العقود :
ــ هل أنت ذاهب معنا الى دار مدام دورسنفال ؟
فأجابه القاضى : « سوف نذهب الى هناك فيما بعد ، أما الآن فسنذهب ــ باذن عمى ــ لنرى الآنسة دى جريبوكور ، فقد وعدت بالمرور عليها كى أقرئها تحية المساء »
فابتسمت مدام دى جراسان وقالت :
ــ اذن فسوف نلتقى ثانية ..

ولم يكد يبتعد آل جراسان حتى قال أدولف دى جراسان لابيه :
ــ انهم فى مأزق حرج !
فأجابته أمه :
ــ صه ، فقد يسمعوننا . . ثم أن هذه الملاحظة لا تنم عن ذوق سليم !
وفى الوقت نفسه كان القاضى يقول لعمه مسجل العقود :
ــ أرأيت يا عمى ؟ لقد بدأ الجلسة وهو يناديني بلقب مسيو دى بونفون، ثم انتهت وهو يلقبني بحضرة القاضى !

فقال له عمه : « لقد لمحت مضايقتك من هذا الامر على وجهك . . والواقع ان دى جراسان حصد ما زرعناه ! . . ولكن ، لا تقلق يابنى ، فلن تتزوج أوجينى سواك ! »

وبعد دقائق لم يكن للمدينة حديث الا عن كرم جرانديه ونبل حبه لاخيه . . ونسيت فعلة اجترائه على بيع كرومه مخالفا الشروط المتفق عليها ، واخلاله بواجب التضامن مع الزراع !

أما جرانديه نفسه فلم يكد ضيوفه يخرجون حتى نادى نانون وقال لها : « حذار أن تلوذى بفراشك ، أو تحلى وثاق الكلب ! . . هناك شىء ينبغى أن يعمل ويجب أن نعمله معا . سوف يحضر كورنوايبه بالعربة من فروادفون فى الساعة الحادية عشرة ، فعليك أن تسهرى فى انتظاره ، وتدعيه يدخل فى هدوء دون أن يحدث صوتا ، والا أدخلت نفسك فى مشاكل !. ثم انى لا أريد أن يعرف الحى كله انى سأخرج ! »

ثم مضى جرانديه الى معمله ، وسمعت نانون حركته وهو يذرع الحجرة ذهابا وجيئة فى حذر شديد !



كنز فى مقابل كنز

حرص جرانديه على الا يوقظ زوجته وابنته ، والا يثير الشكوك فى ذهن ابن أخيه ، وبخاصة انه عرف من الشمعة الموقدة فى غرفة الشاب انه ما يزال مستيقظا !

وفى منتصف الليل سمعت أوجينى صوتا يشبه حشرجة شخص يحتضر . وكان ابن عمها ماثلا على الدوام فى ذهنها ، فخيل اليها أنه هو الذى يحتضر . أو لم يبد شاحبا يائسا وهو يحييها تحية المساء ؟ لا بد انه قتل نفسه !.. ومن ثم تدثرت بأقرب رداء واعتزمت أن تذهب لتكشف جلية الامر . وأزعجها أن تجد الضوء يتسلل الى غرفتها من تحت الباب .. لعل البيت يحترق ؟ .. لكنها اطمأنت حين سمعت خطوات نانون الثقيلة فى الخارج ، وصوتها مختلطا بصهيل عدد من الجياد ، فسألت نفسها : « ترى أيمكن أن يكون أبى معتزما أخذ شارل الى مكان آخر ؟ » وفتحت الباب بحــــذر ، خشية أن يحدث صريرا يفسد تجسسها على ما يجرى فى الردهة .. وفجأة التقت عيناها بعينى أبيها ، فسرت فى جسدها قشعريرة باردة . كان جرانديه ونانون قادمين يحملان برميلا ثقيلا ارتكز كل من طرفيه على كتف أحدهما اليمنى . وقالت نانون هامسة :

— لكم هو ثقيل يا سيدى !

فقال لها : «حذار أن تصدمى الشمعدان فيقع ! » .. ثم قال محدثا حارسه : « كورنوايه .. هل معك مسدسك ؟ »

فأجاب الحارس : « كلا ياسيدى .. وماذا نخشى ونحن لانحمل غير برميل ملىء بالاوانى النحاسية ؟ وفضلا عن ذلك سوف نطوى المسافة سريعا ، فلقد اخترت لسيدى أحسن الجياد ! »

— حسنا ! هل ذكرت لاحد الى اين انا ذاهب ؟

— لست أعرف ذلك انا نفسى !

— هذا صحيح .. وهل العربة متينة البناء ؟

— نعم يا سيدى !. وانها لقديرة على حمل الفين أوثلاثة آلاف من هذه البراميل التافهة !

فقالت نانون مستنكرة : « تافهة ؟.. انها ثقيلة الوزن جدا ! »

فهتف بها سيدها : « نانون ، صونى لســـانك .. ولا تنسى أن تقولى

لزوجتى انى قد ذهبت الى الريف،وانى سأعود للعشاء. أسرع ياكورنوايبه، فينبغى أن نصل الى انجير قبل الساعة التاسعة ! »



وبدأت العربة سيرها ، وأغلقت نانون البوابة الكبرى ، وأطلقت الكلب من عقاله ، ثم أوت الى فراشها ونامت برغم آلام كتفها التى حملت عليهـا البرميل !

ولم يساور أحدا من أهل الحى أى شك فى شأن رحلة جرانديه وهدفها . كان الرجل معجزة من معجزات التكتم والاتزان . وقد علم فى الصباح من ثرثرة القوم أن الذهب نادر فى « نانت » بحيث أنه يساوى هناك ضعف قيمته العادية ، وان المضاربين يشترونه فى « انجير » .. ومن ثم ملأ برميلا من ذهبه وحمله الى هناك ليبيعه بثمن مرتفع !

وحدثت أوجينى نفسها وقد سمعت كل ما جرى من حوار وهى واقفة عند قمة السلم : « ان أبى يتأهب للخروج ! » .. وساد الصمت ارجاء البيت مرة أخرى ، وابتعد صوت عجلات العربة فى شوارع سومور النائمة ، حتى اختفى عن الاسماع تماما .. وعندئذ بلغ قلب أوجينى – قبل أن يقع فى سمعها – صوت نحيب خافت منبعث من حجرة ابن عمها فى الطابق العلوى . وكان ينبعث من أسفل بابه خيط دقيق من الضوء ينير الظلام فى السلم .. فهمست أوجينى لنفسها : « انه شقى ! » .. وصعدت درجات من السلم ، واذ ذاك بلغ سمعها أنين جديد ، فواصلت الصعود . وفتحت الباب فوجدت شارل نائما فى المقعد الكبير وقد سقط رأسه الى جانبه ، وسقطت يده بحيث كادت تلامس الارض ، وانفلتت منها الريشة التى كان يكتب بها فاستقرت تحت أصابعه .. وتتابعت أنفاسه وشهقاته سريعة حادة بحيث أزعجت أوجينى ، فدخلت مسرعة !

وقالت لنفسها وقد وقع بصرها على حزمة من الخطابات المغلقة موضوعة فوق المنضدة : « لا بد أنه مضنى من التعب ! » .. وراحت تقرأ عناوين الرسائل : « السادة فارى ، بريلمان وشركائهم – بناة عربات » .. « مسيو بواسون ، ترزى » وهكذا ...

وقالت لنفسها : « انه كان يرتب أموره بلا شك ، كى يغادر فرنسا بأسرع ما يستطيع » .. ووقعت عيناها على رسالتين غير مغلقتين ، تبدأ الاولى منهما بهذه العبارة : « عزيزتى انيت » .. وأحست الفتاة بدوار لم تستطع معه أن تمضى فى القراءة،وتلاحقت دقات قلبها،وسمرت قدماها فى الارض !

عزيزته انيت ؟.. اذن فهو عاشق ، ومعشوق ؟.. واذن فلا أمل !.. ولكن ماذا يقول لها ؟.. تتابعت هذه الخواطر على قلبها وعقلها بسرعة البرق، فرأت العبارة مكتوبة فى كل مكان : على الجدران ، والسقف ، والارض ..

بأحرف من نار!.. « هل ينبغي أن أستسلم ؟. كلا !. لن أقرأ بقية الخطاب. يجب الا أبقى هنا .. ومع ذلك، فحتى لو قرأته ؟ » .. ونظرت الى شارل، وأخذت رأسه برفق بين راحتيها على ظهر المقعد، فأطاعها مستسلمـــا كالطفل الذي يدرك حتى وهو نائم أن أمه هي التي تحدب عليه، ودون أن يستيقظ يحس بقبلاتها ويستمرئها !.. وهكذا، مثل الام، رفعت أوجيني ذراعه الملقاة .. ومثل الأم طبعت قبلة رقيقة على شعره .. وصرخ في سمعها صوت ساخر « عزيزتي أنيت » .. فمضت تحدث نفسها: « أعلم اني أرتكب خطأ، لكني سأقرأ الخطاب ! »

وأدارت أوجيني عينيها بعيدا،ان احساسها بالشرف ينحي عليها باللائمة، ولاول مرة في حياتها ينشب في نفسها صراع بين الخير والشر !.. فهي لم ترتكب قبل اليوم شيئا تخجل منه. لكن الحب والفضول ما لبثا أن أخرسا صوت ضميرها، فشرعت تقرأ، ومع كل عبارة كانت دقات قلبها تسرع وكأنها ترسل لهبا في عروقها وتشعل انفعالات حبها الاول:

« عزيزتي أنيت ..

« لا شيء كان في استطاعته أن يفرق بيننا سوى هذه الكارثة المروعة التي دهمتني، وهي كارثة لم يكن في وسع أبعد الناس نظرا أن يتنبأ بها. لقــد قتل أبي نفسه بيده، بعد أن فقد ثروته وثروتي الى غير رجعة !.. وتركني يتيما في سن أعتبر فيها – في ظل التربية التي تلقيتها – لا أزال طفلا .. ومع ذلك صار لزاما علي أن أظهر بمظهر الرجل، وأن أنهض من الهوة السحيقة المظلمة التي ألقيت فيها. لقد انفقت جانبا من وقتي الليلة في تدبير الخطط من أجل مستقبلي. فاذا قدر لي أن أغادر فرنسا رجلا شريفا – كما أعتزم – فلأني لا أملك حتى المائة فرنك التي تمكنني من السفر لتجربة حظي في جزر الهند أو في أمريكا. نعم اني ذاهب لابحث عن الثروة في أقسى المناطق الاجنبية جوا وطقسا .. فتحت تلك السماوات – فيما يقال – يستطاع جمع الثروات بسهولة وسرعة. أما مواصلة العيش في باريس فذلك ما لم أستطع توطين نفسي عليه .. فلست أستطيع مواجهة الفتور والتحدي، والاحتقار وكل ما يلاقيه شاب محطم ابن تاجر مفلس !.. يا للسماء !.. اني لو فعلت لاشتبكت في مبارزة قبل انقضاء أسبوع .. لذلك لن أعود الى باريس .. لن يجذبني اليها حتى حبك – أرق وأعظم ما انطوى عليه قلب انسان !

« فوداعا يا حبيبتي. لست أملك المال الكافي كي أحضر اليك، لاعطيك وأتلقى منك قبلة واحدة أخيرة، قبلة تقويني على مواجهة المهمة التي أمامي!»

وحدثت أوجيني نفسها وهي ماضية في القراءة: « مسكين شارل، لقد أحسنت بقراءة الخطاب، فعندي المال الذي يريده، وسوف يناله ! » .. ثم استأنفت القراءة:

« اني لم أفكر بعد في متاعب الفقر. ولو فرض اني وجدت المائة فرنك

لنفقات الرحلة ، فلست أملك نقودا أتاجر بها . ولكن ، كلا .. لن أحصل على مائة فرنك ، ولا حتى مائة سنتيم ، فلست أعتقد أن شيئا ما سوف يبقى لي بعد تصفية ديوني في باريس .. فاذا لم يبق لي شيء فسوف أذهب الى ميناء « نانت » والتحق باحدى السفن لاعمل فيها لقاء نقلي الى غايتي . سوف أبدأ من أسفل السلم ، مثل الكثيرين غيري من الرجال النشطين الذين ذهبوا الى جزر الهند شبانا معدمين وعادوا منها رجالا أثرياء !.. وقد بدأت في هذا الصباح أواجه مستقبلي وجها لوجه ، وان الامر لاشق على منه على غيري ، فلقد كنت الطفل المدلل لام أحبتني حبا يشبه العبادة ، وأب هو أرق الآباء .. اني لم أعرف من الحياة غير طرقاتها المفروشة بالزهور ، وقد نشأت غارقا في السعادة منذ ولدت في المهد ، مدللا من أجمل امرأة في باريس ، المراة التي كانت رغباتها في نظر أبي قانونا !.. يا لابي المسكين !.. انه قد مات يا أنيت !.. ولكن دعينا من هذا الآن ولنواجه الحقائق . لقد فكرت جادا في أمر مستقبلي ، وكذا مستقبلك أنت . ولقد شخت في الاربع وعشرين ساعة الاخيرة أضعاف ما شخت طيلة السنوات الماضية من حياتي !

« عزيزتي أنيت .. حتى لو اضطررت — كي أبقى بجانبك — الى أن تتخلى عن كل الترف الذي تستمتعين به ، مقصورتك في الاوبرا ، وزينتك، فلن نجد ما يكفي لسد الضروري من نفقات الحياة التي ألفناها .. ثم اني لا أطيق التفكير في السماح لك بالاقدام على مثل هذه التضحية من أجلي .. لذلك فاننا نفترق اليوم .. الى الابد ! »

وحدثت أوجيني نفسها : « اذن فهو يكتب لها مودعا ؟ أيتها القديسة العذراء !. يا لسعادتي ! » .. وارتجفت أوجيني من فرط نشوتها وفرحتها .. وتململ شارل في نومه ، فذعرت ، لكنه لحسن حظها لم يستيقظ .. فاستأنفت القراءة :

« متى سأعود ؟.. لست ادري . ان الاوربيين يشيخون قبل الاوان في تلك الاقطار الاستوائية ، ولا سيما الذين يجهدون أنفسهم في العمل .. فلنحاول أن نتطلع الى المستقبل ونرى ما سنكون عليه بعد عشر سنوات . سوف تكون بنتك الصغيرة فتاة مكتملة الانوثة في الثامنة عشرة من عمرها .. فتصبح رفيقتك الدائمة ، أعني أنها ستصير جاسوسة عليك .. ولئن قسا الناس والمجتمع في الحكم عليك فسوف تقسو عليك ابنتك أكثر .. فهذا العقوق من جانب الفتيات أمر شائع الحدوث ! فلنأخذ حذرنا ونتعقل . ولكن رجائي اليك أن تحتفظي في أعماق روحك — كما سأفعل أنا — بذكرى هذه السنوات الاربع من السعادة الوارفة، وان تخلصي — اذا استطعت — لصديقك المسكين !. انيّ لن اطالبك بالكثير ، يا عزيزتي أنيت ، فاني كما ترين ينبغي أن استسلم لقدري المقسوم . اني مضطر لان أنظر الى الحياة بطريقة عملية ، وابني حسابي على الحقائق الجامدة وحدها . ومن ثم ينبغي أن أفكر في الزواج

كخطوة ضرورية فى حياتى الجديدة . واعترف لك بأن لى هنا ــ فى بيت عمى فى سومور ــ ابنة عم لو رأيتها لاعجبك وجهها ، وخلقها ، وقلبها ، ومسلكها .. بل أكثر من ذلك أن لها ــ فيما يبدو . . . »

وحدثت اوجينى نفسها : « لابد انه كان متعبا للغاية والا لما قطع خطابه اليها عند هذا الحد ، فى منتصف العبارة ! » وراحت تلتمس له الاعذار

كيف أمكن أن تكتشف فتاة غير مجربة مثلها فى هــذا الخطاب من فتور وأنانية ؟.. ان الفتيات اللواتى نشأن نشأة دينية مثلها هن دائما بريئات غير مرتابات ، لايرين غير الحب منذ تطأ أقدامهن الصغيرة مملكته السحرية وكأن نورا من السماء يشرق فى نفوسهن ، ويريق أشعته على طريقهن .. ويبدو لكل منهن معشوقها يتلألأ أمامها تتقاذفه أضواء المجد وتشع من اعطافه الالوان الجميلة التى أضفتها عليه أنوار الحب السحرية ، والأفكار النبيلة التى ألصقتها به !

ان أخطاء النساء تنبع أكثر ما تنبع من ايمان بالطيبة وثقة فى الصدق . وقد تجاوبت عبارة « حبيبتى انيت » فى قلب اوجينى كأروع ماتتجاوب لغة الحب الجميلة ، وأثارت فى روحها مثل موسيقى الارغن وألحان الترانيم الالهية التى وقرت فى أذنيها منذ الطفولة !

ولاشك فى ان الدموع التى لم تكن قد جفت بعد من اجفان ابن عمها قد وشت بالنبل المتأصل فى طبيعة الفتى ، الذى هو أكثر ما يجتذب قلوب الفتيات . ولكن كيف استطاعت أوجينى أن تعرف ان حب شارل لأبيه وحزنه عليه كان مرجعه الى ان الاب قد أحب ابنه أعمق الحب ، ولم يكن مرجعه حب متعمق الجذور من جانب الفتى نحو أبيه ؟

كان مسيو وليم جرانديه وزوجته قد أشبعا كل نزوات ابنهما ورغباته وكفلا له كل متعة يتيحها الثراء للانسان . وقد تلقى التربيــة البغيضة الشائعة فى عالم ترتكب فيه فى ليلة واحدة جرائم ــ بالفكر واللسان على الاقل ــ أكثر من التى تعرض على المحاكم خلال دورة كاملة !.. عالم تفنى فيه الآراء القيمة وتموت ، تقتلها الدعابة المازحة ، ويعتبر ضعفا ألا يرى الانسان الاشياء كما هى ، ومعنى رؤية الاشياء كما هى ألا يؤمن المرء بشىء ، ولايصدق شيئا أو شخصا .. اذ ليس هناك مايسمى بالاخلاص فى الرأى والعاطفة .. وخير ما تفعله ألا تصدق الحوادث ، فحتى الحوادث تصطنع أحيانا اصطناعا !.. ولكى ترى الاشياء على حقيقتها يجب أن تزن كيس نقود صديقك كل صباح ، وتعرف بوحى غريزتك اللحظة المناسبة التى تتدخل فيها لمصلحتك فى كل فرصة ربح تلوح لك .. وأن تحتفظ برأيك معلقا فلا تسارع الى التورط فى ابداء الاعجاب بعمل فنى أو تصرف نبيل !

وبعد كثير من الحماقات ، علمت « انيت » الحسناء فتاها شارل كيف يجارى المجتمع العصرى فى أساليب تفكيره . حدثته عن مستقبله وهى

تمشط شعره بأناملها المعطرة .. لقد جعلت منه فى البداية فتى مخنثا ، والآن تأخذ على عاتقها أن تجعل منه رجلا واقعيا ماديا .. فتقول له : « انك ساذج يا شارل ، ولن تكون سهلة مهمة تعليمك حقائق الحياة وأساليب العصر . لقد قسوت على مسيو دى لوبول ، وقد كان ينبغى أن تنتظر حتى يزول عنه سلطانه ونفوذه وعندئذ لك أن تحتقره كما تشاء .. أتعلم ماذا كانت تقول لنا (مدام كامبان) ؟.. انها الفت أن تقول لنا ناصحة : (يا بناتى ، ما دام الرجل وزيرا فاغمرنه باعجابكن الفائق وحبكن المكين .. فاذا سقط من منصبه فلتساهمن فى جره الى المذبح !.. انه شبه أله ما بقى متربعا فى مقعد الحكم ، أما بعد سقوطه فانه يصبح أحقر من أى انسان . ان الحياة ليست سوى سلسلة من المركبات الكيمياوية التى يجب أن تدرس وتتبع بمنتهى العناية والدقة ، اذا أراد المرء الاحتفاظ بمركزه الذى يحرص عليه !) .. »

وقد كان شارل مدللا أكثر مما ينبغى ، من جانب أبيه وأمه ، وموضعا للمداهنة والملق من جانب المجتمع الذى كان يعيش فيه ، بحيث ما كانت تثيره أية حماسة للرفعة والشموخ .. وكان فى طبيعته قليل من عناصر الخير ، مرجعها الى تعاليم أمه له ، لكن الحياة الباريسية حولت هذا العنصر الذهبى الى قشرة رفيعة على السطح سرعان ما يزول طلاؤها بملامستها أو احتكاكها !

وكان شارل فى هذه الآونة فى الحادية والعشرين من عمره .. والمقطوع به ان نضارة القلب تلازم نضارة الشباب ، بحيث يستبعد أن يختلف مافى أعماق الذهن عما يبدو فى الوجه الشاب ، والصوت اليافع ، والنظرة الصادقة البريئة . وحتى أقسى القضاة ، وأكثر المحامين تشككا ، وأفظع المرابين صرامة وتحجرا فى القلب ، يصعب عليهم أن يصدقوا ان القلب المعوج والطبيعة الملوثة يمكن أن تقطن وراء مظهر شاب وجبين ناعم وعينين سخيتين بالدموع !

لكن الفرصة لم تتح لشارل منذ ذلك الحين كى يطبق هذه التعاليم الباريسية ويضعها موضع الاختبار . ولكن ، دون وعى منه ، تعمقت جذورالانانية فى طبيعته ، وبذرت بذور الاقتصاد السياسى المهلك فى قلبه .. ولم تعد فى حاجة الى غير الزمن كى تترعرع وتزدهر ، حين ينتقل من دور المتفرج العاطل الى دور الممثل المشترك فى مأساة الحياة الواقعية !

والفتاه الشابة تكون غالبا على استعداد دائم لأن تصدق ، دون ارتياب أو امتحان ، مايدل عليه المظهر الخلاب . ولكن حتى لو كانت لاوجينى مثل فطنة فتيات الاقاليم وحذرهن فكيف كانت ترتاب فى ابن عمها ، فى حين ان كل ما فعله وقاله ، وكل ما يتصل به ، بدا لها ثمرة من ثمار طبيعة نبيلة ؟ !

ان القدر قد جمع بينهما فى هذا الظرف ، الذى هو آخر فرصة يعبر فيها الشاب عن شعوره الحقيقى ، وآخر وخزة ضمير فى حياة شارل . ولسوء حظ الفتاة ان فجيعته أيقظت عاطفتها وأثارت مشاعرها .. !

وهكذا وضعت الفتاة الخطاب الذى قرأت فيه تلك العبارات المفعمة بالحب ، واستمرأت لذة مراقبة ابن عمها النائم ، وقد رفت على وجهه أحلام الشباب وآماله .. وأخذت تعد نفسها بين حين وآخر بأنها سوف تحبه على الدوام .. وحانت منها نظرة الى الخطاب الآخر ، فحدثت نفسها بأن لا ضرر البتة فى أن تقرأه بدوره ، لتتزود بأدلة جديدة على الصفات النبيلة التى الصقتها بشارل منذ تعلق قلبها بشخصه ! .. وكان الخطاب كما يلى :

« عزيزى الفونس

« فى الوقت الذى تقرأ فيه هذا الخطاب لن يكون قد بقى لى من أصدقائى أحد .. لكنى سأعترف لك بأننى برغم عدم ثقتى بذوى العقلية العصرية الذين يستخدمون هذه الكلمة بكثرة ، فانى لست أشك فى صداقتك لى .. لذلك أكلفك اليوم ان تقوم بتدبير بعض أمورى ، راجيا أن تعمل كل ما فى وسعك من أجلى فى هذا الشأن ، فان كل ما أملك فى هذه الدنيا يتوقف عليه .. وسأصارحك بحقيقة موقفى . انى لم أعد أملك شيئا وقد استقر عزمى على الذهاب الى الهند ، وقد كتبت الآن الى كل من لهم ديون على ، ومرفق بهذا قائمة بأسمائهم وديونهم بقدر ما أسعفتنى الذاكرة . وأعتقد ان بيع كتبى والاثاث والعربات والجياد وسواها ينبغى أن يدر من المال مايكفى لتسديد ديونى الشخصية . والشيء الوحيد الذى سأحتفظ به هوبعض الحلى القليلة القيمة التى أزمع الانتفاع بها فى تجارتى .. وسأرسل لك توكيلا قانونيا كى تتولى ياعزيزى الفونس أعمال البيع دون صعوبة ما .. ورجائى اليك أن ترسل بنادقى وكل الاشياء التى من هذا القبيل الى هنا . ولك أن تأخذ جوادى الخاص (بريتون) فان أحدا لن يدفع لى ثمنا يساوى قيمة هذا الحيوان البديع ، لذلك أفضل ان اعطيه لك : ويمكنك أن تعتبره بمثابة خاتم الحداد الذى يوصى به الميت لمنفذ وصيته !.. وكنت قد أوصيت مصانع (فارى بريلمان) بأن تصنع لى عربة سفر فاخرة ، لم ترسل الى بعد ، فعليك أن تتصل بهم كى يحتفظوا بالعربة ويتصرفوا فيها لحسابهم ، فاذا رفضوا فيمكنك أن تدبر الامر معهم بأفضل شروط لمصلحتى ، وافعل كل ما فى وسعك لانقاذ شرفى فى الوضع الذى أنا فيه . ولقد خسرت ستة ريالات فى اللعب لذلك الزميل الانجليزى ، فلا تنس أن .... »

وتركت أوجينى الخطاب يسقط من يدها وهى تغمغم فى تأثر : « يا ابن عمى المسكين » . ثم تناولت احدى الشموع المضاءة وهرعت عائدة الى غرفتها .. وهناك فتحت أحد الادراج وقد خامرها شعور بالنشوة

الغريبة ، وأخرجت منه كيس نقود كبير من القطيفة الحمراء به «شرابات» مذهبة ، وكان من مخلفات جدتها .. ثم راحت تفرز القطع الذهبية ذات الفئات المختلفة التى أهداها اياها والدها فى شتى المناسبات ، وقد انشغل فكرها بابن عمها .. وبعد احصاء دقيق تبين لها انها تملك خمسة آلاف وثمانمائة فرنك !.. فصفقت بيديها منتشية لمرأى « ثروتها » ، مثل الطفل الذى لايجد تنفيسا عن طربه وفرحته الا الرقص !.. وكان كل من الاب والابنة قد أحصى ثروته فى تلك الليلة : هو لكى يبيع ذهبه ، وهى لكى تلقى بها فى خضم الحب !

ثم أعادت الفتاة النقود الى كيسها القديم وأخذته فى يديها ثم صعدت دون تردد الى غرفة ابن عمها ، وليس فى ذهنها غير فكرة واحدة ، هى محنته !.. بل انها لم تعد تذكر ان الوقت ليل ، ولاعاد ضميرها يؤنبها.. كانت قوية فى سعادتها وحبها !

واذ وقفت على عتبة بابه وفى احدى يديها شمعة وفى يدها الاخرى كيس النقود ، استيقظ شارل من نومه ، ورأى ابنة عمه .. فعقدت الدهشة لسانه .. بينما تقدمت اوجينى نحوه ، فوضعت الشمعة على المنضدة وقالت فى صوت مختلج :

ـ يا ابن العم شارل ، أرجو مغفرتك من اجل أمر ارتكبته كان خطأ ، لكنك اذا تغاضيت عنه غفر الله لى !

فسألها شارل وهو يفرك عينيه :

ـ ماذا يمكن أن يكون هذا الذى فعلته ؟

ـ لقد قرأت هذين الخطابين !

فاحمر وجه الشاب .. بينما استطردت الفتاة :

ـ تريد أن تعرف كيف حدث ذلك ؟.. ولماذا جئت الى هنا ؟.. الواقع انى لست أعرف ، كل ما اعرفه انى أحس بارتياح وسرور لأنى قرأت الخطابين ، فانى بقراءتهما عرفت قلبك ، وروحك ، و ..

ـ وماذا ؟..

ـ وخططك .. والصعوبة التى تعترض سبيلك فى الحصول على نقود !

ـ يا ابنة عمى العزيزة !

ـ صه ! لا تتكلم بصوت مرتفع ، لا تدعنا نوقظ أحدا .. اليك كل ما ادخرته فتاة فقيرة ليست لها احتياجات خاصة . ويجب أن تأخذ هذه النقود يا شارل . انى حتى هذا الصباح لم أكن أعرف للمال قيمة ، لكنك علمتنى انه وسيلة الى غاية ، هذا كل ما فى الامر .. وابن العم هو بمثابة الاخ ، وطبعا انت لاترى بأسا فى الاقتراض من أختك .. !

ولم تكن أوجينى قد توقعت منه رفضا لرجائها .. لكنه قابل عرضها بالصمت ، فسألته :

ـ ماذا ، هل تعتزم أن ترفض رجائى ؟
لكن الصمت كان عميقا الى درجة ان خفقات قلبها كانت مسموعة . لقد جرح تردد ابن عمها كبرياءها ، لكن فكرة حاجته الملحة مثلت فى ذهنها بكل حدتها ، فخرت جاثية على ركبتيها :
ـ لن أنهض حتى تأخذ هذه النقود . اواه يا ابن العم قل شيئا ، بحق السماء .. حتى أعلم انك تحترمنى ، وانك كريم ، وان ....
وكانت هذه الصرخة الصادرة من قرارة يأسها النبيل ، أكثر مما يتحمل الشاب ، فلمعت الدموع فى عينيه . انه لن يتركها راكعة على الارض . وأحست دموعه الساخنة على يديها فهبت تمد يدها الى كيس نقودها وتفرغ محتوياته على المنضدة .. هاتفة فى صيحة فرح :
ـ اذن فقد قبلت .. أليس كذلك ؟ لا تحجم عن أخذه يا ابن العم . انك سوف تصير غنيا موفور الثراء . وهذا الذهب سيجلب لك الحظ ، وسوف ترده يوما ما ، أو ـ اذا شئت ـ سوف نكون شركاء فيه . سأقبل أية شروط تفرضها على . ولكن لاينبغى أن تغالى فى التحرج من قبول هذه الهدية !
وأخيرا وجد شارل لسانه ليجيبها :
ـ انى لو رفضتها يا أوجينى لكنت صغير النفس . لكنى سأجازيك ثقة بثقة !
ـ ماذا تعنى ؟
ـ اصغى الى يا ابنة عمى العزيزة ، عندى هناك ...
وتوقف عن الكلام برهة ليعرض عليها صندوقا مربعا موضوعا داخل غلاف من الجلد ، كان موضوعا فوق احدى قطع الاثاث .. ثم استطرد :
ـ هذا الصندوق أغلى عندى من الحياة ذاتها . انه هدية من أمى . وقد فكرت هذا الصباح انها لو نهضت من قبرها لباعت الذهب الذى شاء كرمها أن تحلى به هذا الصندوق .. لكنى لا أستطيع أن أفعل ذلك . انه يكون أمرا أشبه بسرقة أكفان الموتى !
ضمت أوجينى يد ابن عمها بقوة فى يدها عند سماعها هذه الكلمات الاخيرة ، بينما استطرد هو بعد فترة صمت قصيرة تبادلا فيها نظرات تتخللها الدموع :
ـ لست أبغى أن أتلف هذا الصندوق كى أنتفع بالذهب الذى فيه ، ولا أن أخاطر بأخذه معى فى جولاتى التائهة .. وانما سأتركه فى حيازتك يا عزيزتى أوجينى . ولم يسبق قط أن أودع صديق صديقه وديعة أغلى أو أقرب الى القداسة من هذه .. لكننى أترك هذا لتقديرك !
وأخرج الصندوق من غلافه الجلدى ، وفتحه ، وعرض أمام عينى ابنة عمه أدوات الزينة والحلاقة المحلاة بالذهب والنقوش البديعة التى تنم عن



وقالت أوجيني لشارل : « إليك كل ما ادخرته فتاة فقيرة »

براعة الصنع فضلا عن قيمة المعدن فى ذاتها .. ثم قال لها وهو يضغط زرا يفضى الى درج سرى فى الصندوق :

ـ لكن كل هذا الذى تعجبين به لايعد شيئا ، الى جانب شيء آخر ، يساوى فى نظرى الدنيا بأسرها ..

واخرج من الدرج السرى صورتين ، تحفتين من تحف مدام دىميربيل مرصعتين فى اناقة باللآلىء الجميلة .. فهتفت أوجينى :

ـ يا لجمالها !.. اليست هذه هى المراة التى كنت تكتب اليها ؟

فأجاب وهو يبتسم ابتسامة حزينة :

ـ كلا ، بل هى أمى ، وهذا أبى .. عمك ، وزوجة عمك .. أوجينى ، أتوسل اليك وانا راكع على ركبتى أن تحتفظى بهذا الكنز سالما من أجلى .. فاذا مت ، وفقدت ثروتك الصغيرة هذه ، فسوف يعوضك الذهب الذى فى هذا الصندوق ويخفف من خسارتك .. وأنت وحدك التى أستطيع أن أترك لها هاتين الصورتين ، فأنت وحدك الجديرة بأن تحافظى عليهما ، ولكن خير لى ان تعدميهما من أن تدعيهما يتسربان الى أيد أخرى !

ولاذت أوجينى بالصمت .. بينما أردف شارل قائلا :

ـ والآن ، انك تقبلين .. أليس كذلك ؟

واذ ذاك رمقته ـ لاول مرة ـ بالنظرة التى لا تصدر الا من امرأةعاشقة .. نظرة مشرقة تكشف عن عمق شعورها ، فتناول يدها وقبلها .. وهتف بها :

ـ يا ملاك الطهر ، ما المال بيننا ؟ انه لا شيء ، اليس كذلك ؟ لكن الشعور وحده هو الذى يضفى عليه قيمته ، سوف يكون كل شيء !

ـ انك مثل أمك . ترى هل كان صوتها موسيقيا مثل صوتك ؟

ـ أوه ، بل اعذب كثيرا !

فقالت وهى تسبل أجفانها :

ـ والآن ، هيا يا شارل .. ينبغى أن تذهب الى فراشك !. أريد ذلك . انك جد متعب . طابت ليلتك!

وكان قد أمسك يدها بين يديه ، فجذبتها برفق بعيدا .. وهبطت الى غرفتها ، وهو ينير لها الطريق .. وعند عتبة بابها تمهل الاثنان ... فسألها :

ـ أوه !. لماذا انا رجل محطم ؟

ـ هراء !.. ان أبى غنى ، فيما أعتقد !

فقال شارل وهو يضع قدما فى غرفتها ويتكىء بظهره الى افريز الباب :

ـ لو كان أبوك غنيا لما ترك أبى ينتحر ، ولما عشتم فى مكان متواضع مثل هذا ... بل لكان يعيش فى مستوى مختلف كل الاختلاف !

ـ لكنه يملك ضيعة « فروادفون »

ــ وماذا يمكن أن تساوى فرِوادفون ؟
ــ لست أدرى .. ولكن هناك « نوابيه » أيضا ..
ــ مزرعة حقيرة ..!
ــ وهو يملك الكروم والغابات ..
فقال شارل فى لهجة احتقار :
ــ انها لا تستحق الكلام عنها .. لو كان لابيك ايراد سنوى قدره أربعة وعشرون ألفا فى السنة ، هل كان يعقل أن تنامى فى غرفة عارية باردة مثل هذه ؟

ثم أضاف وهو يخطو خطوة اخرى بقدمه اليسرى :
ــ ها هنا سوف تحفظ كنوزى
ثم أومأ برأسه الى خزانتها ، محاولا اخفاء أفكاره عنها .. فقالت وهى تسد طريقه الى غرفتها غير المرتبة :
ــ اذهب .. وحاول أن تنام !
فتراجع .. وتبادل الاثنان تحية المساء وهما يبتسمان
ومنذ ذلك الحين تبين شارل أن هناك ورودا ما تزال تقطف فى الدنيا ، برغم حزنه . وفى الصباح التالى رأت مدام جرانديه ابنتها تمشى بصحبة شارل قبل الافطار ، وكان ما يزال ساهما حزينا . وكيف يمكن أن يكون غيرذلك ؟ انه كان يدرك بالتدريج مدى عمق الهاوية التى تردى فيها ، وكان التفكير فى المستقبل يثقل قلبه !
وقالت أوجينى ردا على نظرة القلق التى بدت فى عينى أمها : « لن يعود أبى قبل موعد الغداء »
وكانت لهجة الفتاة قد غدت عذبة ، وكان من السهل أن يرى المرء من وجهها ومسلكها انها وابن عمها يتبادلان فكرة مشتركة ، ويندفعان فى طريق واحد ، ويكادان يجهلان مدى طبيعة هذه القوة التى تربطهما !



عهد قبل الرحيل

جلس شارل فى غرفة المائدة ساكتا دون ان يتطفل على حزنه أحد . كانت أمام اوجينى وأمها ونانون الخادمة أعمال كثيرة ، وقد سافر جرانديه فجأة ، فتوقف دولاب أعماله المتعددة ، وجاء الى المنزل كثيرون من عملائه وعماله وموظفيه للاتفاق معه على بعض الصفقات أو الاصلاحات . ومن ثم شغلت زوجته وابنته خلال غيابه بمقابلة هؤلاء وهؤلاء ، والاستماع لقصص لا تنتهى من عمال مصانعه وفلاحيه !

واحتفظت نانون فى المطبخ بكل الهدايا التى أحضروها معهم .. وكانت دائما تنتظر تعليمات سيدها فيما يتصل بما ينبغى حفظه منها وما ينبغى بيعه فى السوق. وكان جرانديه ـ مثل الكثيرين من أعيان الريف ـ يحرص على أن يشرب أسوأ ما يرد اليه من النبيذ، ويحتفظ للاستهلاك المنزلى بأسوأ الثمار والفاكهة التالفة ..!

وعاد جرانديه حوالى الساعة الخامسة مساء من « انجير » .. لقد باع ذهبه بأربعة عشر الف فرنك ، وترك الحارس «كورنوابيه » هناك كى يتولى أمر الجياد التى كادت تقتلها الرحلة الليلية ، ثم يعود بها بعد ان تأخذ قسطا من الراحة !

وابتدر الرجل زوجته قائلا : « لقد كنت فى انجير ، وانى لجائع »

فسألته نانون من مطبخها : « ألم تأكل شيئا منذ أمس ؟ »

فأجاب : « لا شىء ألبتة ! »

وجاء المالى دى جراسان الى المنزل ليتلقى تعليمات جرانديه ، بينما كانت الاسرة تتناول الغداء . ولم يكن جرانديه قد رأى ابن أخيه منذ عودته .. فقال له دى جراسان :

ـ امض فى غدائك ياجرانديه ، وسوف نتكلم فى بعض الامور ... هل سمعت عن القيمة التى وصل اليها الذهب فى (انجير) ومبلغ تهافت أهل (نانت) على شرائه ؟.. سوف أرسل بعضه الى هناك

ـ لا حاجة بك الى أن تتعب نفسك فى هذا السبيل .. انهم قد ابتاعوا منه ما فيه الكفاية . ولست أحب لك أن تضيع جهدك عبثا !

ـ لكن الذهب يساوى هناك ثلاثة عشر فرنكا وخمسين سنتيما للوحدة..

ـ بل قل انه كان يساوى ذلك !

ـ وكيف بحق الشيطان عرفت هذا ؟

فقال جرانديه فى صوت خفيض : « لقد ذهبت الى (أنجير) فى الليلة الماضية ! »

وتبادل الرجلان على أثر ذلك حديثا هامسا كانا خلاله يختلسان النظر الى شارل ، وبعد حين قال له دى جراسان :

ــ انا ذاهب الى باريس ، فهل فى استطاعتى أن أؤدى لك أية خدمة . . ؟

ــ شكرا يا سيدى ، لست أطلب شيئا !

وعندئذ ابتدره عمه قائلا : « ينبغى أن تشكره بحرارة أكثر من هذه يا ابن الاخ ، انه ذاهب لتصفية ديون أبيك والاتفاق مع الدائنين »

ــ اذن فهل هناك أمل فى الوصول الى تسوية ؟

ــ طبعا !.. ان الامر يمس شرفنا جميعا !

وعندئذ نهض شارل من مقعده وقد تأثر بشهامة عمه،وبحركة غير ارادية ألقى ذراعيه حول رقبة عمه وقد شحب وجهه .. ثم ترك الغرفة . فنظرت أوجينى الى أبيها نظرة ملؤها الزهو والشكر !

وقال جرانديه لضيفه : « الآن دعنا نفترق أيها الصديق العزيز . انى دائما فى خدمتك . حاول أن تتغلب على مناورات أولئك القوم وحيلهم »

وتصافح الرجلان فى حرارة ، وودع جرانديه ضيفه حتى الباب ثم عاد بعد أن أغلقه ، فألقى نفسه فى مقعده المريح وقال لنانون :

ــ اعطينى شيئا من الشراب الفاتح للشهية

لكنه كان أكثر انفعالا من أن يبقى بلا حراك،فنهض ونظر الى صورة مسيو دى لا برتلير ، ثم بدأ يدندن بالغناء فى كلمات غير مفهومة .. فنظرت كل من النسوة الثلاث الى الاخرى فى دهشة صامتة وقلق مكتوم

وعجل جرانديه بالايواء الى فراشه ، ولم يسمح لاحد بالبقاء ساهرا بعد نومه .. تماما كما كان يحدث فى بولندا (فى أيام الملك اغسطس) الذى كان كلما ثمل فرض على الرعية أن تشرب حتى تثمل مثله !

وكان من عادة زوجته أن تنام وتستيقظ ، وتأكل وتشرب تبعا له !

بدا جرانديه خلال السهرة القصيرة غريب الاطوار ، ونطق بغير قليل من كلماته « المأثورة » التى تكشف عن أعماق عقله . وحينما فرغ من تناول الشراب الفاتح للشهية نظر الى الكأس الفارغة فى تأمل وامعان ، ثم قال : « انك لا تكاد تضع شفتيك على الكأس حتى تفرغ !.. هكذا الحياة.. انك لن تستطيع أن تحتفظ بالكعكة وتأكلها فى وقت واحد ، أو تنفق نقودك وتبقيها فى كيسك فى آن معا .. ولو استطعت أن تفعل الامرين معا ، لصارت الحياة ممتعة حقا ! »

وكان بادى المرح ، بحيث لم تكد تدخل نانون حاملة مغزلها حتى ابتدرها قائلا : « لا بد أنك تعبة يا نانون .. دعى ذلك الآن ! »

فأجابته الخادمة : « هل أجلس ويداى الى جانبى ؟! »

ـ مسكينة يا نانون .. هل لك فى كأس من الشراب ؟

ـ الشراب ؟ أوه ، لن أقول لا .. ان سيدتى تعده أحسن كثيرا مما يعده المختصون .. ان النوع الذى يبيعونه فى السوق ردىء جدا !

ـ انهم يفسدون رائحته بالاكثار من وضع السكر فيه !

وفى صباح اليوم التالى ، بدت الجماعة كلها ـ لاول مرة حول مائدة الافطار وكأنها أسرة واحدة !

كانت المتاعب السالفة قد جمعت بين قلوب زوجة جرانديه وابنته وابن أخيه .. وشاركتهم ـ دون وعى ـ خادمتهم نانون .. أما زارع الكروم العجوز فلم يكد يلحظ وجود ابن أخيه فى البيت . كان قد اشبع شهوة الذهب فى نفسه، ولن يلبث أن يتخلص من ضيفه الثقيل بثمن بخس ضئيل، هو دفع نفقات سفره الى نانت !

وفى أثناء ذلك وجدت أوجينى الحرية فى مناجاة شارل ، تحت رقابة عينى امها !.. وكان جرانديه يولى زوجته ثقة كاملة فى كل الامور التى تتصل بالسلوك والدين ، فقد كان عنده ما يشغله ويستأثر بتفكيره .. كانت عنده أحراشه المحتاجة الى مصارف للمياه ، وكان عنده صف من أشجار الحور ينبغى أن يزرع على ضفة نهر اللوار .. ثم هناك الاعمال الشتوية المألوفة فى ضيعة فروادفون وغيرها !

لقد بدأ فصل الربيع والحب فى حياة أوجينى منذ الساعة التى أعطت فيها ابن عمها ذهبها المدخر !.. لقد تقاسما سرا مشتركا . وأدركا وجود التفاهم بينهما وزادهما هذا الادراك قربا ، بينما أبعدهما معا من مجرى الحياة اليومية المألوفة .. والواقع أن أوجينى آلت على نفسها أن تجعل ابن عمها ينسى حزنه وشجنه بأن يغرقهما فى المباهج الصبيانية للحب النامى !

وهناك تشابه كبير بين بداية الحب وبداية الحياة .. فكما يلذ للطفل أن يرى الابتسامات ويسمع أغانى المهد والقصص الخرافية التى تزين له مستقبلا زاهرا ذهبيا .. كذلك العاشق ، تنبسط فوق رأسه دائما أجنحة الامل البراقة ، ويذرف كل حين دموع الفرح أو الاسى ، ويجمع أزهار الحياة فى أفق حياته بمثل السرعة التى يبددها بها وينساها !.. ويشتاق على الدوام الى أن يقف سير الزمن أو يزيد فى سرعته للعيش فى الماضى أو المستقبل !.. ان الحب هو البعث الثانى للنفس البشرية

وقد كان الحب والطفولة مترادفين بالنسبة لشارل وأوجينى . كان فجر الحب او بدايته الصبيانية عندهما على درجة كبيرة من العذوبة لان قلبيهما كانا مليئين بالأكدار . وهذا الحب الذى غلف منذ مولده بالحرير ، كان يتفق فى جوه مع جو البيت العتيق الموحش . وحين كان الاثنان يتبادلان بضع كلمات الى جانب البئر فى الفناء الساكن ، أو يجلسان معا فى الحديقة الصغيرة وقت غروب الشمس ، كانت تستغرقهما الاحاديث التافهة التى

يتبادلانها أو يشملهما السكون المطبق الذى يخيم على المنطقة كلها . وكان شارل قد بدأ يألف أن يفكر فى الحب كشيء صادق طاهر له قداسته !.. بينما كان فى الماضى ، مع حسنائه العزيزة أنيت ، لم يجرب من الحب غير عواصفه وأخطاره !

ثم هو قد بدأ يحس شيئا من الشغف بالبيت العتيق . ولم تعد طريقة قاطنيه فى العيش تبدو له غريبة مستهجنة . وانه ليهبط من حجرته مبكرا فى الصباح كي يقتنص بضع كلمات مع أوجينى قبل أن يخرج أبوها من المخزن حاجيات المنزل اليومية . وحين تدب قدما الأب الثقيلتان على السلم يفر الفتى الى الحديقة !.. وحتى أم أوجينى لم تعلم بأمر اجتماعاتهما الصباحية هذه .. أما نانون فكانت تتظاهر بأنها لا ترى شيئا ! كان الامر ينطوى على قدر من الجراة التى تضفى على حبهما البرىء جاذبية المتعة المسروقة ..!

.. وحين كان الافطار ينتهى ، ويخرج جرانديه الى عمله ، كان شارل يجلس فى الحجرة الرمادية بين الام والابنة ، واجدا متعة لا عهد له بها من قبل فى أن يمسك لهما بأطراف خيط « التريكو » وهما تنسجانه ، ويصغى الى حديثهما .. وكان ثمة شيء راق له فى بساطة هذه الحياة التى تحياها الاسرة ، والتى كشفت له عن نبل طبائع هاتين المرأتين .. انه لم يكن يصدق أن مثل هذه النماذج البشرية توجد فى فرنسا .. ففى المانيا كان يحتمل أن توجد بقية من هذه الاسر المحافظة على أساليب المعيشة العتيقة .. أما فى فرنسا فما كان الفتى ليصدق أن هذه الصور من الحياة توجد فى غير القصص أو فى خرافات (لافونتين) ..! ولم يمض زمن طويل حتى أصبحت أوجينى جزءا لا يتجزأ من مثله الاعلى ، أو بمثابة « مرجريت » ـ بطلة قصة جوته ـ لكنها معصومة من أخطائها ..!

وكذلك كانت الفتاة تزداد كل يوم تعلقا بكلمات الفتى ونظراته ، وانسياقا فى تيار الحب الجارف .. وكانت تقتنص كل قطرة من السعادة وتتشبث بها كما يتشبث السابح فى بحيرة بغصن شجرة يتدلى فوق رأسه كى يستعين به على بلوغ الشاطىء حيث الراحة والامان .. !

واقترب موعد الفراق .. وسقط شبحه فعكر صفو أحلى ساعات تلك الايام التى كانت تنقضى مسرعة .. ولم يكن يمضى منها يوم دون أن يحدث ما يذكر الفتى والفتاة باقتراب يوم الرحيل !..

وبعد سفر المالي دى جراسان الى باريس بنحو ثلاثة أيام ، أخذ جرانديه شارل الى مكتب أحد الموثقين لعمل بعض التوكيلات الرسمية . وفى حضور ذلك الموثق وقع الفتى على ورقة يعلن فيها تنازله عن كل مطالبة بمال أبيه أو حق له فيه !..

ثم ذهب الشاب الى مسيو كروشو مسجل العقود ليستخرج توكيلين : أحدهما للمالي دى جراسان ، والثانى للصديق الذى كلفه شارل ببيع حاجياته الشخصية

كذلك كانت هناك بعض اجراءات رسمية فيما يتصل بجواز السفر.. وأخيرا، فى اليوم الذى وصلت فيه ستترة الحداد التى أوصى شارل بصنعها فى باريس، أرسل فى استدعاء أحد تجار الملابس القديمة فى سومور وباعه ثيابه الفاخرة المزركشة التى لم تعد به حاجة اليها .. وكان هذا الاجراء خاصة مما سر جرانديه العجوز، فالتفت الى ابن أخيه قائلا وهو يتأمل السترة السوداء المصنوعة من قماش رخيص :

ــ الآن فقط تبدو فى مظهر الرجل المتأهب للكفاح، ولشق طريقه فى الحياة .. هذا حسن، حسن جدا !

فأجابه شارل : « أرجو منك ياسيدى أن تكون على ثقة من انى سأواجه موقفى بروح مشرفة ! »

ثم مد الشاب يده الى عمه وفيها حفنة من الحلى والاشياء الذهبية، فهتف جرانديه وقد زاغت عيناه فى بريق الذهب المتألق : « ما هذا ؟ ! »

ــ لقد جمعت خواتمى وأزرارى وكل شيء له قيمة مما عندى، انى لن أكون فى حاجة الى هذه الاشياء الآن . وأنا لا أعرف أحدا فى سومور.. لهذا خطر ببالى هذا الصباح أن أسألك ...

فقاطعه عمه ملهوفا : « ان اشتريها ؟ »

ــ كلا ياعمى !.. بل أن ترشدنى الى شخص أمين يكون ..

ــ اعطنيها يا ابن أخى.. سآخذها الى غرفتى وافحصها لأعرف قيمتها الحقيقية !

ثم أردف وهو يتناول سلسلة طويلة منها :

ــ هذه مصنوعة من ذهب عياره ثمانية عشر قيراطا أو تسعة عشر قيراطا

ثم مد الرجل يده الثقيلة وتناول المجموعة كلها ومضى بها .. !

وهنا قال شارل مخاطبا ابنة عمه :

ــ اوجينى.. اسمحى لى بأن أقدم لك هذين المشبكين.. انك تستطيعين استخدامهما فى تثبيت الاشرطة حول رسغيك .. فهذا النوع من الاساور هو الطراز الشائع الآن

فأجابته وهى ترمقه بنظرة حادة :

ــ لن أتردد فى قبولهما يا ابن العم !

واذ ذاك التفت الفتى الى أمها قائلا وهو يقدم لها شيئا :

ــ واليك يا زوجة عمى « كستبان » أمى . لقد احتفظت به حتى الآن فى علبة أدواتى

وكانت مدام جرانديه تتوق منذ عشر سنوات الى هذه الهدية بعينها ! فقالت وقد امتلأت عيناها بالدموع :

ــ انه لمن المستحيل على أن أشكرك بالكلمات يا ابن الاخ العزيز.. لكنى

سوف أذكرك فى صلاتى صباح مساء طالبة من الله أن يحفظك فى غربتك.. واذا أصابنى أى مكروه فسوف تتولى أوجينى هذا الامر نيابة عنى !

وهنا كان جرانديه قد أقبل على الباب يقول :

ـ ان حاجياتك تساوى تسعمائة وتسعة وثمانين فرنكا وخمسة وسبعين سنتيما يا ابن الاخ .. لكنى لكى أوفر عليك مشقة بيعها سوف أعطيك ثمنها وأريحك منها

فأجابه الشاب : « انى لم أجرؤ أن أقترح شيئا كهذا ، لكنى ترددت فى أن أرهنها أو أبيعها فى البلدة التى تقطنها ، فان الثياب القذرة ينبغى ألا تنشر على الملأ ، كما اعتاد نابليون أن يقول .. فأشكرك على صنيعك »

ثم سادت الحجرة فترة صمت .. قطعها شارل مستطردا فى عصبية ، كأنما يخشى أن يجرح احساس عمه :

ـ لقد قبلت عمتى وأوجينى أن يأخذا منى تذكارين بسيطين .. فهلا قبلت منى بدورك هذين الزرين للقميص ؟.. انهما قد يذكرانك بفتى فى بلاد نائية سوف يتجه فكره كثيرا دون ريب نحو أولئك الذين هم كل من بقى الآن من أسرته !

ـ أوه ، يا ابنى ، يا ابنى .. انك ينبغى ألا تجرد نفسك هكذا من كل شىء ، من أجلنا !

ثم استدار صانع البراميل نحو زوجته قائلا :

ـ ماذا أخذت أنت يا زوجتى العزيزة ؟.. آه كستبان ذهبى ؟.. وأنت يا فتاة ؟.. مشبكين من الماس .. وماذا أيضا ؟.. حسنا !.. انى سأقبل هديتك يا فتى !

ثم تناول يد شارل واستطرد قائلا :

ـ ولكن .. يجب أن تدعنى أدفع أجر .. نعم أجر رحلتك الى جزر الهند . نعم ، انى أزمع ان أدفع تكاليفها .. ثم انى حين قدرت ثمن حاجياتك الذهبية قدرتها باعتبار وزن الذهب الذى صيغت منه فقط ، دون تقدير أجر الصياغة ، وهذا قد يجعل قيمتها تزيد قليلا .. وهكذا اتفقنا ، سأدفع لك ألفا وخمسمائة فرنك ، سوف يقرضنى اياها كروشو ، فانى لست أملك نقودا على الاطلاق فى البيت .. سأذهب لأرى ما يمكن عمله !

ثم تناول قبعته ووضع قفازيه فى يديه ومضى !

وقالت أوجينى وفى عينيها نظرة تساؤل واعجاب حزينة : « اذن فأنت ذاهب ؟ ! »

فأجابها الفتى ورأسه منكس : « نعم ، لامفر من ذلك ! »

كان شارل خلال الايام الاخيرة قد بدا فى مظهره ، وكلامه ، وتصرفاته ، مثل رجل يعانى متاعب جمة ، لكنه يدرك ثقل الالتزامات التى على كاهله ،

ويحس ان تعاسته تحفزه الى بذل مجهود اكبر !.. لقد كف عن أن يرثى لنفسه . صار رجلا !.. ولم تتفاءل أوجينى يوما بمستقبل ابن‌عمها وتقدر شخصيته حق قدرها كما فعلت يوم رأته يهبط من غرفته مرتديا سترته البسيطة السوداء الخشنة التى كانت تلائم وجهه الشاحب الحزين .. وقد ارتدت المرأتان بدورهما ثياب الحداد مثله وذهبتا معه الى جناز أقيم فى الكنيسة للصلاة على روح ابيه !

وأثناء تناول الغداء تلقى شارل رسائل من باريس ، ففضها وقرأها .. ولم تملك أوجينى ان تقاوم فضولها ، فسألته واجفة القلب ، بصوت خافت :

ــ ماذا يا ابن العم .. هل تسير أمورك سيرا مرضيا ؟

فابتدرها أبوها قائلا : « لاينبغى ان تسالى أسئلة مثل هذه يا ابنتى . انى لا أتحدث اليكم قط عن أعمالى ، فلماذا تتدخلين فى شؤون ابن عمك ؟ دعى الفتى وشأنه ! »

فقال شارل مستدركا الامر : « ليست لى أسرار من أى نوع ! »

ــ صه ! سوف تعلمك الايام ان تصون لسانك فى مسائل الاعمال يا ابن الاخ !

وحين خلا العاشقان بعد ذلك فى الحديقة ، جذب شارل اوجينى الى المقعد العتيق تحت شجرة الجوز ، حيث آلفا ان يجلسا فى الايام الاخيرة ، ثم ابتدرها قائلا :

ــ كنت واثقا من اخلاص صديقى الفونس ، وقد حقق ظنى . لقد صنع الاعاجيب ، ودبر أمورى بكل حيطة واخلاص . ان جميع ديونى الشخصية قد سددت ، وبيع الاثاث بثمن مرض ، وهو يضيف أنه قد تصرف فى‌هذه الامور وفقا لنصائح قبطان بحرى مسن قام برحلات الى جزر الهند ، واستثمر المال الفائض فى شراء حلى وأشياء غريبة تجد هناك سوقا رائجة لها بين الاهالى .. كما أرسل متاعى الى نانت ، حيث يتأهب رجل من سكان جزر الهند الشرقية للابحار الى « جاوه » .. وهكذا ــ يا أوجينى ــ ينبغى أن نعد أنفسنا للحظة الوداع خلال خمسة أيام .. الوداع لسنوات طويلة ، وربما الى الابد !.. ان العشرة آلاف فرنك التى أرسلها الى اثنان من أصدقائى لهى بداية ضئيلة ، بحيث لا أتوقع أن أستطيع العودة قبل سنوات عديدة . أى ابنة عمى العزيزة ، فلنعتبر نفسينا غير مرتبطين بأية صورة من الصور .. فقد أموت أنا ، وأغلب الظن انه سوف تسنح لك فرصة قريبة لمستقبل سعيد مستقر ...

فقاطعته على حين غرة : « أتحبنى ؟ »

فأجابها على الفور ، فى لهجة حارة تشى بحرارة عاطفتــه : « اوه ، بلا شك ! »

ــ اذن فسوف انتظرك يا شارل .. يا الهى ، ان ابى يطل من نافذته !

ثم راغت بعيدا عن ابن عمها الذى هم بتقبيلها .. وفرت نحو الفناء ، واذ رأته يلاحقها الى هناك تراجعت الى أبعد ما استطاعت ، وفتحت الباب المؤدى الى داخل البيت دون أن تقصد مكانا معينا أو توجهها فكرة بذاتها خلاف فكرة الفرار .. ثم اندفعت نحو أظلم ركن فى الممر ، خارج حجرة نوم نانون .. وهناك أدركها شارل وأخذ يديها فى يديه ثم جذبها الى صدره .. وتسللت ذراعاه الى خصرها .. فلم تعد أوجينى تقاوم ، وانما استكانت بين أحضان حبيبها !

وقال لها شارل : « حبيبتى أوجينى . ان ابن العم أفضل من الاخ .. انه يستطيع أن يتزوجك ! »

فصاحت نانون وهى تفتح الباب خلفهما وتبرز من جحرها : « ليت ذلك يحدث .. يارب ! »

وازعج صوتها العاشقين ، فلاذا بالفرار الى حجرة المائدة ، حيث تناولت أوجينى ابرتها وخيطها ، بينما تناول شارل كتاب الصلوات الخاص بمدام جرانديه ففتحه اعتباطا وشرع يقرأ كيفما اتفق .. فهتفت نانون :

ــ رباه ، اذن فنحن جميعا نتلو صلواتنا !

وحينما حدد شارل يوم سفره تظاهر جرانديه بأنه يقوم بدور كبير فى التحضير لذلك ، وبأن الأمر ينال أعظم قسط من عنايته .. فراح يتطوع لاسداء النصائح التى لاتكلفه شيئا .. وصار يستيقظ كل يوم قبل موعده المألوف ويتأخر فى المساء الى ما بعد موعد نومه كى يدبر ويرتب ويشرف على حزم الامتعة واتخاذ الاجراءات اللازمة لشحنها

والواقع انه أبدى براعة فى اعداد الامتعة بحيث تتحمل مشاق الرحلة دون أن يصيبها أدنى تفكك أو يتبعثر من محتوياتها شىء .. ودبر أن ترسل الحقائب فى سفينة عبر نهر اللوار الى نانت ، بعد أن أمن عليها لدى احدى شركات التأمين ضد جميع الاخطار !

اما أوجينى فمنذ تلك القبلة التى تلقتها ومنحتها فى الممر المظلم ، صارت الساعات تمر عليها بسرعة مخيفة .. ففكرت فى أن تتبع ابن عمها الى حيث يذهب .. فانه من بين جميع الروابط التى تربط مخلوقا بشريا الى مخلوق آخر تجىء عاطفة الحب فى المرتبة الاولى من الاهمية والقوة .. ويستطيع ان يقدر مبلغ العذاب الذى قاسته أوجينى فى تلك الايام كل شخص يعرف هذه الحقيقة بصدد عاطفة الحب ، ويعرف ان كل يوم يمر يقصر المسافة التى تفصل بين وصال العاشقين .. بل يعرف كيف انه لا الزمن ولا الامراض ولا جميع احداث الحياة مجتمعة تستطيع أن تميت عاطفة الحب فى قلب استقرت فيه !

وهكذا صارت أوجينى تذرف الدمع السخين وهى تذرع الحديقة الصغيرة . ان الحديقة تبدو كأنما ضاقت بها .. بل ان الفناء والبيت

العتيق والمدينة كلها كأنما ضاقت عن ذى قبـل .. بينما أفكارها تنهب البحار السبعة !

وفى اليوم السابق ليوم الرحيل ، بينما كان جرانديه ونانون خارج البيت ساعة الصباح ، وضعت أوجينى الصندوق الثمين الذى يضم الصورتين فى خزانتها ، الى جانب كيس النقود المصنوع من القطيفة والفارغ من الذهب. وحرصت على أن تضع الوديعتين فى درج ذى قفل ومفتاح .. وفيما هى تفعل ذلك لم تستطع منع نفسها من أن تظهر تأثرها بفيض زاخر من الدموع والقبلات !

وحين أغلقت أوجينى الدرج وأخفت مفتاحه فى صدرها لم تكن عندها الشجاعة الكافية كى تمنع القبلة التى بها ختم شارل عقد الاتفاق وقالت له :

ـ سوف يظل المفتاح هنا دائما يا عزيزى !

ـ حسنا !.. وقلبى سيظل دائما معه !

فأطرقت ثم قالت : « شارل .. ينبغى الا تقول هذا ! »

وكانت فى لهجتها مسحة من التأنيب واللوم ، فأجابها قائلا : « ولم لا؟ ألسنا متزوجين ؟ .. ان لدى وعدك الصريح ، ويمكنك أن تأخذى منى وعدى أيضا ! »

ثم قالا فى صوت واحد : « ان كلا منا للآخر الى الابد ! »



كارثة الكنز المفقود

كانت الاسرة يبدو عليها الاكتئاب حين جلست الى مائدة الافطار صباح اليوم التالى .. حتى نانون نفسها طافت بعينيها الدموع ، بالرغم من فرحتها بالثوب الجميل الجديد والصليب المذهب اللذين أهداهما شارل اليها !.. لكنها وجدت الحرية فى التعبير عن آرائها ، فهتفت من قلب مشفق :

– يا للشاب المسكين الرقيق الذاهب الى البحر .. فليحرسه الله !

وفى الساعة العاشرة والنصف غادرت الاسرة كلها البيت لتوديع شارل عند ركوبه العربة التى ستقله الى نانت . وتركت نانون الكلب طليقاً واغلقت الباب بالقفل ، وتأهبت لأن تحمل حقيبة شارل الصغرى . وخرج كل صاحب حانوت فى الشارع العتيق الى عتبة حانوته لرؤية الموكب الصغير وحين بلغ ميدان السوق انضم اليه مسيو كروشو مسجل العقود ..

وهمست الام لابنتها : « اوجينى ، حذار من البكاء ! »

وبلغوا بوابة الحانة ، وهناك قبل جرانديه وجنتى شارل قائلا له :

– والآن يا ابن الاخ .. ارحل فقيرا وعد غنيا .. انك تترك شرف أبيك فى صيانة أيد أمينة ، وأنا أتعهد لك بذلك .. أما أنت فما عليك الا أن تؤدى واجبك وتقوم بالدور الذى يخصك !

فأجابه الفتى متأثرا : « شكرا لك يا عماه !.. ان هذا يخفف كثيرا من مرارة الفراق . أليست هذه أعظم هدية تستطيع أن تعطينى اياها ؟ »

وكان شارل قد قاطع عمه قبل أن يفهم قصده بالضبط .. ثم وضع ذراعيه حول رقبته وترك دموع الشكران تفيض على وجنتى زارع الكروم المغضنتين اللتين صوحتهما الشمس .. أما أوجينى فقد احتضنت يد ابن عمها فى احدى يديها ، ويد أبيها فى الاخرى ، وضغطت كلتيهما .. بينما ابتسم مسجل العقود ولم ينبس ببنت شفة .. انه وحده الذى فهم نوايا صديقه البخيل ، ولم يملك نفسه من الاعجاب بمكره ودهائه ..!

وأحاط الاربعة وجماعة أخرى من المتطفلين بالمركبة حتى اللحظة الاخيرة ، ثم تابعوها بأبصارهم حتى اختفت عبر القنطرة وخفت ضجيج العجلات ثم اختفى . فقال جرانديه : « انه خير مخرج من المازق ! »

ومن حسن الحظ ان أحدا غير مسيو كروشو لم يسمع هذه العبارة ،

فان أوجيني وأمها كانتا قد سارتا بمحاذاة الرصيف الى نقطة تستطيعان منها أن تريا العربة ووقفتا هناك تتبادلان التلويح بالمناديل مع شارل .. حتى غاب عن الانظار .. وعندئذ استدارت أوجيني عائدة ، وهتفت بأمها :

ــ اواه يا أماه !.. آه لو أعطيت قوة الله للحظة واحدة ؟ !

وسارت الامور بعدذلك طبقا للخطة المرسومة .. فدعا دي جراسان الدائنين في باريس الى عقد اجتماع للتسوية ، وفضت الاختام في حضورهم .. وأعلنوا جميعا قبولهم ثرى سومور الكبير ضامنا لديونهم ، بالاشتراك مع أحدهم وهو مسيو فرانسوا كيلر رئيس احدى المؤسسات المالية الكبيرة . ووكل الدائنون الضامنين لاتخاذ مايلزم من الاجراءات لحفظ حقوقهم ، والمحافظة على اسم الاسرة من كل لوثة . وكان لنيابة دى جراسان عن جرانديه أثر كبير فى احياء موات الآمال فى نفوس الدائنين .. وسارت الامور بسهولة ويسر من البداية الى النهاية ، بحيث لم يجد دى جراسان صوتا واحدا معارضا .. بل حدث كل نفسه قائلا فى لهجة الواثق المطمئن :

ــ ان جرانديه عمدة سومور سوف يدفع !

وانقضت ستة أشهر ، وسحب تجار باريس الكمبيالات من التداول ، وأودعوها بطون محافظهم . لقد ربح صانع البراميل الماكر الجولة الاولى . وبعد تسعة أشهر من تاريخ الاجتماع الاول دفع الضامنان للدائنين نصيبا من ديونهم قدره سبعة وأربعون فى المائة ، وقد رفع قيمة هذه النسبة بيع ممتلكات وليم جرانديه الراحل وبضائعه وسنداته وأمتعته وأثاثه.. وتمت هذه الاعمال بكل دقة ونزاهة مطلقة . ولهجت ألسنة الدائنين اعجابا بأمانة جرانديه الفائقة ..!

وحين تداول الناس هذه الفكرة زمنا كافيا ، بدأ الدائنون يسألون أنفسهم متى ستدفع لهم أنصبتهم الباقية .. وانتهى بهم التساؤل الى تقرير كتابة خطاب اجماعى منهم الى جرانديه

واذ تلقى الرجل خطابهم ، غمغم وهو يقذف به الى النار : « صبرا يا أصدقائى الاعزاء ! »

وطلب جرانديه اليهم أن يودعوا ما عندهم من الكمبيالات والمستندات لدى مسجل للعقود ، مصحوبة بايصالات المبالغ التى قبضوها .. وبذلك يمكن تجنب كثير من المتاعب والصعوبات التى لاحصر لها !

والدائن ــ عادة ــ شخص شبه مخبول .. لايمكن لانسان أن يجزم بما سوف يفعله .. فهو اليوم يتعجل انهاء الامور ، وفى اليوم التالى تراه يهدد باستعمال الحديد والنار .. ويوما ثالثا تراه نموذجا للعذوبة والتسامح واللين .. ذلك ان زوجته قد تكون يوما منشرحة المزاج ، وأصغر أطفاله ــ أو آماله ــ قد نبتت له سن ، وكل شيء يسير فى البيت على ما يرام .. ومن ثم فهو لايعتزم أن يتنازل عن مطالبه قيد شعرة !.. أما غدا فقد يتلبد الجو وتهطل الامطار ، فلا يستطيع الخروج من داره ، وينتابه شعور

بالانقباض ، فيوافق فورا على أى حل يسوى الامور .. وفى الصباح التالى يطلب ضامنا .. وفى نهاية الشهر يتحدث الوحش الظامىء الى الدماء عن استخدام العنف لتنفيذ مطالبه والاستيلاء على حقه كاملا ..!

وقد فطن جرانديه الى هذه الاطوار التى تعترى الدائنين وفقا لتقلبات الطقس . وصدقت نبوءاته ، فسلك دائنو أخيه المسلك الذى أرادهم أن يسلكوه !

وفرك الماكر يديه وهو يقرأ الخطاب الذى كتبه اليه وكيله دى جراسان فى هذا الصدد ثم غمغم :

ــ هذا حسن !.. هذا بديع !

على ان بعض الدائنين رفضوا أن يوافقوا على ايداع مستنداتهم وايصالاتهم ما لم يحدد مركزهم أولا بكل دقة .. واحتفظوا بحق اشهار افلاس المؤسسة المدينة اذا رأوا ذلك مناسبا !

وأدى هذا الى سلسلة أخرى من المكاتبات ، وتأجيل جديد ومماطلة .. وأخيرا وافق جرانديه على جميع شروط الدائنين .. ونتيجة لذلك أودع هؤلاء مستنداتهم ، وان لم يخل الامر من شىء من التذمر !

وقال بعضهم للمالى دى جراسان : « ان جرانديه العجوز يضحك فى كمه سخرية منك ومنا نحن أيضا ! »

وبعد انقضاء ثلاثة وعشرين شهرا على وفاة وليم جرانديه كان كثيرون من التجار الدائنين قد نسوا كل شىء عن مطالبهم فى غمرة الاحداث التى تزدحم بها حياة رجال الاعمال فى باريس وتحفل بها تجارتهم .. أو قل انهم كانوا يذكرون الامر قائلين لانفسهم : « يبدو ان السبعة والاربعين فى المائة هى كل ما سوف نحصل عليه من ديوننا ! »

لقد اعتمد صانع البراميل الماكر على عامل الزمن ، الذى هو ــ على حد تعبيره ــ خير معوان وسند !.. وفى نهاية العام الثالث كتب دى جراسان يبشر جرانديه بأنه أفلح فى اقناع أكثر الدائنين بالتنازل عن كمبيالاتهم فى مقابل الحصول على عشرة فى المائة ، فأجابه جرانديه بأنه لايزال أمامه أن يسوى مسألة المسجل وسمسار البورصة اللذين كان فشلهما سببا فى وفاة أخيه . وهما الآن موسران ، ومن ثم ينبغى اتخاذ الاجراءات القانونية ضدهما لاسترداد ما يمكن استرداده منهما .. وتخفيض العجز الذى تحمله الى أقل حد ممكن !

وقرب نهاية السنة الرابعة كان ذلك العجز قد تضاءل الى مليون ومائتى ألف من الفرنكات ، فبدا ان الحد الادنى المرموق قد تحقق أخيرا . وانقضت ستة أشهر أخرى فى مفاوضات واتصالات بين الدائنين والضامنين ، وبين هذين وجرانديه .. وفى الشهر التاسع من تلك السنة ، وبعد ضغط شديد على جرانديه ، أعلن أن ابن أخيه شارل ــ الذى كان قد جمع ثروة طائلة فى

جزر الهند الشرقية ـ قد أخطره بأنه اعتزم مواجهةجميع مطالب الدائنين قبل مؤسسة أبيه التجارية ، ولما لم يكن فى وسعه أن يتحمل مسئولية التصرف فى هذا الامر نيابة عن ابن أخيه ، أو أن يخدعهم بانهاء المسألة قبل استشارته ، فانه كتب اليه يستطلع رأيه فى هذا الامر .. وهو ينتظر منه ردا !

وحل منتصف السنة الخامسة ، والدائنون ما زالوا يسعون وراء سراب الكلمات المعسولة والامانى العذبة التى يخدر بها أعصابهم ثم يسخر فيما بينه وبين نفسه من غبائهم

والواقع ان القدر كان يدخر للدائنين التعساء « استشهادا » لم يسمع بمثله فى تاريخ التجارة والاتجار .. فقد ارتفعت أسعار السندات بعد ذلك فباع جرانديه ما عنده منها ، وتلقى من باريس مليونين وأربعمائة ألف فرنك ، ذهبا !.. ذهبت راسا الى خزائنه لتؤنس وحشة كنزه القديم مع الستمائة ألف فرنك قيمة الفوائد التىدرها عليه استثمار بعضأمواله !

وبقى دى جراسان فى باريس لاسباب عدة : أولها انه صار نائبا .. ولعل أهمها انه كان قد ضاق بالحياة المملة فى سومور ، ووقع فى براثن فتنة « الآنسة فلورين » أجمل ممثلات مسرح « مدام »

والواقع انه كان فى سومور معروفا بشدة مجونه وتبذله واسرافه ، ولولا ان زوجته كانت واسعة الصدر الى أبعد حد لما احتملت مذلة المضى فى حياتها معه وحملها اسمه وكفى !.. كما كان منحسن حظها انها استطاعت انتشال ما تبقى من ثروتها التى بددها الزوج الماجن على ملذاته !

وطبيعى ان وضع الزوجة هكذا فى حكم « الارملة » كان وضعا زائفا .. وقد فعل آل كروشو كلما فى وسعهم لكى يزيدوا الموقف حرجا ، ولكى تفقد المسكينة كل أمل لها فى صفقة زواج ابنها من أوجينى ابنة جرانديه.. كما اضطرت من قبل الى تزويج ابنتها أسوأ زيجة !

أما ابنها ادولف فقد ذهب ليلحق بأبيه فى باريس .. وهناك اكتسب سمعة لايحسد عليها . وبذلك تم انتصار آل كروشو على غرمائهم على الوجه الأكمل !

وقال جرانديه وهو يعقد لمدام جراسان قرضا ماليا أخذ عليه الضمانات الكافية :

ــ يبدو أن زوجك قد فقد اتزانه تماما .. انى آسف حقا من أجلك ، فانك امرأة ظريفة جدا !

فتنهدت المسكينة وأجابته :

ــ آه ، من كان يصدق يوم أن هرع الى باريس ليدبر أعمالك تلك انه انما يسعى الى دماره بقدميه ؟!

ــ السماء تشهد يا سيدتى أنى بذلت كل ما فى وسعى ــ حتى آخر

لحظة ـ كي امنعه يومئذ من السفر ، فقــد كان القاضى كروشو يتحرق شوقا للسفر بدلا منه كما تذكرين .. لكننا فهمنا الآن سر تهالك زوجك يومئذ على الذهاب !

وبذلك أعفى جرانديه نفسه ـ كما هو واضح ـ من أى التزام نحو المرأة المسكينة !



فى اليوم التالى لرحيل شارل عادت الحيــاة فى منزل آل جرانديه الى سابق عهدها ، فلم يطرأ عليها أى تغيير الا فى نظر أوجينى التى بدا المنزل لها على حين غرة فارغا خاويا ..!

ورأت الفتاة أن تبقى غرفة ابن عمها على حالها كما تركها..واستسلمت أمها وخادمتها نانون لنزوتها هذه ، ولم تفضحاها عند أبيها !.. وكانت أوجينى تقول فى تبرير هذه النزوة :

ــ من يدرى .. قد يعود شارل الينا بأسرع مما نعتقد !

فتجيبها نانون : « كم أود لو يعود !.. لقد ألفته وكنت على تفاهم تام معه فى كل شىء . انه كان ظريفا جدا ، ومثالا (للجنتلمان) .. فضلا عن جمال شكله ومظهره . كان شعره المجعد أشبه بشعر فتاة ! »

وكانت أوجينى تنظر الى نانون محدقة ، فهتفت هذه بها : « يا للعذراء المقدسة !. انك يا آنستى بهذه النظرة التى فى عينيك كفيلة بأن تفقــدى رشدك ! »

ومنذ ذلك اليوم اتخذ جمال أوجينى طابعا آخر .. فان أفكار الحب الخطيرة التى تغلغلت فى روحها بالتدريج ، ووقار المرأة المعشوقة الذى صار لها ، قد أضفيا على وجهها ذلك الاشراق الذى يصوره الرسامون الخالدون فى لوحاتهم !

وفى اليوم التالى لرحيل شارل مضت أوجينى الى الــكنيسة ــ كمــا اعتزمت أن تفعل كل يوم ــ وفى طريق عودتها ابتاعت خريطــة للعالم من المكتبة الوحيدة فى البلدة .. ثم ثبتتها بدبوس الى جدار مرآة زينتها ، كى تتتبع عليها مراحل رحلة ابن عمها ، وتكون الى جواره ليل نهار ، فتراه وتسأله : « هل أنت بخير ؟.. ألست حزينا ؟.. هل أطوف بفكرك حين ترى النجمة التى حدثتنى عنها ؟ »

وفى كل صباح اعتادت أن تجلس كالحالمة تحت شجرة الجوز الكبيرة ، فوق المقعد الخشبى العتيق المتآكل حيث ألفا أن يجلسا ليتحدثا فى رفق وحماقة ، ويبنيا قصورا جميلة فى الهــواء !.. وكانت نانون تؤمن بأن اخلاصها لواجبهــا نحو سيدها لا يحول بينهــا وبين الاحساس بمتاعب

سيدتها الصغيرة ومشاركتها اياها .. فكانت تقول لها احيانا :

ـ لو كان لى حبيب لكنت تبعته الى أقاصي الارض بل الى الجحيم !.. ولكن ، ما من فرصة لاحت لى !.. ولسوف أموت دون أن أعرف الحياة . فهل تصدقين يا آنسة ، أن ذلك العجوز كورنوايه يحوم حولى من أجل نقودى التى ادخرها .. مثل سائر الذين يجيئون الى هنا ويخطبون ودك طمعا فى أموال سيدى !

وعلى هـذه الوتيرة انقضى شهران .. وقد أضفى السر الذى يربط النسوة الثلاث متعة جديدة على حياتهن التى كانت فى الماضى جد مملة !

وكانت أوجينى تفتح الصندوق الصـغير الذى أهداها اياه كل صباح ومساء كى تمعن النظر الى صورة أمه

وذات صباح ، يوم أحد ، دخلت أمها غرفتها على حين غرة.. ففاجأتها تتأمل الشبه الذى بين شارل وصورة أمه ... ويومئذ وقفت مدام جرانديه لأول مرة على السر الرهيب .. سر تصرف أوجينى فى كنز ذهبها المخبوء وأخذها صندوق الفتى بدلا منه !

وصاحت الأم مذعورة : « أتركته يحصل على كل ما تملكين ؟.. وماذا ستقولين لأبيك يوم رأس السنة حين يسألك أن تريه ذهبك ، كعادته كل عام ؟ ! »

حملقت أوجينى فى الفضاء بنظرة جوفاء . ان فظاعة هـذه الفكرة قد استولت على المرأتين بحيث لم تنتبها من حيرتهما الا وقد فات موعد الكنيسة !

وكان عام ١٨١٩ قد اقترب من نهايته ، ولم تبق منه غير أيام ثلاثة تبدأ بعدها الدراما الرهيبة

وتساءلت مدام جرانديه وهى تضع الصـوف الذى تنسـجه فوق ركبتيها : « ماذا يكون مصيرنا ؟ »

يا للأم المسكينة ! ان أحداث الشهرين الماضيين قد عاقتهـا عن اتمام الصدارى الصوفية التى كانت تصنعها لأجل فصل الشتاء ، وهو أمر كفيل بأن يجلب عليها كثيرا من المتاعب .. ففى العام الماضى أصيبت ببرد شديد بسبب حاجتها الى شيء تتدثر به من العرق على أثر نوبة غضب مروعة من نوبات زوجها !

وعادت الأم تقول لابنتها : « يا طفلتى العزيزة المسكينة .. لو انك قلت لى شيئا عن هذا الموضوع ، لاتسع لنا الوقت كى نكتب الى مسـيو دى جراسان فى باريس ليرسل لنا بعض القطع الذهبية الشبيهة بالتى كانت عندك . ورغم ان أباك يعرف شكلها بالضبط فقد كان يحتمل أن يسهو ! »

ـ ولكن من أين كنا نحصل على كل هذه النقود ؟

ـ كنت أحصل عليها لحسابى ، فما كان مسيو دى جراسان ليرفض أن يؤدى لنا هذه الخدمة ..

ـ لم يبق وقت للاتصال به على أية حال .. ففى صباح غد ينبغى أن نذهب الى غرفته لنتمنى له عاما سعيدا .. أليس كذلك ؟

ـ أواه يا أوجينى .. لم لا نلجأ الى آل كروشو فى هذا الشأن ؟

ـ كلا ، كلا .. هذا يعنى اننا نضع أنفسنا تحت رحمتهم .. اننى أصير عندئذ فى قبضتهم تماما ، ثم انى قد قررت أمرى وأرى أنى قد تصرفت تصرفا صائبـا ولست نادمة على شيء .. ولسوف يحمينى الله ، فلتكن مشيئته الالهية .. آه ، لو أنك قرأت ذلك الخطاب يا أماه ، لما فكرت فى غير انقاذه من ورطته !



وفى صباح اليوم التالى ، اول يناير سنة ١٨٢٠ ، كانت الام والابنة فى حالة من الفزع والخوف لا يمكن وصفها ، لم تجـرؤ احداهما على زيارة جرانديه فى حجرته كعادتهما كى يهنئاه بالعام الجديد .. ووجدتا فى سوء حالة الطقس حجة وعذرا تبرران بها عدم الزيارة ، فقد كان شـتاء ذلك العام أبرد شتاء منذ أعوام !

لكن مدام جرانديه اضطرت لان تنادى زوجها منذ سمعت صوته،صائحة به : « دع نانون توقد لى نارا هنا ، فالهواء قارس بحيث انى ارتجف تحت أغطيتى . وفى سنى هذه ينبغى أن أعنى بنفسى » .. ثم أضافت بعد برهة : « ثم ان أوجينى ستأتى لترتدى ثيابها هنا ، فانها لو خلعتها فى حجرتها الباردة الرطبة لاصابها سوء . ولسوف تهبط الى حجرة الجلوس فى الطابق الاسفل ونهنئك بالعام الجديد هناك الى جوار النار .. »

فأجابها الرجل متعجبا : «ماهذه الفصاحة والذلاقة يا مدام جرانديه !.. واى أسلوب تستهلين به العام الجديد !.. انك لم تقولى كل هذا الكلام فى حياتك من قبل .. هل غمست خبزك فى النبيذ يا امرأة ؟! »

ـ وسادت فترة صمت ، استطرد الرجل بعدها وقد بدا أن اقتراح زوجته قد صادف هوى فى نفسه :

ـ حسنا !. سوف أفعل ما تطلبين يا مدام جرانديه . انك حقا امرأة طيبة ، ولسوف يسوؤنى أن تنطفىء حياتك قبل الاوان ، وأن تكن القاعدة أن نسل آل « برتيير » يعيشون طويلا .. أليس كذلك ؟

ثم صاح بعد فترة صمت ، وهو يسعل :

ـ لقد فقدوا مالهم فى آخر أيامهم ، وانى لاغفر لهم !

فقالت له الزوجة المسكينة : « انك صافى المزاج هذا الصباح »

فقال : « انى دائما صافى المزاج ! »

وكان قد فرغ من ارتداء ثيابه ، فجاء الى حجرة زوجته يقول : « انه يوم بارد حقا !.. لكنا سوف نتناول افطارا شهيا يا امرأتي ، فقد ارسل لي دي جراسان من باريس فطيرة محشوة (بالفواجرا) وسأذهب فورا الى محطة عربات السفر لاتسلمها »

ثم قبل الرجل جبين زوجته احتفالا بالعام الجديد ، ومضى في سبيله !

وقالت هي لأوجيني : « لست أدري على اى جانب من الفراش نام أبوك الليلة ، فانه صافي المزاج هذا الصباح ! »

ثم دخلت نانون لتوقد النار ، فهتفت مندهشة :

ـ ماذا يمكن أن يكون قد اعترى سيدي ؟.. لقد ابتدرني حين رآني قائلا: (صباح الخير أيتها الحمقاء الكبيرة ، وعام سعيد !.. اصعدي الى أعلى وأوقدي نارا في حجرة زوجتي ، فانها تحس بالبرد) .. وقد حسبتني أحلم ولم أصدق عيني عندما رايته يمد الى يده بستة فرنكات جديدة . انظري يا مدام جرانديه !.. أوه ، انه رجل طيب حقا . وهناك اناس يغدون قساة القلوب كلما تقدموا في السن ، لكنه يزداد رقة وعذوبة ، مثل الخمر التي تزداد جودة بمضي السنين ! انه رجل طيب رائع !

وكانت علة صفاء مزاج جرانديه أن خطته التي رسمها قد نجحت تماما .. فبعد أن خصم دي جراسان عدة مبالغ كان زارع الكروم مدينا بها له ، أرسل اليه بالعربة مبلغ ثلاثين الف فرنك نقدا .. كما أخبره أن أسعار السندات في ارتفاع منتظم .. وقد ربح جرانديه من ذلك في مدى شهرين ما يوازي اثنى عشر في المائة من رأسماله ، وقوى رصيده ..ومنذ الآن سوف يتلقى خمسين الف فرنك كل ستة أشهر خالصة من الضرائب وما يماثلها . وهكذا ضاعف ما يملك ، في خلال خمس سنوات الى ستة ملايين من الفرنكات !.. ستة ملايين سوف تتضاعف بدورها دون أى عناء أو مجهود من جانبه .. ستة ملايين فرنك !.. هذا فضلا عن عقاراته التي يملكها !

وكان أصحاب الحوانيت يتهامسون فيما بينهم قائلين وهم يفتحون أبوابهم لاستقبال العام الجديد : « أوهوه !.. ترى الى أى شيء يسعى جرانديه ؟ انه يعدو كما لو كانت النار قد شبت في مكان ما ودعى لاطفائها ! »

وبعد فترة وجيزة رأوه عائدا من الرصيف يتبعه حمال من ادارة مكتب عربات السفر يجر عربة يد قد كومت فوقها الحقائب الصغيرة !

وقال له جاره تاجر الاقمشة : « اذا كان لديك من هذه الاشياء مزيد أنت في غنى عنه ، ففي استطاعتي مساعدتك على التخلص منه ! »

فأجابه زارع الكروم : « انها أوان نحاسية »

فقال الحارس في صوت خفيض : « انه يعني : فضية ! »

واذ ذاك صاح به الرجل وهو يفتح الباب :
ـ امسك لسانك يا هذا ، اذا أردتنى أن أذكرك بالحسنى !
فقال الحارس يحدث نفسه : « يا للثعلب الماكر !. لقد حسبته أصم ! »
وهنا ناوله سيده فرنكا قائلا : « اليك هذا ، هدية منى بمناسبة رأس السنة ، وصن لسانك بصدد هذا .. أغرب عن وجهى !.. ولسوف تعيد نانون العربة الفارغة »
ثم سأل نانون : « هل ذهبت سيدتك الى الكنيسة ؟ » فلما أجابت موافقة قال لها : « اذن تعالى ساعدينى فى حمل هذه الحقائب »
ثم حملها الحقائب .. وبعد لحظات كانت الثروة الذهبية التىأرسلها دى جراسان قد نقلت فى أمان الى غرفته ، حيث أغلق على نفسه الباب ليفحصها ويشبع عينيه منها !
وصاح بالخادمة من وراء الباب : « اطرقى الباب حين تعدين الافطار .. وأعيدى عربة اليد الفارغة الى محطة عربات السفر »
ولم تجلس الاسرة للافطار قبل الساعة العاشرة . وقالت مدام جرانديه لابنتها حين عادتا من الكنيسة :
ـ لن يطلب أبوك أن يرى ذهبك الآن .. واذا فعل ففى امكانك أن تتكلفى الرعدة وتحتجى بأن الطقس أبرد من أن يسمح لك بالصعود خصيصا من أجل غرض تافه كهذا . وسوف ندبر أمر الحصول على النقود من جديد قبل يوم عيد ميلادك !
وحين هبط جرانديه من صومعته كان رأسه ممتلئا بالخطط الخاصة بتحويل القطع النقدية من فئة الخمسة فرنكات التى تلقاها هذا الصباح من باريس الى نقود ذهبية ..!
ولم يكد يدخل قاعة الطعام حتى أعربت له زوجته وابنته عن أطيب أمانيهما له فى العام الجديد
وقال الرجل وهو يقبل بدوره ابنته على خديها :
ـ آها يا بنتى .. انى أفكر وأعمل من أجلك ، أتفهمين ؟.. فأنا أريدك أن تكونى سعيدة ، ولكى تكونى سعيدة ينبغى أن يتوافر لك المال ، فأنت بغيره لا تستطيعين الحصول على شىء .. وليس فى البيت نقود ذهبية سوى نقودك . أنت الوحيدة التى تملكين الذهب .. دعينى أر ذهبك يا فتاتى !
فأجابت أوجينى : « ان البرد شديد .. فلنتناول افطارنا ! »
ـ حسنا ، اذن فسوف نلقىعليه نظرة بعد الافطار . ذلك مفيد للهضم . ان دى جراسان العظيم قد أرسل الينا هذه الفطائر ، فانعمن بافطاركن ، فانه لم يكلفنا شيئا ! .. ان دى جراسان يتصرف بحكمة،وأنا مسرور منه.

انه يؤدى لشارل خدمة كبرى بغير مقابل ... والواقع انه يدير شؤون أخى العزيز المسكين ببراعة !

ثم صاح وفمه مملوء بالفطائر : « انها لذيذة ، كلى يا زوجتى ، فعندنا منها ما يكفينا يومين على الاقل ! »

وما كان السجين الخائف من ميتة علنية شائنة ليرتجف هلعا وينتظر مصيره المحتوم بأفظع من الرعب الذى احسبته أوجينى وأمها وهما تتوقعان انتهاء الافطار !.. وكلما ثرثر الرجل وأكل وقد ازداد مرحه وصخبه،غاص قلباهما بين جنبيهما اشفاقا من العاقبة واجفالا .. لكن الفتاة كان لها فى هذه المحنة شيء من العون فى حبها القوى الذى يعمر قلبها .. فكانت تحدث نفسها بمثل هذا القول : « انى على استعداد لان أموت ألف مرة من اجله ، نعم من أجله ! » ..وبين حين وآخر كانت ترفع بصرها الى امها وفى عينيها نظرة ملؤها الشجاعة والتحدى ..!

وحوالى الساعة الحادية عشرة فرغوا من افطارهم ، فقال جرانديه لنانون : « ارفعى أدوات المائدة وبقايا الطعام » . ثم أردف وهو يلتفت الى أوجينى :

ــ والآن يمكننا أن نلقى نظرة على كنزك الذهبى الصغير وقد امتلأت بطوننا .. هل قلت كنزك « الصغير » ؟ . معذرة ، فوالله أنه ليس بالذى يستهان به ... ان نقودك تساوى فى الواقع خمسة آلاف وسبعمائةوتسعة وخمسين فرنكا .. فاذا اضفنا اليها اربعين فرنكا اخرى هذا الصباح صار مجموعها ستة آلاف الا فرنكا واحدا !.. ولا بأس بأن أعطيك هذا الفرنك الناقص كى أكمل الرقم !

ثم التفت الى نانون فجأة وقال لها : « لماذا تصغين الينا هكذا ؟! هيــا اذهبى من هنا واعكفى على عملك .. ! »

واختفت نانون على الاثر .. فاستطرد البخيل :

ــ اصغى الى يا أوجينى ، ينبغى ان أرى ذهبك الآن . انك لن ترفضى أن تحضريه الى أبيك الحبيب ؟ أليس كذلك أيتها الابنة الصغيرة ؟

لكن واحدة من المراتين لم تنبس بكلمة !.. بينما استمر الاب يثرثر: « لم يبق فى حوزتى أى ذهب . كان عندى شيء منه فى الماضى ! لذلك سأعطيك ستة آلاف فرنك من الفضة بدلا منه وآخذ الذهب لأستغله لك . وسأشرح لك طريقة ذلك .. فأولا لا حاجة بك الى ان تفكرى فى أمر (الدوطة) فانك عندما يحين أوان زواجك ــ فى القريب ــ سوف أبحث لك عن زوج يدفع لك أغلى مهر سمع به أحد فى المنطقة كلها !.. اما الآن فهناك فرصة رائعة سانحة نستطيع بها استغلال الستة آلاف فرنك الى تملكينها فى سنــدات حكومية . وحين توزع الارباح ، كل ستة أشهر ، تحصلين على مائتى فرنك خالصة من الضرائب ، بل خالصة من كل شوائب استثمار المال فى الزراعة ، مثل الصقيع أو الدودة وما الى ذلك من العوامل المؤثرة فى استغلال الاراضى .. هل ترفضين التخلى عن ذهبك ، أهذا صحيح يا ابنتى ؟ على كل حال

دعيني أحصل عليه ، وسوف أعوضك بدلا منه نقودا ذهبية من عملة هولندا والبرتغال .. أما النقود التى سأعطيك اياها فى الاعياد فسوف يتجمع لك نصف كنزك الصغير مرة أخرى فى خلال ثلاثة أعوام ، وهذا عدا الستة آلاف فرنك المستغلة فى السندات .. ما قولك فى هذا يا فتاة ؟ اسمعى يا طفلتى .. هيا ، هيا ، أحضرى النقود .. انك مدينة لى بقبلة طيبة مقابل اطلاعك على أسرار العمل وخفايا الحياة والموت للقطع ذات الخمسة فرنكات !.. نعم ، ان العملة تعيش وتموت وتروح وتجيء وتعرق وتتكاثر مثل الانسان سواء بسواء ! »

نهضت أوجيني وخطت بضع خطوات الى الامام نحو الباب ... ثم استدارت عائدة فى حركة فجائيــة ، ونظرت الى أبيها وجهــا لوجه .. وقالت له :

ــ ان ذهبى كله قد ذهب .. لم يبق لى منه شيء !

فكرر جرانديه عبارتها وهو يهب من مقعده كما تجفل الجياد حين تنطلق المدافع على قيد خطوات منها :

ــ كل ذهبك قد ذهب ؟ !

ــ نعم كله .. !

ــ أوجينى ... انك تحلمين !

ــ كلا ! .

ــ أقسم بأبى ..

وكان الأب اذا أطلق من فمه هذا القسم ، اهتزت الارض والســقف والجدران ، وكأنما قد زلزلت الارض زلزالها !.. وصاحت نانون :

ــ يا الهى ارحمنا .. ما أشد شحوب وجه سيدتى !

وهتفت الزوجة المسكينة بزوجها :

ــ جرانديه ، انك سوف تقتلنى بنوبات غضبك هذه !

ــ لن يموت أحد من أسرتك !.. والآن تكلمى يا أوجينى : ماذا فعلت بنقودك ؟

واستدار ليواجه ابنته وقد استشاط غضبا .. فركعت الفتــاة على ركبتيها بجوار أمها ، وهتفت تناشده :

ــ اسمع يا سيدى ، ان امى مريضة جدا .. فلا تقتلها !

وانزعج جرانديه وهو يرى بشرة زوجته القاتمة الصفراء قد استحالت فى بياض بشرة الاموات !.. بينما قالت هذه تنادى الخادمة بصوت واهن :

ــ نانون ، تعالى وأعينينى على الوصول الى فراشى .. ان هذا يقتلنى قتلا !

فمدت نانون ذراعها الى سيدتها من ناحية ، بينما أعانت أوجينى أمها من الناحية الاخرى ... لكن الموكب لم يبلغ مخدع المريضة الا بأشد مشقة، فان

قوى المسكينة قد خذلتها تماما ، فكانت تتهالك على كل درجة من درجات السلم !

أما جرانديه فقد ترك وحده فى الطابق الاسفل .. فلم تمض برهة حتى صعد نصف درجات السلم الى الطابق العلوى ، وصاح :

ـ أوجينى !.. عودى الى هنا بمجرد أن تأوى أمك الى فراشها

ـ سأعود يا أبى ..

وحينما عادت اليه ، بعد أن كفلت راحة أمها فى فراشها بقدر الامكان ، قال لها :

ـ والآن يا ابنتى ، قولى لى أين ذهبت نقودك ؟

فأجابت أوجينى فى برود :

ـ اذا لم أكن حرة تمام الحرية فى أن أتصرف فى هداياك لى كما أشاء يا أبى ، فالافضل أن تستردها ثانية !

ومضت الى رف المدفأة فتناولت من فوقه آخر هدية كان أبوها قد أهداها اياها ، واعادتها اليه ... فاقتنصها فى كفه ودسها فى جيب سترته .. ثم قال لها :

ـ لن أعطيك هدية ما بعد الآن .. أو تجرؤين على معاملة أبيك بهذه الكيفية ؟.. أو لا تثقين فيه ؟ الا تعرفين مكانة الأب وما له من احترام ؟.. اذا لم يكن هو كل شيء بالنسبة لك ، فهو لاشيء على الاطلاق !.. والآن ، أين ذهبك ؟

ـ انى أحترمك وأحبك يا أبى ، برغم نوبات غضبك ... لكنى أذكرك فى تواضع وأدب جم بأننى فى الثانية والعشرين من عمرى .. ولقد قلت لى مرارا انى فى سن ينبغى فيها أن أدرك كل شيء .. ولقد تصرفت فى مالى كما تراءى لى .. فلتكن على ثقة من انه فى أيد أمينة !

ـ أيدى من ؟

ـ هذا سرى الذى أحرص على كتمانه.. أليست لك أسرارك التى تكتمها؟

ـ ألست رب العائلة ؟ أليس من حقى أن أحتفظ بأسرار عملى ؟

ـ هذا بدوره من أسرارى الخاصة !

ـ لابد انه أمر شائن جدا يا آنسة جرانديه ؟ مادمت لا تجرؤين على مصارحة أبيك به !

ـ كلا انه أمر ليس فيه قط ما يشين ، ومع ذلك فانى لا أستطيع أن اصارح أبى به !

ـ قولى لى على الأقل : متى تصرفت فى ذهبك ؟

لكن الفتاة هزت رأسها مصرة على الصمت !

ـ انه كان ما يزال فى حوزتك يوم عيد ميلادك ، أليس كذلك ؟

ولكن لئن كان الجشع والبخل قد جعلا من أبيها ماكرا .. فان الحب قد علم أوجينى كيف تكون حذرة .. فهزت رأسها مرة أخرى فى اصرار !..

واذ ذاك صاح جرانديه بصوت ظل يرتفع تدريجا حتى دوى رنينه فى أنحاء البيت :

ـ هل راى أحد مثل هذا العناد ، أو هذه السرقة ؟ .. ماذا ؟ أيعقل أن يأخذ شخص ذهبك منك هنا ، فى بيتى ، تحت سقفى الخاص ؟ وأى ذهب؟ كل الذهب الذى كان فى البيت!.. ثم لا اعرف من يكون هذا الشخص؟.. ان الذهب شيء ثمين ، وأحسن الفتيات يسرن فى الطريق المعوج ويلقين بأنفسهن فى هذه الهاوية أو تلك .. هذا يحدث فى أعرق العائلات .. أما أن تفرط الفتاة فى ذهبها بهذه الكيفية ، بكل بساطة ..! فأنت طبعا قد اعطيته لذلك الشخص بملء حريتك ، أليس كذلك ؟!

لكن الفتاة أبت أن تجيب بكلمة أو اشارة ! .. فمضى الأب فى صياحه :

ـ هل راى أحد ابنة مثل هذه ؟ هل يمكن أن تكونى ابنتى ؟ اذا كنت قد تصرفت فى مالك ، فلا بد أنك حصلت على ايصال به على الأقل ؟

ـ هل كنت حرة فى أن افعل به ما أشاء أم لا ؟ هل كان ملكى أم لم يكن ؟

ـ ماذا ؟ انك ما تزالين طفلة !

ـ بل أنا بالغة رشدى !

وفى البداية أفحمت جرانديه جرأة ابنته على مجادلته بهذه الطريقة !.. فشحب وجهه وجف حلقه ، لكنه وجد لسانه آخر الامر ليصيح :

ـ أيتها الحية الملعونة !.. أيتها الفتاة التعسة !.. أوه ، انك لتعرفين جيدا انى أحبك ، فتستغلين هذا الحب ! أيتها الابنة العاقة الجاحدة التى تسرق وتقتل أباها ! يا الهى !.. انك كنت كفيلة بأن تلقى بكل ما نملك عند قدمى ذلك المتشرد ذى النعلين المصنوعين من الجلد المراكشى . اقسم بأبى انى وان كنت لا أستطيع أن احرمك من الميراث فانى أستطيع على كل حال أن ألعنك !.. أنت وابن عمك .. أقسم لو كان شارل هو الذى .. ولكن ، كلا !.. هذا مستحيل !..

وحدق فى ابنته ثم استطرد :

ـ انها لا تتحرك !.. لا تنبس بكلمة ! .. انها أكثر منى صلابة وعنادا .. أنت لم تتنازلى عن ذهبك كله بلا مقابل على أية حال ، هيه ؟..هيا حدثينى بأمرك ، هيا !

نظرت أوجينى الى والدها ، فأحنقته نظرتها الساخرة

ـ أوجينى ، هذا بيتى .. وما دمت تحت سقف بيت أبيك فعليك أن تفعلى كما يطيب لابيك أن تفعلى .. الدين يأمرك بأن تطيعينى !

وحنت أوجينى رأسها مرة أخرى .. فأردف هو :

ـ انك تجرحين أرق مشاعرى !.. اغربى عن وجهى حتى تعودى الى

طاعتى . اذهبى الى غرفتك وابقى فيها حتى أسمح لك بمغادرتها . وسوف تحمل اليك نانون الخبز والماء .. أتسمعين ما أقول ؟ اذهبى !

انخرطت أوجينى فى البكاء ، وفرت الى مخدع أمها .. أما الاب فقد راح يذرع الحديقة ذهابا وايابا دون أن يشعر بالبرد أو الصقيع .. وبعد حين خطر له أن الفتاة قد تكون فى مخدع أمها ، فلذ له أن يفاجئهما متلبستين بعصيان أمره عصيانا صريحا .. فراح يتسلق السلم بخطى متلصصة كالقط ، ثم ظهر فى غرفة مدام جرانديه على حين غرة !

وكان على حق . كانت الأم تمشط شعر ابنتها ، وقد رقدت أوجينى دافنة وجهها فى صدر أمها ، وهذه تقول لها مواسية :

ــ يا طفلتى المسكينة !.. لا بأس ، سوف يعود والدك فيرق لحالك !

ففاجأهما جرانديه صائحا : «لم يعد لها والد بعد !. أحق يامدام جرانديه أننا ربينا هذه الفتاة العاصية ؟ يا لها من تربية ! ويا لها من طاعة لاوامر الدين قبل كل شىء آخر !.. حسنا ، ولكن كيف حدث انك لم تأوى الى غرفتك ؟ تعالى ، هيا الى السجن يا آنسة ! »

فقاطعته زوجته وهى ترفع نحوه وجها محتقنا وعينين لامعتين محمومتين :

ــ هل تعنى أنك تعتزم ابعاد ابنتى عنى ؟

ــ اذا أردت الاحتفاظ بها فخذيها معك واخرجا معا من البيت ... يا للهول !.. أين الذهب ؟ ماذا جرى للذهب ؟

ونهضت أوجينى على قدميها ، ونظرت الى أبيها فى اعتداد ، ثم مضت الى مخدعها .. فلم تكد تدخله حتى أدار أبوها المفتاح فى قفل الباب !. ثم صاح بالخادمة : « نانون .. أطفئى النار فى الردهة ! »

وعاد فجلس فى مقعد مريح بين المدفأة وبين فراش زوجته ، وقال لها : « لا شك أنها أعطت ذهبها لذلك الأفعوان التعس شارل ، الذى لم يأبه لغير ما لنا ! »

وكأن حب مدام جرانديه لابنتها زود قلبها بشجاعةجديدة فى وجه الخطر ، فلاذت بالصمت المطبق ، متظاهرة بالصمم والخرس والعمى عن كل ما انطوى عليه قوله !.. بل تقلبت فى فراشها بحيث تتجنب وميض الغضب فى عينيه !

واخيرا قالت له : « لست أعرف شيئا عن هذا الموضوع .. وغضبك يمرضنى الى حد أنه لو صدق حدسى فانى لن أبرح هذه الغرفة الا حين يحملوننى الى القبر !.. وأعتقد أنه كان ينبغى أن تجنبنى هذا المشهد ، فانى قد حرصت دائما ــ مهما تكن الظروف ــ على ألا أثير أعصابك .. ان ابنتك تحبك ، وأنا واثقة من أنها بريئة براءة الطفل الوليد .. فبالله لا تسبب لها التعاسة ، واعدل عن عقابك لها .. ان البرد فى غرفتها قاس جدا وقد يورثها مرضا خطيرا ..! »

ـ انى لن أراها أو أتحدث اليها .. وستظل سجينة هكذا فى غرفتها ، تعيش على الخبز والماء حتى تتعلم كيف تطيع أباها ... يا للشيطان !.. ان رب العائلة يجب أن يعلم بخروج الذهب من بيته ، ويكون على بينة من المكان الذى يذهب اليه !

ـ ان أوجينى هى وحيدتنا ، وهى لو قذفت بذهبها الى البحر فان ...

فصرخ الرجل كالرعد القاصف :

ـ الى البحر ؟ !.. الى البحر ؟ !.. انك تهرفين يا مدام جرانديه . انى حين أقول شيئا فأنا أعنيه كما تعلمين جيدا .. فاذا أردت أن يسود السلام هذا البيت فلتحمليها على الاعتراف لك بما فعلت . انتزعى هذا السر منها بأية طريقة .. فالنساء يفهم بعضهن بعضا ، وهن أبرع منا فى هذه الأمور .. ومهما تكن قد فعلت فانى لن آكلها بطبيعة الحال !.. هل هى خائفة منى ؟.. اذا كانت قد أغرقت ابن عمها بالذهب من هامة رأسه الى اخمص قدميه فهو الآن آمن فى عرض البحر ، ولن نستطيع اللحاق به !

ـ حقا يا سيدى ...

بدأت مدام جرانديه تجيبه .. وكانت نفسيتها قد تطورت أثناء هذه المحنة التى تعرضت لها ابنتها ، فأرهف احساسها اكثر من ذى قبل ، وازدادت سرعة أفكارها . . أو لعل الانفعال والارهاق اللذين أصابا أعصابها قد أضفيا على قواها الذهنية حدة مضاعفة .. فلم تكد تلمح شفتيه تختلجان فى عصبية تنبىء بالشر حتى غيرت الكلام الذى كانت تعتزم قوله دون أن يبدو التغير على لهجتها أو صوتها :

ـ أحقا يا سيدى ان لى عليها من النفوذ والتأثير أكثر مما لك ؟. انها لم تحدثنى بكلمة عن الأمر !

ـ يا للسماء ! ما للسانك معلقا فى حلقك هذا الصباح .. انك تكادين تبصقين فى وجهى .. من يدرى ، لعلكما قد تضامنتما وتآمرتما معا فى هذه المسألة ؟

وحدق فى زوجته ليستظهر ما فى باطن أعماقها !.. بينما أجابت هى : « حقا يا مسيو جرانديه انك ان أردت أن تقتلنى ، فما عليك الا أن تمضى فيما أنت فاعل .. أقول لك يا سيدى ـ ولو كلفنى الأمر حياتى فلن أحجم عن القول ـ انك قاس على ابنتك . انها أرهف منك حساسية وارق ، والمال كان يخصها ، ولا يمكن الا أن تكون قد استغلته على وجه مرض ، وان أعمالنا الطيبة وحسناتنا ينبغى ألا يعلمها غير الله وحده !.. سيدى ، أتوسل اليك أن تعفو عن أوجينى ، فهذا من شأنه أن يخفف من وقع الصدمة التى يحدثها غضبك فى أعصابى وصحتى ، ولعله ينقذ حياتى !.. ابنتى ، يا سيدى أعد الى ابنتى ! »

لكنه أجابها : « لقد ضقت ذرعا !.. ان الحال صارت لا تحتمل فى هذا

البيت . وعندما تتكلم الأم والابنة وتجادلان كأنما ... أف ، يا لهــا من هدية مريرة هذه التى أهديتمانى اياها فى رأس السنة ! »

ثم نادى ابنته من مكانه :

ــ أوجينى ! ابكى ، ابكى ، انك سوف تكفرين عما فعلت ، أتسمعين ؟. ما جدوى ممارستك لفرائض الدين بدقة اذا كنت تفرطين فى ذهب أبيك خلسة لنذل عاطل سوف يحطم قلبك حين لا يبقى لك مال تمنحينه اياه ؟ انك ستعرفين حقيقة فتاك شارل هذا ، بنعليه المراكشيين وشعره المصفف. انه مجرد من القلب ومن الضمير أيضا ، ما دام يجرؤ على أخذ نقود فتاة مسكينة دون موافقة والديها !

.. ثم خرج جرانديه الى عمله .. وما كاد يغلق البــاب وراءه حتى تسللت أوجينى من حجرتهــا وجاءت الى جوار فراش والدتهــا .. ثم ابتدرتها قائلة : « لقــد كنت شجاعة غاية الشجاعة فى الدفاع عن ابنتك يا أماه ! »

ــ أرأيت الام تقودنا الطرق الملتوية يا ابنتى ؟ لقــد اضطررتنى الى أن انطق بأكذوبة ؟

ــ أواه يا أمى ، انى سأصلى لله كى يوقع عقابه من أجل ذلك على أنا !

فتساءلت نانون وهى تصعد السلم اليهما وقد بدا عليها الضيق والألم :

ــ هل صحيح ان الآنســـة سوف تعيش على الخبز والمــاء حتى آخر حياتها ؟

فقالت لها أوجينى فى هدوء : « وماذا فى ذلك ؟ »

ــ كيف ؟ وهل يعقل أن آكل أطايب الطعام بينما ابنة البيت تأكل الخبز الجاف .. كلا ! هذا لا يمكن أن يستمر !

فقالت أوجينى محذرة : « حذار أن تقولى كلمة فى هذا الشأن ! »

ــ ان الطعام سوف يقف فى حلقى اذا حدث ذلك .. لكنك سوف ترين



ولأول مرة منذ اربع وعشرين سنة تناول جرانديه الطعام وحده فى ذلك اليوم !.. فقالت له نانون :

ــ اذن فهكذا أنت كالأرمل يا سيدى . ان الأمر مؤلم أن يكون المرء أرملا فى حين أن زوجته وابنته مقيمتان بالبيت على قيد خطوات منه !

ــ انى لم أتحدث اليك ؟. هل فعلت ؟ احفظى لسانك صامتا فى فمك والا كان عليك أن تذهبى . ما هذا الذى أسمعه يغلى فى القدر على النار ؟

ــ بعض الدهن أعده للطعام ..

ـ سوف يحضر بعض الضيوف هذا المساء .. أوقدى النار فى المدفأة !

وحوالى الساعة الثامنة أقبل آل كروشو ، ومدام دى جراسان وابنها.. وشدما كانت دهشتهم اذ لم يجدوا فى استقبالهم سواه ، فلما استفسروا عن زوجته وابنته أجاب وليس على وجهه أدنى أثر للارتباك :

ـ زوجتى ليست على ما يرام اليوم ، وأوجينى تلازمها !

وقضى الضيوف ساعة فى أحاديث تافهة ، وصعدت مدام دى جراسان خلال ذلك الى حجرة مدام جرانديه لتستفسر عن صحتها ، فلما هبطت من عندها استقبلها الجميع متسائلين : « كيف حال مدام جرانديه ؟ »

فأجابت المرأة واجمة : « انها فى حالة سيئة !. وينبغى أن يعنى بها أعظم العناية »

فأجاب زارع الكروم فى غير مبالاة : « سوف نرى ما يمكن عمله ! »

وما كاد الضيوف يغادرون الدار حتى قالت لهم مدام دى جراسان :

ـ ان شيئا لا بد قد حدث بين آل جرانديه .. فالأم مريضة جدا ، الى درجة لا تدرك هى نفسها مداها !.. وعينا الفتاة حمراوان كأنهما بكت بحرقة فترة طويلة ، واذا صح ظنى فهناك محاولة لتزويجها رغم ارادتها !



تسللت نانون الى حجرة أوجينى بعد أن أوى سيدها الى فراشه فى تلك الليلة وقدمت لها فطيرة كانت قد صنعتها بالدهن قائلة لها : « هذه الفطيرة تكفيك حوالى أسبوع ، ولا خوف من أن تفسد فى هذا الصقيع . ولقد جعلتها لذيذة الطعم اذ اشتريت الدهن وما اليه من الفرنكات الستة التى فى حوزتى . وأنا حرة بلا شك فى انفاق مالى كما أشاء ! »

ثم لاذت الخادمة بالفرار ، قبل أن تسمع بقية العبارة التى شكرتها بها الفتاة ، اذ خيل لها أنها سمعت صوت جرانديه فى الطابق الأرضى !

وانقضت بضعة أشهر .. كان جرانديه خلالها يعود زوجته المريضة فى غرفتها فى أوقات مختلفة من النهار ، أما ابنته فلم يرها قط ، ولم يرد ذكرها على لسانه

وكانت صحة مدام جرانديه تنحدر من سيىء الى أسوأ منذ لزمت مخدعها فى صباح يوم أول يناير المشئوم ، على أن زوجها بقى مع ذلك يواصل حياته على منواله المألوف بلا أدنى تغيير .. فيما عدا أنه صار قليل الكلام ، ولعل عملاءه وجدوه أيضا أشد صلابة فى مسائل العمل .. وان أخذت الأخطاء تتسلل الى دفاتر حساباته فى بعض الأحيان !

وكانت أوجينى تذهب بانتظام الى الكنيسة برفقة نانون ، وكثيرا

ما صادفتها وتحدثت معها هناك مدام دى جراسان ، ولكن الفتاة كانت حريصة دائما على التهرب من الاجابة عن أسئلتها !

واستمر الأمر كذلك حوالى شهرين ، ثم انطلق السر فجأة من مخبئه ، فعرفت المدينة بأسرها أن الفتاة منذ يوم راس السنة تعيش سجينة فى حجرتها بأمر والدها ، وانه لا يقدم لها سوى الخبز والماء ، بل لا يقدم لها اى نار للمدفأة برغم شدة الصقيع !

وقد قيل ان نانون كانت تقدم الفطائر وبعض ألوان الطعام خلسة للفتاة تحت جنح الظلام ، كما قيل ان الفتاة لا تستطيع تمريض أمها أو حتى رؤيتها الا أثناء غياب الأب عن البيت !

واشتد لوم الناس لجرانديه فى كل مجلس . . ونظر الجميع اليه كما ينظرون الى مجرم خارج على القانون . وتذكر الكثيرون قسوته فى المعاملات ، وتشككه فى نوايا سواه ، فراحوا يتهامسون عنه ويشيرون اليه والى ابنته كلما رأوه أو رأوها فى طريقها الى الكنيسة مع خادمتها نانون !

وكان سجن الفتاة وغضب أبيها عليها فى المرتبة الأخيرة من اهتمامها ، فقد كانت هناك خريطة العالم أمام عينيها تنظر اليها كلما أضناها الشوق الى شارل . . وكان فى استطاعتها اذ تجلس الى نافذة غرفتها أن ترى المقعد الخشبى والجدار العتيق وممashى الحديقة فتذكرها بتلك القبلات الحلوة الرائعة . . وهكذا استطاعت بفضل قوة الحب وايمانها ببراءتها التامة أن تحتمل فى صبر حياة العزلة فى سجنها ، وغضب أبيها عليها . . !

ولكن كان ثمة حزن آخر ، من العمق واليأس بحيث لم تستطع أوجينى أن تجد منه مهربا . ان أمها الرقيقة الصبور تضمحل رويدا رويدا ، ولكأن جمال روحها قد ازداد اشراقا وسناء فى تلك الايام التى بدت فيها تدنو شيئا فشيئا من القبر . . !

وكانت أوجينى تلوم نفسها أحيانا لوما مريرا على أنها كانت السبب المباشر – ولو عن غير قصد – فى مرض أمها ، وقد جعلها شعورها بالندم ووخز الضمير تزداد تعلقا بأمها المريضة فلا تكاد تطمئن الى خروج أبيها من الدار كل صباح حتى تهرع الى جانب فراش أمها حيث تبقى طول الوقت صامتة تجيل نظراتها بين وجهى أمها ونانون ودموعها حائرة فى عينيها . على أنَ الأم كانت كثيرا ما تسألها : « ترى أين هو شارل الآن ؟ . ولماذا لم يكتب الينا ؟ » . وهنا كانت أوجينى تجيب أمها بقولها :

– دعينا نفكر فيه من دون أن نتحدث عنه يا أماه . . انك الآن مريضة تتألمين ، وأنت بذلك أحق بكل رعاية منا واهتمام !

وكانت الأم تجيبها أحيانا قائلة : « الواقع يا بنية انه لم تبق لى أية رغبة فى أن أعيش بعد الآن ، وانى لأشكر الله الذى شاءت حكمته وعنايته ان أتطلع اليوم الى الموت فى فرح ، باعتباره نهاية آلامى ! »

وهكذا كان كل ما تنطق به الأم مفعما بالتقوى والايمان الدينى . وخلال الأشهر الأولى من السنة كان زوجها أحيانا يتناول الافطار فى مخدعها ، ثم يذرع الحجرة فى قلق وهو يسمع قولها فى رقة وحزم : « عما قريب تنتهى كل هذه الآلام ! »

وحينما كان يسألها عن صحتها كانت تجيبه بقولها :

ـ أشكرك يا سيدى على الاهتمام الذى تبديه نحو صحتى . ولكن اذا أردت حقا أن تخفف من مرارة أيامى الأخيرة ، وتجنبنى بعض آلامى .. فاصفح عن أوجينى !

وكان يكتفى بأن يقول لها : « مسكينة !.. انك تبدين اليوم شاحبة قليلا ! »

وهنا تنهمر الدموع من عينى الأم المريضة الحزينة ثم تقول له : « عسى الله أن يغفر لك ! »

ان طغيان العجوز البخيل لم تخفف من حدته رقة زوجته الملائكية . وكان وجهها الذى كان فى الماضى مفتقرا الى الجمال قد اكتسى بنور خلاب أفصحت عنه روحها الجميلة الطاهرة التى سكنت طويلا بين أفكار سامية نقية تركت طابعها على ملامح وجهها

على أن مرأى هذا التحول كان له بعض الأثر الضعيف فى نفس صانع البراميل القديم ، فالتزم جانب الصمت العنيد بدلا من أساليبه الاولى المنطوية على الاحتقار !

وكانت نانون الوفية لا تكاد تظهر فى ميدان السوق حتى يأخذ الناس فى السخرية من سيدها وتبادل النكات التى تشبعه زراية واستهزاء ، فكانت تدافع عنه ما وسعها الدفاع



وساطة لها قيمتها

في ذات مســـاء قرب نهاية الربيع ، أحست مدام جرانديه أن هـــذه المشكلة تدنيها من القبر أكثر مما يفعل مرضها ذاته !٠٠ وأن أية محاولة من جانبها للحصول لابنتها على صفح أبيها مصيرها الفشـــل المحتوم ٠٠ ففتحت قلبها لأسرة كروشو وباحت لها بمتاعبها !٠٠ واذ ذاك صـــاح القاضي دى بونفون :

ـ ان الحكم على فتـــاة فى الثالثة والعشرين بأن تعيش عـلى الخبز والماء وحدهما بلا مبرر لهو تعذيب يقع تحت طائلة القانون ، وفى وســـعها أن تكتب شكوى الى !

فقطع كلامه مسجل العقود وقال لها :

ـ اطمئنى يا سيدتى !٠٠ غدا ترين جرانديه وقد عفا عن ابنته !

وسمعت أوجينى هذه العبارة ، فجاءت من غرفتها على عجل٠٠٠وقالت ، مدفوعة بشيء من الكبرياء :

ـ أيها السادة ٠٠ أرجو منكم ألا تفعلوا شيئا فى هذه المسألة ٠٠٠فأبى سيد بيته ، وما دمت أعيش فى كنفه فلا ينبغى لى الا أن أطيعه ٠٠ وليس لأحد أى حق فى أن ينتقد مسلكه ٠ انه مسئول أمام الله وحـــده ٠٠ فاذا كنتم تطوون قلوبكم على أى شعور ودى نحوى فانى أناشدكم ألا تذكروا له شيئا عنى ٠ وانى لشاكرة لكم هذا الاهتمام الذى تبدونه نحوى ، وسأزداد عرفانا بجميلكم اذا وضعتم حداً للشائعات التى تملأ المدينة !

وأعقبتها أمها قائلة : « انها على حق ! »

وهنا قال مسجل العقود ، وقد أذهله الجمال الذى أضفته العزلة والحب والأسى على وجه الفتاة : «ليس ثمة سبيل الى كف ألسنة الناس وشائعاتهم الا اطلاق سراحك ! »

وعند هـــذا قالت الأم تخاطب ابنتها : « حسنا يا أوجينى !٠٠ دعى الأمر بين يدى مسيو كروشـــو ، ما دام يعتقد أن نجاحه فى وســـاطته أمر مضمون ٠٠ انه يعرف أباك ويعرف كيف يعرض الأمر عليه »

وفى صباح اليوم التالى خرج جرانديه ليقوم بجولته المألوفة فى الحديقة، فلما بلغ شجرة الجوز الكبيرة وقف خلفها قليلا ينظر الى نافذة مخدع ابنته، ويراقبها وهى تمشط شعرها الطويل

وكان يمضي أحيانا الى حيث يجلس على المقعد الخشبي الصغير المتآكل الذي تعاهد عنده شارل وأوجيني على تبادل الحب٠وكانت تراه أحيانا وقد انعكست على مرآتها صورته هو والحديقة والمقعد،فاذا استأنف سيره مشت الى النافذة فجلست اليها كعادتها تتأمل البقعة التي أمامها

وفي ذلك الصباح المشرق من شهر يونيو أقبل كروشو مسجل العقود على دار صديقه زارع الكروم فوجده جالسا على المقعد الخشبي وظهره الى الحائط ، مستغرقا في مراقبة ابنته ... واذ تنبه الى اقتراب القادم سأله دون أن يلتفت اليه :

ــ ماذا أستطيع أن أفعل من أجلك يا مسيو كروشو ؟

ــ لقد جئت لأحدثك في أمر ذي بال

ــ هل عندك نقود ذهبية تريد بيعها ؟

ــ كلا !٠٠ انها ليست مسألة نقود هذه المرة ، بل هي مسألة ابنتك أوجيني ٠ الناس جميعا يخوضون في سيرتك وسيرتها !

ــ وما شأنهم وشأننا ؟ أليس منزل الانسان هو قلعته الحصينة ؟

ــ نعم ، ولكن زوجتك مريضة جدا ، بل ان حياتها لفي خطر ، ولو أنها ماتت لكنت مسئولا عن فقدها العناية بها خلال مرضها !

ــ أنت تعرف ما تشكو منه٠ولا أريد أن أدعو لعلاجها أحد أولئك الاطباء فانهم جميعا لا هم لهم الا ابتزاز المال !

ــ على أية حال سوف تفعل ما تراه مناسبا ٠٠ ونحن صديقان قديمان ، بحيث لا يوجد في سومور كلها من يغار على مصالحك غيرة قلبية أكثر مني٠ ولهذا رأيت من واجبي أن أطلعك على رأيي في هذه المسألة ٠٠ ومهمايحدث فأنت انسان راشد تعرف أين تكمن مصلحتك ٠٠ ثم اني لم آت لأتحدث في هذا ، فهناك شيء آخر لعله أكثر جدا بالنسبة اليك٠٠ذلك أنك ــ فيما أعتقد ــ لا تبغي أن تقتل زوجتك ، فهي جزيلة النفع لك ٠٠ فهل فكرت فيما عساه يكون من أمرك لو حدث شيء لمدام جرانديه ؟٠٠ وفي أنهسيكون عليك حينئذ أن تعطي أوجيني حصة أمها في الضيعة اذا هي طالبت بها بحكم أنها وارثتها؟..وفي هذه الحالة يتعين عليك أن تبيع ضيعة فروادفون !

ونزلت كلمات كروشو كالصاعقة على جرانديه ، فانه لم تخطر بباله قط فكرة البيع الجبري لضيعته !

ثم ختم مسجل العقود كلامه قائلا : « لذلك أوصيك أن تعاملها برفق ! »

وترك الرجل ساعديه يسقطان الى جانبه يأسا،في حركة دراماتيكية!٠٠ بينما استطرد زائره :

ــ هل من أجل قطع ذهبيــة معدودة تضيع على نفسك ميراثها من أمها اذا ماتت هذه ؟

فقال جرانديه : « انها بددت ستة آلاف فرنك من الذهب ! »
فقال كروشو : « يا صديقى القديم ، ان أوجينى اذا ماتت أمها سيكون فى وسعها أن تطالبك بما لا يقل عن أربعمائة ألف فرنك . بل سيكون من العسير أن تعرف قيمة حصتها إلا اذا طرحت الضيعة فى المزاد العلنى !.. بينما لو وصلت الى تفاهم ... »
فصاح زارع الكروم وهو يتراجع فى مقعده وقد اشتد شحوب وجهه :
ـ أقسم بأبى .. سوف نرى ما يمكن عمله فى هذا الشأن يا كروشو
وبعد لحظات من الارتباك الشديد والحيرة الخرساء ، استطرد الرجل وقد ثبت عينيه على وجه محدثه :
ـ ان الحياة قاسية صارمة ، مليئة بالمتاعب . انك لن تخدعني ، فأعطنى كلمة شرف بأن هذا الذى تقوله يقوم على أساس متين . أريد أن أطلع على القانون !
ـ يا صديقى المسكين .. اننى أعرف الناس بمهنتى
ـ اذن فهل صحيح أنابنتي ـ من دون الناس ـ سوف تغشنى وتسرقنى وتقتلنى ؟
ـ انها وارثة أمها !
ـ اذن فما فائدة انجاب الابناء ؟. أواه يا زوجتى ، انى أحب زوجتى.. من حسن الحظ أنها قوية البنية !
ـ انها لن تعيش أكثر من شهر اذا استمر الحال على هذا المنوال !
وضرب جرانديه جبهته بيده ، ثم مشى بضع خطوآت التفت بعـــدها الى كروشو قائلا : « ما العمل اذن يا صديقى ؟ »
ـ ربما تقبـــل أوجينى أن تتنازل عن مطالبتها بارث أمها .. اذا أنت عدلت عن معاملتها بجفاء !. ولا تنس يا صديقى أنى أتكلم الآن بما يعود بالضرر على مصالحى الخاصة ، فانى لا أكسب عيشي الا من اتخاذ الاجراءات التى أطالبك بأن تحول دون اتخاذها !
فهز جرانديه رأسه أسفا وقال : « سوف نرى !. لنكف عن المناقشـــة فى هذا الموضوع الآن يا كروشو . انك قد زلزلت كيانى بأنبائك .. هل عندك شيء من الذهب الآن ؟ »
ـ ليس عندى أكثر من تسع قطع قديمة ، يمكنك أن تحصل عليها .. ولكن أصغ الى يا صديقى .. يجب أن تسوى أمورك مع أوجينى ، ان كل أهالى سومور يصوبون نحوك اصبع الاتهام ، وقد ارتفع سعر الاوراقالمالية آلتى عندك الى تسعة وتسعين .. فيمكنك أن تسر بذلك وتغتبط
ـ ارتفعت الى تسعة وتسعين ؟.. هذا عظيم حقا !..
وسار زارع آلكروم بصحبة ضيفه الى البـاب الخارجى ، ثم لم يعد فى

طوقه أن يبقى فى البيت هادئا ٠٠ فمضى الى غرفة زوجته ٠٠ وابتدرها هاشا باشا :

ـ فى استطاعتك يا عزيزتى أن تقضى اليوم مع ابنتك ، فانى ذاهب الى فروادفون ٠٠ وكونا متعقلتين أثناء غيابى ٠ اليوم يوم عيد زواجنا أيتها الزوجة العزيزة ٠ هاك عشرة ريالات لك ، كى تحتفلى بالعيد وتفرحى ٠ هيا انشرحى وارعى صحتك ٠٠ يحيا المرح !٠٠ وفى وسعك أن تشترى تمثالا جميلا للمسيح ، كما طالما تمنيت ٠٠

وقذف بعشرة ريالات على الفراش ، ثم تناول وجهها بين راحتيه وطبع على جبينها قبلة ثم قال :

ـ انك تشعرين بتحسن يا زوجتى العزيزة ، أليس كذلك ؟

فأجابته وفى صوتها رنة التأثر العميق :

ـ كيف تطلب منى أن أفرح وألهو ، وأدخل تمثال اله الغفران الى بيتك، فى حين أنك أغلقت قلبك دون ابنتك ؟

ـ سوف نرى ما يمكن عمله فى هذا الشأن

فصاحت الزوجة تنادى ابنتها ، وقد أشرق وجهها بنور الفرح : « أوجينى !٠٠ أوجينى !٠٠ تعالى وقبلى أباك ، لقد صفح عنك ! »

٠٠ لكن أباها كان قد اختفى ٠٠ فر بأسرع ما يستطيع فى اتجاه مزارع كرومه !

كان جرانديه قد استهل عامه السادس والسبعين٠٠وكان شحه الشديد قد ازداد تمكنا من نفسه وسيطرة على تصرفاته خلال العامين الأخيرين ٠٠ وقد بلغ من تفانيه فى حب المال وحرصه على اكتناز الذهب أن بدا له أمرا مروعا مفزعا أن يتخلى لابنته عن جزء من أملاكه بعد وفاة أمها !

واستقر رأيه أخيرا ، على أن يصالح أوجينى ، لكى يبقى سيد أمواله وأملاكه لا شريك له فى التصرف فيها ٠ فلما حان وقت الغداء عاد الى البيت ودخله بعد أن فتح الباب بمفتاحه الخاص ، ثم مضى فى خطى متلصصة حذرة الى غرفة زوجته ، فدخلها فى اللحظة التى كانت فيها أوجينى تضع الصندوق الذهبى الذى تركه لها شارل فوق فراش أمها لتعاودا الاستمتاع بمنظره ، وتتبع أوجه الشبه بين شارل وصورة أمه ٠٠ وسمع جرانديه ابنته تقول لأمها : « ان له جبينها وفمها ! »

ففغر فاه دهشة وجشعا حين وقع بصره على التحفة الذهبية ٠٠وصاحت زوجته جزعة وقد لمحته :« ارحمنا يا رب ! »

ثم انقض زارع الكروم على الصندوق الذهبى كما ينقض النمر المفترس على طفل نائم وصرخ قائلا : « ما هذا ؟! »

وحمل الصندوق ومضى به الى النافذة وأخذ يفحصه بعناية ، ثم هتف جذلا وهو يقلبه فى يده :

ـ ذهب ؟! كتلة من الذهب الصافي ؟!٠٠ انها تزن بضعة أرطال !

ثم التفت الى ابنته وقال لها : « لم لم تخبريني بذلك يا فتاة ؟ انها صفقة رابحة ولا شك ٠٠ أليس هـذا ما أعطاك اياه شـارل في مقابل نقودك الذهبية ؟! »

فارتجفت أوجيني فزعا ثم غمغمت : « انه لا يخصني !٠٠ هذا الصندوق وديعة مقدسة ! »

فقال لها : « كفى هراء !٠ لقد أخذ مالك ، ومن حقك أن تأخذي صندوقه عوضا عن كنزك الجميل ! »

وكان قد أخرج مطواته الحادة من جيبـه لينتزع بها قطعة من الرقائق الذهبية التي صنع منها الصندوق كي يختبرها ، فاندفعت أوجيني لتنقذ كنزها الغالي ٠٠ لكن الماكر كان يرمقها بعينيه خلسة ، فمد ذراعه ليحول بينها وبين بلوغ غايتها ، ودفعها الى الوراء بعنف جعلها تسقط على فراش أمها !

وصاحت الأم وهي تنهض وتجلس معتدلة في فراشها : « سيدى ! »

وصاحت أوجيني وهي تركع أمامه على ركبتيها ضارعة : « باسم جميع القديسين أستحلفك ألا تمس هذا الصندوق !٠٠ انه لا يخصك ولا يخصني ٠٠ انه يخص قريبا تعسا أعطاني اياه وديعة ، ويجب أن أرده اليه حينما يعود !٠٠ بالله لا تفسد جماله يا أبي !٠٠ انك سوف تلوث شرفي بذلك٠٠ أبي ! أتسمعني ؟ »

وناشدته أمها بدورها ألا يتلف صياغة الصندوق ، ووصل صراخ أوجيني وأمها الى سمع نانون ، فخفت الى المكان على عجل وقد استبد بها الجزع ، بينما استلت أوجيني سكينا وجدتها بجانب فراش أمها وصاحت قائلة :

ـ سأطعن نفسي بهذه السكين اذا خدشت الصـندوق أبسط خدش ، انك المسئول عن هلاك أمي ، والآن سوف يلحق بك اثم هلاكي أنا الاخرى!

وقالت أمها : « حذار يا سيدى ٠٠! أتوسل اليك بكل مقدس » ٠ بينما صاحت نانون قائلة له : « سيدى ٠٠ انها سوف تنفذ ما هددت به ! »

وتردد جرانديه لحظة ، وهو ينقل بصره بين الذهب ، وبين ابنته ٠٠٠ بينما سقطت مدام جرانديه مغشيا عليها ٠٠ فصـاحت نانون : « أرأيت يا سيدى ؟٠ ان سيدتي تحتضر ! »

فصاح جرانديه في جزع وهو يقذف بالصندوق على الفراش : « هذا هو الصندوق يا أوجيني ٠٠ لا أريد أن نتشاجر بسببه فأعيديه الى حيث تحتفظين به »

ثم أمر نانون أن تدعو مسيو برجران الطبيب ، وأكب على يد زوجتـه الغائبـة عن الوعي يجسها ويقبلها مخاطبـا اياها بقوله : « كفى !٠ لقد تصالحنا ٠٠ انتهى عهد الخبز الجاف والماء ، ولسوف تأكل أوجيني ما تشاء!٠

آه ، انها تفتح عينيها . حسنا ، والآن أيتها الأم الصغيرة ، أيتها الأم الصغيرة العزيزة ، لا تقلقى عليها .. انظرى ، ها أنذا سأقبل أوجينى ! انها تحب ابن عمها .. أليس كذلك ؟ فلتتزوجه اذا شاءت ! وسوف تحتفظ له بصندوقه الذهبى .. لكنك يجب أن تعيشى طويلا يا زوجتى المسكينة .. هيا ، أديرى رأسك قليلا . أصغى الى ! سوف يكون لك أجمل تمثال دينى رأته سومور ! »

وغمغمت مدام جرانديه وهى تفيق من غيبوبتها : « يا إلهى ! .. كيف تستطيع أن تعامل زوجتك وابنتك على هذا النحو ؟! »

فقال لها : « لن أفعل ذلك بعد الآن ، مطلقا ! .. سوف ترين، يا زوجتى العزيزة المسكينة ! »

ومضى من فوره الى حجرته وعاد يحمل بضع قطع من النقود الذهبية نثرها على غطاء الفراش وهو يقول :

— اليك يا أوجينى ، اليك يا زوجتى .. هذا كله لكما .. هيا ، أفيقى .. وانشرحى ، وتماثلى للشفاء . انك لن تعودى فى حاجة الى شيء ، لا أنت ولا أوجينى . سأعطيها مائة ريال من الذهب .. ولن تبدديها يا أوجينى ، أليس كذلك ؟

فنظرت الزوجة والابنة احداهما الى الاخرى فى دهشة ، وقالت أوجينى: « استرد نقودك يا أبى .. نحن لا نريد مالا .. لسنا نريد غير حبك ! »

فقال وهو يضع النقود فى جيبه : « حسنا ! . فلنعش جميعا معا كأصدقاء .. هيا بنا نهبط جميعا الى حجرة الطعام لنتناول الغداء ، ونلعب الورق كل مساء .. ونغدو مرحين كالخادمات .. ما قولك يا زوجتى ؟ »

فقالت : « آه لو كنت أستطيع أن أفعل ، ما دمت تريد ذلك .. لكنى لا أقوى على النهوض ! »

— أيتها المسكينة .. انك لا تعلمين كم أحبك ! .. وأنت أيضا يا ابنتى !

وضم أوجينى الى صدره وعانقها بحرارة .. قائلا :

— ما أمتع أن يقبل المرء ابنته بعد زوال سوء التفاهم ! .. هاك يا زوجتى .. أترين ؟ . ها نحن أولاء قد عدنا أحباء كما كنا !

ثم استدار الى أوجينى قائلا : « اذهبى وأغلقى هذا الصندوق واحمليه بعيدا .. لا تخافى ، فانى لن أحدثك عنه بكلمة أخرى بعد اليوم ! »

وجاء طبيب سومور بعد حين ففحص المريضة وصارح جرانديه بأن حالتها جد سيئة .. وان أى انفعال قد يقضى عليها .. وان فى الوسع مع ذلك اطالة حياتها حتى نهاية الخريف اذا اتبع معها نظام دقيق للأكل الخفيف ، والراحة الكاملة ، والعناية الفائقة !

فسأله جرانديه في اهتمام : « هل سيكون مرضها كثير التكاليف ؟٠٠ وهل تحتاج الى أدوية كثيرة ؟ ».

فأجاب الطبيب وهو لا يملك نفسه من الابتسام : « كلا !٠ تكفى أدوية قليلة مع العناية الكبيرة ».

فقال جرانديه : « على أية حال يا مسيو برجران ، أرجو أن تأتي لتعودها كلما رأيت ذلك لازما للمحافظة على حياتها٠٠انني في الواقع شديد التعلق بزوجتي الحبيبة ، ولكنني ممن يخفون مشاعرهم في قلوبهم !٠ وأنا نفسي أعاني كثيرا من المتاعب والخسائر ٠ وقد بدأ الأمر بموت أخي ، ولا أزال أبذل فيضا من المال في باريس من أجل تسوية ديونه ، ويبدو أنه لا نهاية لتضحياتي ٠ وعلى كل حال اذا كان في استطاعتك انقاذ زوجتي فأنقذها٠٠ ولو كلفني الأمر مائة فرنك بل حتى مائتي فرنك ! »

وهكذا كان جرانديه برغم لهفته على شفاء زوجته واشفاقه من انتزاع تركتها من يده ، لا يزال حريصا على أن ينفق بحساب حتى في سبيل ارضاء صاحبة التركة ووارثتها !

وكانت صحة الأم تتدهور بانتظام ، وتزداد ضعفا يوما بعد يوم٠٠ولم تعد لها من الحيوية أكثر مما لأوراق الخريف الذابلة ٠٠ وكما يشرق نور الشمس بين تلك الاوراق فيجعلها في لون الذهب، بدا وجه المريضة مشرقا بنور الايمان والتقوى ٠ ولم يسبق أن أشرق حبها لابنتها ، ولا صـــبرها الملائكي ، بأسطع مما ظهرا في ذلك الشهر ــ أكتوبر سنة ١٨٢٢ !٠٠ ــ وقبيل وفاتها بلحظات قالت لابنتها بصوتها الواهن :

ــ لا سعادة الا في السماء !٠٠ ولسوف تعرفين ذلك يوما يا عزيزتي !

وشعرت أوجيني منذ اليوم التالي لوفاة أمها بأنه قد أضيف سبب جديد الى الاسباب التي تجعلها تتعلق بالبيت القديم الذي ولدت فيه ٠٠ ولم تعد تستطيع أن ترى المقعد الخشبي الذي كانت أمها تجلس فيه الى جوار النافذة دون أن تفيض دموعها !٠٠

وكان والدها يبدي من العطف عليها والعناية بها ما جعلها تعتقد أنهـا كانت مخطئة في فهم حقيقة طبيعته !٠٠ صار يذهب الى غرفتها كل صباح فيأخذها وذراعه في ذراعها الى الطابق الأدنى حيث يتناولان الافطار ، ثم يجلس يتأملها ساعات طويلة ، في نظرات شبيهة بتلك التي كان يخص بها ذهبه !٠٠وتغير مسلكه نحوها الى درجة جعلت نانون وآل كروشو يتحدثون ذاهلين عن سر هذا الضعف الهائل الذي اعتراه ، وأخيرا عزوه الى تقدمه في السن ، وخشوا أن يكون بادرة تنبيء بذهاب عقله !

على أن غوامض الموقف بدأت تتجلى حين دعا جرانديه بعد أيام صـديقه مسيو كروشو مسجل العقود الى العشـاء معه وابنته ٠ ثم ما كادت ترفع الأطباق حتى أغلق الأبواب بعناية .. ثم قال لها مسجل العقود :

ــ ان أباك لا يريد أن يبيع أملاكه أو يقسمها حتى لا يدفع ضريبة باهظة

على الأموال التى فى حوزته الآن • فاذا أمكن تجنب هـذه التعقيدات فلا يبقى ثمة داع لاحداث أى تغيير ، ويمكن أن تبقى الأملاك كلها غير مجزأة فى الوقت الحاضر•ولهذا يجب أن توقعى أولا على هذه الوثيقة ،التى تتنازلين بها عن مطالبتك بثروة أمك •• فهذه الثروة سوف تحفظ لك كما تعلمين وبذلك لا تبقى حاجة الى احداث أية تجزئة فى أملاك أبيك ! »

فقالت له : « لست أفهم شيئا من كل هذا ، ولكن أعطنى الوثيقة وأرنى أين يجب أن أضع توقيعى ! »

ونقل جرانديه بصره بين الوثيقة وبين ابنته ، ثم الى الوثيقة مرة أخرى• وبلغ انفعاله درجة جعلته يمسح قطرات العرق من فوق جبهته مرات !•• ثم تدخل فى الحديث قائلا لابنته :

-- انى أفضـل لو تنازلت ببسـاطة عن كل مطالبك بشأن تركة أمك العزيزة المسكينة ، بدلا من التوقيع على هذه الوثيقة ، فان تسجيلها سوف يكلف نفقات كثيرة •• وفى وسعك أن تثقى بى فيما يتعلق بالمستقبل •• وسأسمح باعطائك مبلغا سخيا مائة فرنك كل شـهر •• تستطيعين أن تدفعى منها ما يلزم لاقامة الصلوات وما اليها

فقالت : « سأفعل كل ما تريده يا أبى ! »

وهنا قال لها مسجل العقود : « يقتضينى واجبى أن ألفت نظرك الى أنك بذلك تحرمين نفسك من الارث بلا أى ضمان »

فالتفتت اليه متعجبة وقالت : « أى ضمان يا سيدى ؟!•• ان محبة أبى فيها كل ضمان ! »

فقال جرانديه وهو يأخذ يد ابنته فى يده : « اتفقنا !• ان أوجينى فتاة طيبة ، هيه ؟ »

ثم نهض من فرط فرحته فعانق ابنته ، حتى كاد يزهق أنفاسها واستطرد يقول : « مرحى مرحى يا أوجينى !•• انك قد وهبت أباك حياة جديدة •• هكذا ينبغى أن تدار الاعمال • فليباركك الله ، حقا انك لفتـاة طيبة تحب أباها المسن »

ثم التفت الى كروشو وقال له : « والآن يا صديقى وداعا الى غد•وعليك أن تتم اجراءات التنازل مع كاتب المحكمة ! »

وما حان ظهر اليوم التالى حتى كانت أوجينى قد وقعت على كل الاوراق الخاصة بتنازلها عن كل حق لها فى ارث أمها !

نهاية حارس الذهب

انقضى عام دون أن يفى جرانديه بوعده لابنته فلم تقبض فرنكا واحدا من الايراد الشهرى الذى قرره لها .. وحين تلطفت فى مطالبته به آخر الأمر، صعد الدم الى وجهه خجلا وهرع صاعدا الى غرفته ثم عاد يحمل اليهـا ثلث الحلى التى كان قد اشتراها من ابن أخيه .. وقال لها وفى صوته رنة تهكم خفى : « الا يرضيك يا ابنتى العزيزة أن تأخذى هذه فى مقابل الألف ومائتى فرنك التى لك ؟. ولسوف تأخذين مثلها فى العام القادم . وهكذا لن يمضى زمن طويل حتى تحصلى على كل مجوهراته ! »

ثم أخذ يفرك يديه فرحا بعقد هذه الصفقة الهامة بفضل عاطفة ابنته نحوه ونحو كل ما يخص ابن عمها المحبوب

ومع أن الرجل كان مكتمل الصحة قوى البنية، بدأ يشعر بحاجته الى أن يطوى ابنته تحت جناحه ويوليها ثقته كى تتدرب على ادارة شئونه .. وتمشيا مع هـذه الغاية صار يحرص على أن تكون حاضرة حين يصرف حاجيات المنزل اليومية .. ثم جعلها تتسلم حصته من الايجارات التى تدفع عينا ، فظلت تفعل ذلك عامين كاملين . وبالتدريج باتت تعرف أسرار المزارع والكروم ، وتصحبه حين يزور مستأجرى أراضيه !

وفى نهاية العام الثالث وثق جرانديه من تطبع ابنته بطباعه واتقانها أعماله وأساليبه ، ولم يعد الرجل يشك فيها أو يرتاب فى فطنتها أو نواياها ، فصار يعطيها مفاتيح مخازن المنزل وأقامها مدبرة لشئونه بل ربة للدار قولا وفعلا !

وانقضت خمس سنوات على هذا المنوال من دون أن يزعج نظام حياتهما الرتيبة المملة حادث أوطارىء. وعرف الجميع أن حياة الآنسة جرانديه قد انطوت على شجن كبير ، وان اختلفت مجتمعات المدينة فى تفسير سر هـذا الشجن الدفين ، وتنوعت نظرياتها فى هذا الشأن وشكوكها بصـدد ميل قلب الوارثة الوحيدة واتجاهاته .. وزاد فى حيرة الجميع أن الفتاة لم يزل لسانها يوما بكلمة أو اشارة تفضح مكنون صدرها !

ولم تكن الفتاة ترى غير أفراد أسرة كروشو الثلاثة وبضعة الأصدقاء القدماء للأسرة الذين سمح لهم تدريجا بزيارة البيت والتردد عليه .. وبارشادهم أتقنت لعب الورق فكانوا يحضرون كل ليلة تقريبا لمسامرتها واللعب معها !

وفى سنة ١٨٢٧ بدأ أبوها يحس وهن الشيخوخة ، واضطر الى الامعان

فى اطلاعها على أسراره ، فعرفت كل أملاكه وأمواله وصارت مرجعا فى هذا الشأن ، الى جانب مسجل العقود !

ولما بلغ جرانديه الثانية والثمانين من عمره قرب نهاية ذلك العام أصيب بشلل نفض الطبيب يده من علاجه يائسا .. وأدركت أوجينى أن منيته قد دنت فازدادت حدبا عليه متعلقة فى شخصه بآخر رابطة حب تربطها بدنياها بعد أن يئست من عودة شارل . وهكذا تفانت فى تمريض أبيها بكل عناية . وكانت قوى الرجل الذهنية قد ضعفت تدريجا ، لكن جشعه وعبادته للذهب صارا غريزة لازمته حتى بعد انحلال قوى ذهنه !

كان جرانديه خلال فترة احتضاره الطويل يطلب نقله فى كرسيه ذى العجلات الى جوار المدفأة ، حيث يستطيع من خلال الباب المفضى الى غرفته الخاصة أن يعيش فى جو كنوز ذهبه المخبوء !.. فكان يجلس هناك بلا حراك .. فاذا دخل أحد الغرفة حدجه بنظرة قلق وعدم ارتياح ، ثم جعل ينقل بصره الى قفل الباب الحديدى المتين ..!

وكان يسأل عن تفسير كل صوت مهما يكن ضئيلا ! وفى الايام المحددة لقبض الايجارات وثمن الحاصلات كان الرجل يفيق من شروده فى الوقت المناسب كى يحاسب المستأجرين ويحرر لهم الايصالات !

وبعد خروجهم كان يدير مقعده فى مواجهة باب الخزانة ثم يطلب من ابنته أن تفتح بابها وتحمل الى داخلها حقائب النقود فتضعها فوق سابقاتها بنظام ودقة .. ويظل هو يرقبها حتى تنتهى من مهمتها فتغلق الباب وتعيد المفتاح اليه .. وعندئذ يستدير بمقعده فى هدوء الى وضعه الاول ، بعد أن يدس المفتاح بحذر فى جيب سترته ، ويتحسسه بأصابعه بين الحين والآخر !

وأيقن صديقه مسجل العقود أن أوجينى لن ترفض الزواج من القاضى الشاب ابن أخيه الا اذا عاد شارل ابن عمها. ومن ثم ضاعف المسجل عنايته بالفتاة وحدبه عليها وعلى أبيها ، فكان يحضر كل يوم ليتلقى تعليمات جرانديه ، ويذهب وفق رغبته الى ضيعته فى (فراودفون) حيث المزرعة والغابة والكروم وهناك يبيع ما ينبغى بيعه من الحاصلات ثم يستبدل بكل الايراد النقدى ذهبا ليضاف الى أكوام الحقائب المصفوفة فى غرفة « الخزانة » بدار عميله المحتضر !

وفى الأيام الأخيرة لجرانديه بقى يجلس فى مقعده الى جوار المدفأة فى مواجهة باب الخزانة ، وكثيرا ما كان يرفع الأغطية الصوفية التى يدثرونه بها ثم يقول لنانون : « خذى هذه وخبئيها وأغلقى الباب عليها .. والا سرقوها ! »

وفى بعض الأحيان كان يطلب من ابنته أن تأتى ببعض ذهبه لكى يراه ، فكانت تنشر محتويات احدى الحقائب من الريالات الذهبية فوق منضدة

أمامه ، فيجلس ساعات طويلة يحدق فيها كالطفل .. وأحيانا كانت تتسلل الى شفتيه ابتسامة صبيانية واهنة ، تؤلم من يراها !

وقال أكثر من مرة وقد ارتسم على وجهه الارتياح الكامل : « انهـا تدفئني ! »

وحين جاء الكاهن ليعينه على اتمام واجباته الدينية الأخيرة كانت الحياة قد انطفأت فى عينى البخيل ، لكنهما أضاءتا فجأة عند رؤيتهما الصليب الفضي ، والشمعدان ، وآنية الماء المقدس ، المصنوعة كلها من الفضة !.. فحدق فى المعدن الثمين بشراهة ، واختلجت شفتاه لآخر مرة !

وعندما رفع الكاهن الصليب الذهبى فوقه كي يلثم صورة المسيح قام بمحاولة مخيفة ليقبض عليه بيده .. وكانت المحاولة الأخيرة التى كلفته حياته !.. فقد هتف ينادي أوجينى وهى راكعة الى جواره تبلل بدموعها يده التى سرت اليها برودة الموت وتناشده أن يهبها بركته وقال لها :

ـ كونى حذرة حريصة .. فذات يوم سوف تقدمين الى حسابا عن جميع تصرفاتك !

وكانت هذه العبارة آخر كلماته فى الحياة !



لم يبق لأوجينى جرانديه بعد موت والديها من تحدثه عن متاعبها غير « نانون » الوفية التى أحبتها لغير غاية أو مصلحة خاصة !

واخطر مسيو كروشو أوجينى أن لها ايرادا سنويا قدره ثلاثمائة ألف ريال ، من العقارات الواقعة فى سومور وحواليها .. عدا الملايين الستة المستثمرة فى سندات ، وعدا مليون ريال ذهبا ومائتى ألف ريال فضة .. وهكذا بلغ مجموع ثروتها نحو سبعة عشر مليونا من الفرنكات !

وحدثت الفتاة نفسها : « أين يمكن أن يكون ابن عمى الآن ؟ »

وفى اليوم الذى أبلغها فيه مسجل العقود تلك الحقائق عن ثروتها جلست مع نانون فى الردهة الى جانب الموقد ، وكان كل ما حولها يذكرها بالأيام الخوالى : كرسى أمها ، والقدح الذى شرب فيه ابن عمها .. وغلبتها الذكريات فهتفت :

ـ نانون ، لقد بقينا وحدنا ، أنت وأنا !

ـ نعم يا آنسة .. لو استطعت فقط أن أعرف أين هو الآن ذلك الشاب الجميل الجذاب ، لسرت على قدمى أسعى اليه ..!

ـ البحر يفصل بيننا يا نانون !

وكانت أوجينى قد أجرت على خادمتها نانون معاشا سنويا قدره ألف ومائتا فرنك ، عدا الايراد الذى كان لها من قبل وقدره ستمائة فرنك ،

فلم يمض على ذلك شهر حتى تزوجت نانون أنطوان كورنوابيــه ، الذى رقى الى منصب الحارس الخاص للآنسة جرانديه !

وكانت نانون فى التاسعة والخمسين من عمرها ، لكنها لم تكن تبدو لمن يراها أكبر من الأربعين ، بفضل صحتها السليمة وبنيتها القوية ودمهــا المتدفق .. ولعلها لم تبد يوما أقوى وأصبى منها يوم زفافها .. حتى لقد توقع لها كثيرون أن تنجب برغم بلوغها تلك السن !

وحين غادرت نانون المنزل العتيق وانحــدرت الى الشارع المتعرج فى طريقها الى الكنيسة حيث يعقد الزفاف انهالت عليها التحيات والتهانىء من الجيران ، فقد كانت محبوبة من الجميع .. وأهدتها سيدتهــا لمناسبة الزفاف ستة وثلاثين قطعــة من الشوك والملاعق ، ففاضت الدموع من عينى زوجها تأثراً من كرم مولاته وربة نعمتــه ، حتى لقــد أعرب عن استعداده لأن يقطع جسمه اربا اربا فى سبيل حمايتها !

وغدت مدام كورنوابيه خادمة أوجينى الخاصة المؤتمنة على أسرارها .. وارتقى مركزها الأدبى لدى سيدتها ، وتضاعفت سعادتها .. لقد صارت لهــا أخيرا غرفة مخزن ، وحزمة من المفــاتيح .. وصارت تخرج المؤن والحاجيات كما كان سيدها القديم يفعل ، وصارت رئيسة على خادمتين هما طاهية ووصيفة اختارتهما بنفسها ، بل صارت نانون تشرف بمعاونة زوجها على تنظيم ادارة الضــيعة بمثــل الدقة التى عرفت عن سيدها الراحل !

أما أوجينى فكانت قد بلغت الثلاثين من عمرها ، دون أن يعرف قلبها غير حبها الاول والأخير لشارل ابن عمها ، وقد خلفها ومضى جاعلا بينــه وبينها فاصلا رهيبا من البحر والبر ! وقد لعنها أبوها من أجل هذا الحب ، ولعله هو الذى كلف أمها حياتها !

وبدأت أوجينى تشكو ..!

لم تجد عزاء فى ثروتها ، فهى عاجزة عن أن تفعل لها شيئا .. وانما هو حبها ، وايمانها ، وثقتها فى المستقبل ، هذه كانت كل حياتها ، وتعنى فى نظرها كل شىء !.. الحب يعلمها معنى الأبدية .. وقلبهــا والانجيــل يحدثانها عن حياة مقبلة .. فالحياة خالدة ، والحب لا يقل عنها خلودا !..

وهكذا عاشت ليلها ونهارها تقتات من هاتين الفكرتين غير المحدودتين ، وازداد انطواؤها على نفسها .. وأضنتها عاطفتها هذه سبعة أعوام كاملة !

ولم تكن تعبأ بتلك الملايين التى خلفها لها والدها وتضاعفت عاما بعــد عام ، بقدر ما كانت تعنى بالصورتين المعلقتــين فوق فراشــها وبذلك الصندوق الذهبى الذى تركه لها شارل وكستبان زوجة عمها الذى أهداه شارل الى أمها . وقد شرعت فى تطريز قطعة من القماش لكى تجد الفرصة لاستخدام ذلك « الكستبان » العزيز

بدا بعيد الاحتمال أن تتزوج الآنسة جرانديه بينما هي لا تزال ترتدي ثياب الحداد ! وكان تدينها معروفا للجميع.. ومن ثم حرصت أسرة كروشو على كسب ود الوارثة الشابة بكل الطرق واحاطتها بكل مظاهر الحب والاهتمام .. فصار أفرادها يتوافدون كل مساء على قاعة الاستقبال في منزلها حيث يتنافسون في صوغ عبارات المديح والاطراء لها واظهار عواطفهم الحارة نحوها ..!

... وهكذا صار للوارثة المرموقة بين تلك الجماعة طبيبها الخاص .. وموزع صدقاتها .. وكبير أمنائها.. وحائك ثيابها.. وأخيرا مستشارها.. المستشار المتأهب دائما لاحاطتها علما بكل ما ترغب في معرفته أو الاستفسار عنه ، أو ما ينبغي بحكم مركزها أن تكون على بينة منه . كان يكفي أن تعرب عن رغبتها في أي شيء حتى تجاب تلك الرغبة !. وهكذا عاشت أشبه بالملكة غير المتوجة .. بل لم يحدث أن كانت ملكة من الملكات موضع تملق الناس ومداهنتهم كما كانت أوجيني أو الآنسة دي فراودفون كما صار اسمها بين رواد صالونها !

وقد أربكت هذه « الجوقة» من المادحين أوجيني أول الأمر ، ولكنها ما لبثت أن ألفت الاشادة بجمالها وتمجيده في كل مناسبة. واذا صادف أن غض أحد منه كانت أوجيني تفزع من النقد أضعاف ما كانت تفعل منذ ثمان سنوات !.. بل لقد انتهى بها الأمر الى أن صارت ترحب بذلك التكريم والاطراء !

وشيئا فشيئا ، قبلت أوجيني هذا الوضع .. وسمحت لنفسها بأن تعامل كملكة ، وترى بلاطها الصغير مزدحما بالزوار كل مساء .. وكان القاضي دي بونفون بطل هذه الجماعة الذي يشيد الجميع بمواهبه ، وبمظهره الخارجي ، وعلمه ، وثقافته ودماثة خلقه ... حتى لقد صار موضوعا للاطراء لا ينفد ولا ينضب معينه !

كان أحدهم يلفت النظر الى أن القاضي قد ضاعف ثروته في خلال السنين السبع الأخيرة ، بحيث صار ايراده الآن يزيد على عشرة آلاف فرنك في السنة ، وأرضه تقع — قبل جميع أملاك أسرة كروشو — في المجال الحيوي لمزارع أوجيني الشاسعة !

وهنا يضيف آخر قائلا لها : « هل تعلمين يا آنسة أن أسرة كروشو لها ايراد سنوي يبلغ أربعين الف ريال ؟ »

وتعلق فتاة من الأسرة هي الآنسة دي جريبوكور فتقول :

— انهم يدخرون جانبا من أموالهم . وقد حدث أخيرا أن جاء رجل من باريس خصيصا ليقدم لمسيو كروشو مائتي ألف فرنك أجرا لاستشارات تتعلق بعمله . ولو أمكن أن يعين قاضيا للصلح لقبل هذه العرض !

وقالت امرأة تدعى مدام دورسنفال :

ـ انه يسعى الى أن يخلف مسيو دى بونفون فى منصبه القضائى .. فان سيدى القاضى سوف يصبح مستشارا ثم رئيس محكمة .. وهو موهوب الى الحد الذى يجعله واثقا من الوصول الى بغيته

وكان القاضى الشاب نفسه قد جاهد ليؤدى الدور الذى أريد أن يقوم به . انه فى الأربعين من عمره ، أسمر البشرة ، لكنه يبدو أصغر سنا من ذلك .. وهو يأنف من تناول السعوط فى منزل الآنسة جرانديه ، ويذهب الى هناك برباط رقبته الابيض .. ويحرص على أن يطلق على الوارثة الحسناء « عزيزتنا أوجينى » ويتكلم بلهجة توحى بأنه صديق الأسرة الحميم . والواقع أنه فيما عدا زيادة رواد صالون الفتاة بعد موت والديها ، واستبدال لعبة حديثة بألعاب الورق القديمة ، لم يكن فى منظر المجتمعين ما يخالف منظرهم قبل موت والدى الفتاة !

وبقيت هذه الجماعة تطارد ملايين أوجينى ، وقد ازداد عدد افرادها ونظموا جهودهم وأساليب اقناعهم وراحوا يلاحقون فريستهم طبقا لخطة دقيقة مرسومة !

وكانت مدام دى جراسان ـ التى لا تحفظ لها أوجينى غير كل ود وعطف ـ لا تزال تضايق آل كروشو بوجودها ، كما كان خيال شارل يسيطر على المكان ، ولكن شيئا من التقدم قد حدث فى الواقع .. فقد صارت باقة الورد التى يهديها القاضى الى أوجينى يوم عيد ميلادها « لازمة » لا تنسى !.. بل تطور الأمر فصار الرجل يحضر معه كل مساء باقة رائعة ضخمة . وكانت مدام كورنوابيه تضع هذه الهدايا فى أوانى الأزهار وتوزعها بين أركان المنزل عقب خروج الزوار !

وفى مستهل الربيع قامت مدام دى جراسان بحركة أحدثت بعض الازعاج فى معسكر أسرة كروشو .. فقد تحدثت الى أوجينى عن « المركيز دى فراودفون » الذى يمكن أن ترد اليه ثروته المنهارة اذا أعادت الوارثة ضيعته اليه بعقد زواج !.. وقد حرصت المرأة على أن ترفع المركيز ولقبه الى السماء السابعة .. واذ أجابتها أوجينى بابتسامة هادئة راحت تذيع فى كل مكان أن مسألة زواج القاضى كروشو من أوجينى ليست أمرا مقررا كما يتصور « بعض » الناس !

وكان مما قالته مدام دى جراسان لأوجينى :

ـ ان مسيو دى فروادفون فى الخمسين من عمره ، لكنه لا يبدو أكبر من مسيو كروشو . وصحيح أنه أرمل وله أسرة ، لكنه مركيز وسيصبح أميرا من أمراء فرنسا ذات يوم .. فهى ليست صفقة خاسرة كما تبدو لأول وهلة . وأنا أعلم عن يقين ـ من معلوماتى الخاصة ـ أنه عندما ضم مسيو جرانديه أملاكه الى ضيعة فروادفون كان يبغى أن يدمج أسرته فى أسرة فروادفون . ولقد طالما حدثنى بهذا المعنى . وقد كان رجلا فطنا حاد البصيرة !

الكونت دوبريون

بينما كانت هذه الاحداث تجرى في سومور ، كان شارل يجمع ثروة في الشرق . وقد كانت مغامرته الاولى ناجحة كل النجاح ، حصل منها على مبلغ ستة آلاف ريال .. وسرعان ما أدرك بوضوح أن أفضل وأسرع طريق لجمع المال فى الاقاليم الاستوائية أو أوربا ، هو شراء الرجال وبيعهم .. فهبط على شواطيء أفريقا حيث عقد صفقات عدة من الزنوج والبضائع المطلوبة في مختلف الاسواق .. وألقي بنفسه قلبا وقالبا في هذه التجارة، ولم يعد يفكر في شيء آخر .. جاعلا نصب عينه أن يعود الى باريس ذات يوم فيبهر المجتمع هناك بثرائه الفاحش ، ويتسلق فيه مركزا أسمى وأرفع من المركز الذى كان فيه قبل موت أبيه !

وباختلاطه بكثير من رجال الاعمال ، وتنقله بين مختلف الأقطار ، واحتكاكه بشتى العادات والاديان .. فتر تدينه ، وصار ملحدا متشككا.. وتغيرت مقاييس الحلال والحرام فى نظره حين وجد أن ما يعتبر جريمة فى بلد من البلاد يحظى في بلد آخر بالاعجاب والاحترام !. ورأى أن كل إنسان يعمل لأغراضه ومصالحه الخاصة ، فغدا أنانيا مرتابا ، واستيقظت فيه غرائز آل جرانديه الكامنة ، غرائز الجشع والقسوة ، فتاجر فى المخدرات الصينية ، والعبيد الزنوج ، والاطفال ، والفنانين ، وفي كل شيء يجلب مالا .. وصار مرابيا على نطاق واسع ، واعتاد أن يخدع السلطات الجمركية ويغشها ليعفى بضائعه من رسومها !.. وأحيانا كان يقوم برحلة الى « سان توماس » ليشترى صفقة بضاعة من القراصنة بثمن بخس ثم يبيعها في الاسواق بأغلى الاسعار !

وخلال رحلته الأولى كان وجه أوجيني الطاهر النبيل يلازمه ، مثل صورة العذراء التي يعلقها البحارة الاسبان في مقدمة سفنهم .. وقد عزا نجاحه الأول الى التأثير السحرى لصلوات ابنة عمه وعهودها .. ولكنه بمرور الايام شغل فى الاقطار المختلفة التي ارتادها بالوجوه البيض والسمر والصفر .. وبليالى العربدة والمجون والمغامرات ، وانمحت صورة ابنة عمه وذكراها من خياله ، بل انمحت منه كل ذكريات سومور . ولم يعد يذكر غير الحديقة الصغيرة المحصورة بين الجدران العالية حيث وقف على فاجعة أبيه وما أضمره القدر له .. لكنه نبذ كل صلة له بالأسرة ، وبعمه ذلك الثعلب العجوز الذى نهب حليه وجواهره !.. ولم يعد لأوجيني مكان

فى قلبه ، فلم يفكر فيها يوما ، لكنها احتلت مكانا من دفاتره ٠٠ فقد كان مدينا لها بستة آلاف فرنك !

وكان هذا سر صمت شارل جرانديه المطبق وانقطاع أنبائه عن ابنة عمه. وقد اتخذ الشاب لنفسه اسما مستعارا هو « كارل شفرد » فصار يعرف به فى جزر الهند الشرقية وسانت توماس وسواحل افريقيا ولشبونة وأمريكا ٠٠ حتى اذا ما عاد الى باريس ثريا آخر الأمر استرد اسمه الحقيقى نظيفا لا تشوبه شائبة ، وعاش محترما مبجلا بقية حياته ٠٠!

وبهذه الوسائل كان تسلقه سلم الثراء والمال سريعا باهرا ٠٠ فلما حل عام ١٨٢٧ عاد الى ميناء بوردو الفرنسى على ظهر السفينة «مارى كارولين»، وفى جعبته مليون وتسعمائة ألف فرنك ذهبا ، مخبوءة فى ثلاثة براميل قوية ، اعتزم بيعها فى سوق ضرب العملة بباريس !

وكان على ظهر السفينة ذاتها رجل من رعايا الملك شارل العاشر يدعى مسيو دوبريون ٠٠ وكان رجلا مسنا اندفع فى تهور الى الزواج من حسناء ثرية تملك ضياعا فى جزر الهند الغربية ٠ وكان اسراف مدام دوبريون المستهتر قد اضطر زوجها الى السفر الى تلك البلاد كى يبيع أملاكها٠٠ومن ثم صار الزوجان فى حالة مالية لا يحسدان عليها ، ولا يملكان غير دخل قدره عشرون ألف فرنك سنويا ، وغير ابنة محرومة من الجمال اعتزمت أمها أن تزوجها بغير « دوطة »

وقد كان هذا الهدف الذى تسعى اليه الأم بادى الصعوبة ، يكاد يكون مشكلة عسيرة ، برغم كل أساليبها الملتوية وبراعتها وذكائها ٠٠ بل لعلها هى ذاتها كانت كلما نظرت الى ابنتها تيأس من تزويجها بأى رجل على الاطلاق ، ولو كان من الحمقى عباد الألقاب !

كانت الآنسة دوبريون فتاة طويلة القامة ذات فم كئيب وأنف طويل مفرطح عند قمته ، شاحبة فى العادة الا على أثر الانتهاء من تناول الطعام حين يصعد الى وجهها الدم فيحمر احمرارا شديدا منفرا ، لكن الابنةورثت ارستقراطية أمها ، التى كانت تخضعها لنظام صارم كأساليب نساء « اسبرطة » فى تربية أولادهن !٠٠ فقد علمتها كيف تخفى لون بشرتها الصارخ بطلاء مناسب ٠٠ وكيف ترتدى ثيابها ٠٠ وكيف تبدو جذابة٠٠ وكيف تكسو وجهها بذلك التعبير « الملائكى » الذى يعجب الرجل ويوهمه بأنه قد وقع على ضالته المنشودة !٠٠ بل علمت الأم ابنتها حركة بها تلفت أنظار مجالسيها الى صغر حجم قدمها ، فى اللحظة المناسبة التى تحس فيها أن أنفها قد اصطبغ بذلك الاحمرار المنفر !٠ وبفضل الاكمام الواسعة والقمصان الضيقة والأكتاف المستعارة والمشد القاسى وسواها من أدوات الزينة ، أفلحت الأم الذكية فى أن تجعل من ابنتها نموذجا للأنوثة الكاملة جديرا بأن يوضع فى متحف لتدرس عليه جميع الأمهات وسائل التجميل !

وكان شارل قد اندمج مع مدام دوبريون أثناء الرحلة ، وشجعته هي ،

لأغراضها الخاصة . ويقول من زاملوها في تلك الرحلة ان المرأة لم تدع وسيلة الا لجأت اليها كي تظفر لابنتها بهذا الصيد الدسم !..

وحين هبطوا البر في (بوردو) في يونية سنة ١٨٢٧ أقام شارل بالفندق الذى اختارته أسرة دوبريون .. ثم سافر الجميع معا الى باريس . حيث كان منزل دوبريون مثقلا بالرهون ، وفي انتظار قدوم شارل كي ينقذه منها !.. وكانت الأم قد أفصحت عن نيتها نحو الشاب بقولها انه سوف يسرها أن تسكن زوج ابنتها في الطابق الاول ، ثم وعدت شارل جرانديه بأن تحصل له على انعام من الملك السهل القياد ـ وصديق زوجها منذ الطفولة ـ شارل العاشر ، يخول له أن يحمل لقب « الكونت دوبريون » ويرث أملاك أسرة دوبريون التي يقدر ريعها بنحو ستة وثلاثين ألف ريال في السنة .. فضلا عن الحصول له على منصب مناسب في البلاط ، بحيث يصل دخل الأسرة الاجمالى الى أكثر من مائة ألف فرنك !.. ثم تمضي المرأة في وعودها فتقول :

ـ وحين يكون لرجل دخل قدره مائة ألف فرنك في السنة ، واسم ولقب ، وأسرة ، ومنصب في البلاط الملكى ، فماذا يبقى له أن يطمع فيه بعد هذا ؟ انك تستطيع أن تختار المنصب الذى يروقك : في مجلس الدولة .. أو البلدية ، أو سكرتيرية السفارة .. بل في وسعك أن تصير سفيرا اذا أردت .. فان شارل العاشر يحب أسرة دوبريون وقد كان صديقا لزوجي منذ الطفولة !

وهكذا أدارت المرأة رأسه بخطط هذه الاحلام والمطامع . وخلال الرحلة بدأ شارل يداعب هذه الآمال والأماني التي أدخلت في روعه باتقان وبراعة .. ولم يكن يشك في أن عمه قد دفع ديون أبيه جميعا ، فرأى نفسه بعين الخيال يقتحم فجأة مجتمعات حي « سان جرمان » الذى كان قبلة المترفين في ذلك العصر .. وفي ظل الآنسة ماتيلد ذات الأنف القرمزى ، كان قمينا بأن يظهر قريبا باسم « الكونت دوبريون » .. وامتلأ رأسه بالاحلام الطموحة الضارية التي بدأت أثناء الرحلة ولم تفارقه بعد ذلك في باريس . واعتزم أن يجهد كل عصب فيه كي يبلغ تلك القمم المجيدة التي عينتها له « حماته » الموعودة !.. أما ابنة عمه فليست غير لطخة معتمة في الماضي السحيق ، ليس لها مكان في هذا المستقبل الباهر ، ولا مكان في أحلامه ..!

وفي باريس مضى ليرى عشيقته القديمة « انيت » . ولم تتردد هذه المرأة المجربة في أن تخلص النصح لصديقها القديم .. فأوصته بألا يفرط بحال في هذه الفرصة السانحة .. ووعدت بأن تساعده في تحقيق الصفقة الرابحة . وفي أعماق قلبها سرت المرأة بأن ترى شارل يرتبط بمثل تلك الفتاة القبيحة الخلقة ، كي يظل في قبضتها دائما . ولاسيما بعد أن ازدادت جاذبيته خلال مدة اقامته بالهند فاسمرت بشرته واكتسب رجولة وقوة

عزيمة ، وصار يتكلم بلهجة حازمة شأن الرجل الذى ألف أن يأمر وينهى وألف النجاح والمال ..!

وسمع المالى « مسيو دى جراسان » بعودة شارل ، وزواجه القريب ، وثروته الضخمة ، فجاء ليراه ويحدثه عن الثلاثمائة ألف فرنك الباقية لدائنى أبيه !..ووجد شارل مختليا بصائغ كان قد أوصاه بصنع مصوغات للآنسة دوبريون من أحجار ماسية أحضرها معه من الهند ، وقد بلغت نفقات تركيب تلك الاحجار وصياغتها أكثر من مائتى ألف فرنك !

ولم يعرف شارل مسيو دى جراسان فى البداية ، فعامله بوقاحة الشاب المترف الذى قتل أربعة رجال فى المبارزة فى الهند..ثم حين تذكر شخصيته خاطبه بأدب متكلف ، قائلا له فى صدد ديون أبيه :

ـ ان ديون أبى لا تخصنى ، وأنا أشكرك يا سيدى من أجل الجهد الذى تكلفته ، لكنى لم أربح سوى نحو مليونى فرنك ، وقد ربحتهما من عرق جبينى ، فلا يعقل أن أبعثرها على دائنى أبى !

وحينما أشار مسيو دى جراسان الى امكان آشهار افلاس والد شارل خلال بضعة أيام ، أجابه قائلا : «فى خلال بضعة أيام سوف أصبح (الكونت دوبريون) .. وهكذا ترى أن الأمر لن يكون ذا أهمية بالنسبة لى على الاطلاق .. ثم لعلك تعرف أكثر منى أن المرء حين يكون دخله مائة ألف ريال فى السنة لا يمكن أن يكون أبوه قد أشهر افلاسه ! »

ثم رافق الشاب ضيفه النائب دى جراسان فى أدب حتى الباب !



فى الأيام الأولى من شهر أغسطس من تلك السنة ، جلست أوجينى على المقعد الصغير فى الحديقة حيث أقسم لها ابن عمها معاهدا اياها على الحب الأبدى ، وحيث طالما تناولت هى طعام الافطار فى أيام الصيف !

وكان الصباح صحوا بهيجا ، والحديقة غارقة فى الشمس المشرقة .. فأجالت الفتاة عينيها بين الأزهار والخضرة ، ثم نقلتها الى الجدران التى تحيط بالحديقة حيث بدأت الشقوق تشيع فيها ، حتى لقد تنبأ كورنوابيه لزوجته نانون بأن البناء سوف يتهدم ذات يوم فجأة على من فيه !

وطرق ساعى البريد الباب ، وسلم مدام كورنوابيه خطابا لسيدتها . فصاحت هذه وهى تحمله اليها :

ـ خطاب يا آنسة .. انه « الخطاب » الذى تنتظرين !

ورنت الكلمات فى وعى أوجينى ، فتمتمت وهى تقلب الخطاب بين يديها : « انه من باريس .. وبخطه .. اذن فهو قد عاد ! »

وابيض وجهها كالأموات ، ولبثت برهة لا تفض الخطاب ، فقد تتابعت دقات قلبها بسرعة أعجزتها عن أن تتحرك أو ترى !.. بينما وقفت نانون تنتظر ويداها على فخذيها ، والفرحة تطفر من كل غضون وجهها الأسمر..

وأخيرا هتفت لسيدتها : « اقرأيه يا آنستى ! »
فقالت أوجينى : « لماذا يعود من طريق باريس يا نانون ، فى حين ذهب من طريق سومور ؟ ! »
وارتعشت أصابع أوجينى وهى تفض الظرف ، وحين فعلت سقط من داخله « شيك » التقطته نانون .. بينما أخذت أوجينى تقرأ :
« ابنة عمى العزيزة ... انك سوف ... »
ولم تجرؤ أن تتابع القراءة ، خشية ما قد تجىء به السطور التالية .. وتجمعت فى عينيها دموع !.. فسألتها نانون منزعجة : « ماذا ؟.. هل مات ؟ »
فقالت : « كلا ! لو كان قد مات لما استطاع أن يكتب ! »
ثم أخذت تكمل مطالعة الخطاب
« انك سوف تسرين ولا شك بسماع أنباء نجاحى ، فلقد جلبت لى حظا .. وها أنذا قد عدت الى فرنسا رجلا ثريا ، كما توقع لى عمى حين نصح لى بالسفر .. لقد سمعت توا بوفاته ، وبوفاة امرأة عمى ، من مسيو دى جراسان .. وان سنة الطبيعة لتقتضى أن يموت آباؤنا أولا ، وأن نتبعهم نحن بعد ذلك يوما ما . وأرجو أن تكونى الآن تعزيت عن فقده ، فالزمن كفيل بشفاء جميع الأحزان ، كما علمتنى التجارب .. نعم يا ابنة عمى العزيزة ، لقد انقضى بالنسبة لى عهد الأوهام والخيالات ، وانى لآسف لذلك ، ولكن ما باليد حيلة !.. ولقد طفت بكثير من البلاد ، ورأيت كثيرا بحيث صرت أنظر الى الحياة نظرة واقعية فلسفية . لقد كنت طفلا حين ذهبت ، فعدت الآن رجلا ، أفكر فى أشياء كثيرة ما كانت تجول بخاطرى وقتئذ . انك حرة يا ابنة عمى ، وأنا أيضا ما زلت حرا .. وليس هناك فى الظاهر ما يحول دون تحقيق أحلام شبابنا المشتركة ، لكنى لا أحب أن أخفى عليك حقيقة موقفى الحاضر . انى لم أنس لحظة واحدة أنى مرتبط بك .. وخلال جميع جولاتى كان يلوح لى دائما ذلك المقعد الخشبى الذى فى الحديقة .. »
وفزعت أوجينى من مكانها كأنما هى جالسة فوق فحم متقد .. ثم جلست على احدى درجات سلم الحديقة الحجرى المتآكلة .. واستأنفت القراءة :
« المقعد الصغير الذى تبادلنا عليه عهود الحب الدائم !.. كما ذكرت دائما ردهة المنزل ، وغرفتى التى فى أعلى ، والليلة التى يسرت فيها على أمر مستقبلى ، بلباقتك واهتمامك .. نعم ، لقد كانت هذه الذكريات عونى وسندى .. ولقد طالما حدثت نفسى بأنك كنت دائما تفكرين فى ، وأنا أفكر فيك فى الساعة التى اتفقنا على أن نذكر فيها أحدنا الآخر .. ألم تتطلعى الى الفضاء المظلم فى الساعة التاسعة كل مساء ؟.. انى واثق بأنك فعلت . وحاشا أن أخون مثل هذه الصداقة المقدسة ، أو أسلك نحوك



«ولم تجرؤ أوجينى أن تتابع القراءة ، وتجمعت فى عينيها دموع!»

مسلكا ينطوى على عدم الاخلاص .. لذلك أبادر الى مصارحتك بكل شيء !

« لقد عرض على مشروع زواج ، شديد الاغراء لى من وجهة النظر النفعية .. والحب فى الزواج وهم وخيال زائل . وقد علمتنى التجارب أننا فى الزواج ينبغى أن نطيع قوانين اجتماعية معينة ونلتزم آراء ومبادىء خاصة .. هناك فارق فى السن بينك وبينى ، أحسبه أقرب الى التأثير فى مستقبلك منه فى مستقبلى .. ثم هناك فروق أخرى لست فى حاجة الى الخوض فيها .. منها أن نشأتك ، وأسلوب حياتك ، وذوقك فى الأمور لا تؤهلك كلها للحياة الباريسية ، ولا هى تنسجم مع المستقبل الذى أعددته لنفسى .. فمثلا ، من خططى المرسومة أن أندمج فى المجتمع ، بينما أنت ــ بقدر ما أعرف وأذكر عنك ــ تفضلين الحياة البيتية الهادئة وملازمة الدار .. كلا ، سوف أكون صريحا معك : انى سأخضع لقرارك ، ولكن ينبغى أولا أن أضع أمام عينيك جميع حقائق الموقف عارية من كل زيف

« انى أملك ساعة كتابة هذه السطور ايرادا قدره ثمانون ألف ريال .. وبهذه الثروة أستطيع أن أتزوج فتاة من أسرة دوبريون ، ولسوف أحمل اسمهم عقب زواجى من فتاتهم ، وهى فى التاسعة عشرة ، فأظهر فى الوقت نفسه بمركز لامع فى المجتمع ، ومنصب رائع فى البلاط . وأؤكد لك من الآن يا ابنة عمى العزيزة أنى لا أكن للآنسة دوبريون هذه أية عاطفة ، لكنى بهذا الزواج سوف أكفل لأولادى مكانة اجتماعية ممتازة لن تقدر بثمن فى المستقبل .. ولن تمضى سنوات حتى يكون لابنى ــ المركيز دوبريون ــ ضيعة كبيرة وايراد سنوى قدره أربعون ألف ريال .. وبهذه المزايا لن يستعصى عليه مركز أو منصب رفيع .. ونحن ينبغى أن نعيش لأولادنا !

« وهكذا ترين يا ابنة عمى الى أى حد ألتزم الصراحة معك وأنا أكاشفك بما فى قلبى ، وبآمالى ، ومالى .. وقد تكونين نسيت ــ بعد انقضاء سبع سنوات على فراقنا ــ مغامرة حبنا الصبيانى ، لكنى لم أنس قط طيبتك أو وعدى لك ، فله قدسيته .. وانى اذ أصارحك القول بأن زواجى ليس سوى زواج مصلحة ، وبأنى لم أنس حبنا أيام شبابنا ، ألست أضع نفسى بذلك بين يديك ، وأجعلك الحكم الذى يقرر مستقبلى ومصيرى ؟.. وهل لا توافقيننى على أنى اذا نبذت أطماعى الاجتماعية فسوف أقنع راضيا بالسعادة البسيطة النقية التى يوحى بها دائما التفكير فيك ..؟

« ابن عمك المحب شارل »

« ملاحظة .. أرسل لك فى هذا الخطاب شيكا بثمانية آلاف فرنك تدفع لأمرك ذهبا ، وهى قيمة المبلغ الذى تعطفت فقدمته الى ، مضافة اليه فوائده . وانى فى انتظار وصول احدى حقائبى الى بوردو ، وفيها بضعة أشياء أرجو أن تسمحى لى بأن أرسلها اليك عربونا لشكرى الذى لا حد له وعرفانى بجميلك . وفى وسعك أن ترسلى لى صندوقى الذهبى بعربة البريد بعنوان : (دار دوبريون بشارع هيليران برتان)

بين الحياة والموت

صاحت أوجيني كمن تحدث نفسها : « أرسله اليه بعربة البريد ، وأنا التي كدت أدفع حياتي ثمنا له ! »

لقد غرقت سفينة آمالها غرقا رهيبا شاملا .. غرقت فلم يبق منها لوح خشبي واحد في المحيط الواسع !

وحدثت نفسها وهي تبكي : « كانت أمي على حق .. ما الحياة الا قصة عذاب .. وموت ! »

ومضت متباطئة الخطى من الحديقة الى البيت ، متجنبة المرور في الردهة، التي قبلها فيها قبلته الأولى ، في الظلام !.. لكنها حين دخلت الحجرة التي كانت تجلس فيها وأمها مع شارل ألفتها بدورها مفعمة بالذكريات .. فعلى رف المدفأة كانت آنية السكر المصنوعة من « السيفر » ، وآنية «صلصة» من الصيني كانت تستعملها في وجود شارل كل صباح !

وكان اليوم حافلا بالنسبة لأوجيني .. اذ لم تلبث نانون ان أعلنت قدوم كاهن الكنيسة ، وكان يمت بصلة القرابة الى كروشو ، ومن ثم يسعى الى تحقيق حلم القاضي دي بونفون .. وكان الأب كروشو قد ألح على الكاهن منذ بضعة أيام كي يحدث الآنسة جرانديه في ضرورة الزواج ، من الناحية الدينية ، بالنسبة لامرأة في مثل سنها ومركزها !..

لكن أوجيني ، اذ رأت الرجل يدخل ، حسبته قد أتى من أجل الألف فرنك التي تدفعها اليه كل شهر ليوزعها على فقراء كنيسته .. ومن ثم أرسلت نانون لتحضر المبلغ ، لكن الرجل ابتدرها قائلا :

ــ لقد جئت اليوم يا آنسة لأستشيرك في أمر فتاة مسكينة تهتم بأمرها مدينة سومور بأسرها .. فهي لا تعيش الحياة المسيحية الواجبة ، ولا تؤدي حق نفسها عليها !

فقالت : « يا سيدي القس ، انني لا أستطيع الآن ان أفكر في أمر أحد سواي . اني تعسة جدا ، ولا ملجأ لي غير الكنيسة ، فقلبها من السعة بحيث يتسع لأحزان البشر جميعا ، وحبها من السخاء بحيث لا نخشى أن أن ينضب يوما معينه ! »

ــ حسنا يا آنسة ، لكننا اذ نتحدث عن تلك الفتاة انما نتحدث عنك أنت . أصغي الي .. اذا كنت حريصة على خلاص نفسك ، فليس أمامك غير سبيلين الى ذلك : اما أن تغادري الحياة ، أو تعيشي فيها خاضعة

لقوانينها .. فتخيرى لنفسك واحدة من اثنتين : اما دعوة الارض ، أو دعوة السماء ! لكن ينبغى ان تفكرى طويلا وتصلى كثيرا قبل أن تتخذى قرارا حاسما مثل هذا . ان الزواج هو الحياة .. والدير هو الموت !

— الموت ؟.. ليت الموت يأتى سريعا يا سيدى !

— لكن عليك التزامات جسيمة ينبغى أن تفى بها للمجتمع يا آنستى . هناك أسرتك من الفقراء الذين تهبينهم الثياب والوقود فى الشتاء والعمل فى الصيف .. وان ثروتك العظيمة لهى قرض ، ينبغى أن تقدمى حسابا عنه ذات يوم . لقد طالما نظرت اليها كوديعة مقدسة . وانها لأنانية منك آن تدفنى نفسك فى دير ، فأنت ينبغى الا تعيشى وحدك فى دنياك ، لأنك من جهة كيف تحتملين عبء ثروتك الكبيرة بمفردك ؟ انك قد تفقدينها ، وسوف تتورطين فى منازعات قضائية لا نهاية لها .. وتجدين نفسك محاصرة بالمتاعب التى لا تعرفين كيف الخلاص منها !.. الا خذيها منى كلمة سواء : الزوج ينفعك فى ظروفك هذه ، ولا ينبغى أن تفرطى فيما عهد الله به اليك . انى اكلمك باعتبارك واحدة من قطيع حملانى العزيزة . وأنت تحبين الله باخلاص أقوى من أن يسمح للعقبات باعتراض سبيل خلاص نفسك فى هذه الحياة الدنيا .. أنت أداة من أجمل أدوات زينة هذا العالم ، ويجب أن تبقى فيه نموذجا للقداسة !

وعند هذا الحد أعلن قدوم مدام دى جراسان ، كانت زوجة المالى ترزح تحت عبء خيبة أمل وحقد بالغين ، وقد ظلت تتحين الفرص للانتقام .. فلما رأت القسيس تراجعت قائلة :

— أوه ، سيدى القس هنا ؟.. اذن فلن أقول حرفا . لقد جئت لأمور تتصل بالأعمال ، لكنى أراكما منهمكين فى شىء آخر !

فأجابها الكاهن : « سيدتى ، انى أترك لك الميدان ! »

فهتفت أوجينى : « سيدى القس ، أرجو منك أن تأتى مرة أخرى ، فانى فى أمس الحاجة الى مساعدتك هذه الأيام ! »

فقالت مدام دى جراسان مؤمنة :

— هذا صحيح ، يا طفلتى المسكينة !

وهنا التفت اليها الاثنان متسائلين ، فاستطردت قائلة :

— هل تعتقدين انى أجهل أن ابن عمك قد عاد الى فرنسا ، وانه يعتزم الزواج من الآنسة دوبريون ؟

ولاذت أوجينى بالصمت ، وقد اصطبغ وجهها بحمرة شديدة ، لكنها قررت من فورها الا تطلع أحدا منذ الآن على شىء من انبائها .. فبدت بعيدة الغور ، كما كان أبوها !.. وأجابت ضيفتها قائلة ، فى لهجة تغلب عليها المرارة :

— انى لا أفهم شيئا مما تقولين ، فتكلمى وأوضحى .. وفى وسعك أن

تتحدثي بحرية فى حضور سيدى القس .. فهو ناصحى ومرشدى كما تعلمين !

ـ اذن اليك يا آنسة خطاب زوجى ، اقرأيه بنفسك

وقرأت أوجينى الخطاب .. فاذا الزوج يتحدث عن عودة شارل الى باريس منذ شهر كامل ـ فى حين أنه لم يكتب الى الفتاة الا اليوم !.. ثم عن مقابلته له وحديثه معه بشأن ديون أبيه وتنصل الفتى منها...وأخيرا يوضح جراسان أن شرفه الذىارتبط بمقتضاه مع الدائنين بوعود مشددة ، خذله فيها جميعا شريكه جرانديه ، يحتم عليه أن يشهر افلاس المدين .. لكنه رأى الا يفعل ذلك الا بعد اخطار أوجينى ـ التى يحتفظ لها بأجمل الود والاحترام ـ بالأمر الذى يعتزمه نحو عمها ، والد شارل الذى سوف يتزوج فى القريب من الآنسة دوبريون !

واذ فرغت أوجينى من قراءة الخطاب قالت لمدام دى جراسان : « سوف نرى ما يمكن عمله فى هذا الشأن »

ثم التفتت الى الأب كروشو ـ بعد رحيل زائرتها ـ وسألته جادة : « سيدى القس .. هل تعتبر خطيئة أن تظل المرأة عذراء بغير زواج ؟ »

ـ انها مسألة تتعلق بالضمير ، ويصعب على حلها !.. ولكن اذا أردت معرفة رأى الشراح فيها فسوف أنبئك به

وانصرف الكاهن .. فصعدت أوجينى على الأثر الى حجرة أبيها وهناك قضت اليوم خالية الى نفسها .. حتى لقد أبت النزول لتناول الطعام برغم الحاح نانون عليها وتأنيبها لها !

وفى المساء ظهرت فى حجرة الاستقبال فى الساعة المألوفة التى يتوافد فيها الزوار .. وامتلأت الحجرة ليلتئذ بأكبر عدد منهم ، اذ لم يبق فى المدينة من لم يسمع بعودة شارل ، وبخيانته لعهوده وجحوده للجميل !

لكن أوجينى لم تشبع فضول الزائرين المتطفلين .. فقد دخلت القاعة متأخرة ، ولم يكن يبدو عليها أى أثر ينم عن انفعالها المكتوم أو التجربة القاسية التى مرت بها !. كانت تبتسم وهى تجيب على نظرات العطف والرثاء وكلمات العزاء التى تفضل الموجودون بها عليها .. لقد أخفت ألمها خلف قناع من أدبها الجم !

وحوالى الساعة التاسعة فرغ الحاضرون من لعب الورق فدفعوا قيمة خسائرهم وتهيأوا للانصراف .. وعندئذ وقع الحدث الذى هز نبأه مدينة سومور وضواحيها طيلة الايام التالية .. فقد التفتت ربة الدار الى القاضى دى بونفون وابتدرته قائلة :

ـ أرجو أن تبقى يا سيدى القاضى

وكان هذا القول العلنى أمام الملأ له معناه ، فأدرك الجميع أن الوارثة الغنية قد اختارت القاضى كروشو زوجا لها !

وحين خلت اليه ابتدرته قائلة فى صوت مختلج : « سيدى القاضى .. انى أعلم ما تهدف اليه من وراء الزواج بى .. فاقسم لى بشرفك أن تدعنى حرة حتى آخر حياتى ، والا تطالبنى بشىء من الحقوق التى يكفلها لك الزواج ازائى .. وعلى هذا أعطيك يدى فورا ! »

واذ رأت أوجينى الرجل يوشك أن يخر راكعا على ركبتيه أمامها استطردت قائلة : « انى لم أكمل كلامى بعد .. فينبغى أن أقول لك فى صراحة ان فى قلبى ذكريات لن تمحى أبد الدهر .. وان الصداقة هى كل ما أستطيع أن أمنح زوجى ، فلست أريد ان أهينه ولا أن أخون عهد قلبى .. لكنك لن تنال يدى وثروتى الا مقابل خدمة هائلة أريدك أن تؤديها لى ! »

فهتف القاضى : « أى شىء ؟ سوف أفعل من أجلك أى شىء ! »

فأجابته وهى تخرج من صدرها ايصالا بمائة سهم من أسهم بنك فرنسا : « اليك مليونا ونصف مليون فرنك ، عليك أن تحملها وتسافر الى باريس توا بغير ابطاء ، فلا تنتظر حتى الى الصباح !.. ثم تذهب لمقابلة مسيو دى جراسان ، فتطلب منه قائمة بأسماء دائنى عمى وقيمة ديونهم ، ثم تدعوهم الى الاجتماع وتسوى جميع مطالبهم قبل تركة عمى وليم جرانديه .. أعطهم مبالغهم مضافا اليها فائدة قدرها خمسة فى المائة من تاريخ الدين حتى اليوم !.. واحصل منهم على الايصالات القانونية المناسبة بتسلمهم حقوقهم كاملة .. انك الشخص الوحيد الذى أثق به فى اجراء هذا العمل ، فأنت رجل شريف نبيل ، وقد أعطيتنى وعدا وأقسمت لى بشرفك.. ولسوف أقوم برحلة الحياة الخطرة محتمية باسمك ، وأنا واثقة بأنك لا تريد أن تجعلنى شقية ! »

وخر القاضى على ركبتيه عند قدمى الوارثة الثرية ، وقد استبدت به فرحته ، وهتف فى انفعال : « سأكون عبدك المطيع ! »

.. بينما استطردت أوجينى وهى تنظر اليه فى هدوء :

ــ وحين تكتمل الايصالات فى حوزتك ، عليك أن تأخذها وتمضى الى حيث يقيم ابن عمى شارل جرانديه ، فتعطيه اياها ، مع هذا الخطاب . وحين تعود أغدو زوجتك !



فهم القاضى المهمة المطلوبة منه خير فهم ، فودع أوجينى وانصرف على عجل ، خشية أن يقع ما يعيد السلام والتفاهم بين الحبيبين !

أما أوجينى فلم يكد الرجل يخرج حتى غاصت فى مقعدها وانخرطت فى البكاء . لقد انتهى كل شىء ، وهذه هى النهاية !

وبدأ القاضى رحلته فى الليلة نفسها ، فبلغ باريس فى مساء اليوم التالى

..وفي صباح اليوم الذي يليه قصد الى دي جراسان فدبر معه أمر الاجتماع بالدائنين في مكتب مسجل العقود الذي أودعت لديه وثائق الديون

وفي الموعد المحدد بالضبط التأم عقد الجميع ، فدفع القاضي اليهم باسم الآنسة دي جرانديه قيمة ديونهم وفائدتها القانونية ، بين دهشتهم البالغة حد الذهول !.. ثم أعطى لمسيو دي جراسان مبلغ خمسين ألف فرنك أجرا له على مجهوده .. وبعد ذلك توجه الى حيث يقيم شارل ، فوجده في البيت، مشتبكا في مشادة مع حميه المركيز دوبريون ، الذي أكد له في اصرار ، واذلال ، أن زواجه من ابنته لا يمكن أن يتم الا بعد أن يوفي دائني أبيه كل ما في ذمته لهم !

وفي غمرة يأس الشاب وحيرته ، سلمه الرسول هذا الخطاب من أوجيني وقد كتبت له فيه تقول :

« ابن عمي العزيز .. لقد كلفت مسيو دي بونفون أن يسلمك ايصالات تسديد جميع ديون عمي ، ومعها هذا الخطاب ، اليك يدا بيد ، كي أستوثق من وصولها الى حوزتك .. لقد سمعت شائعات تردد نبأ التفكير في اشهار افلاس أبيك . وقد خطر لي أن ذلك لو حدث لسبب شيئا من التعقيد ، ولربما عرقل زواجك من الآنسة دوبريون . نعم يا ابن العم ، أنت على حق فيما يتعلق بذوقي ومسلكي .. فلقد عشت - كما قلت - بعيدة من العالم والمجتمع بحيث لا أكاد أعرف شيئا من أساليبه .. ورفقتي لك لا يمكن أن تعوضك عن حرمانك من المتع التي تطمع في أن تجدها في المجتمع . ومن ثم أرجو أن تسعد وفقا للمبادىء الاجتماعية التي ضحيت في سبيلها بحبنا الباكر . وان الشيء الوحيد الذي في طاقتي أن أمنحك اياه كي يتم عليك سعادتك هو اسم أبيك النظيف من كل شائبة ، فوداعا .. ولسوف تجد دائما في ابنة عمك الصديقة المخلصة أوجيني »

ولم يسع شارل برغم تلك المطامع الاجتماعية الا أن يفغر فاه دهشة وهو ينظر الى الايصالات والمخالصات !.. بينما قال له الزائر وهو يبتسم :

- وهكذا يستطيع كلانا أن يعلن نبأ زواجه !

- أوه ، اذن فأنت سوف تتزوج أوجيني ، أليس كذلك ؟.. لكم يسرني ذلك ، انها فتاة طيبة القلب !..

ثم أردف وقد انثال الى ذهنه خاطر مفاجىء :

- رباه ... يبدو أنها غنية جدا !

فأجابه القاضي وعيناه تلمعان بوميض خبيث :

- منذ أربعة أيام كانت تملك تسعة عشر مليونا .. أما اليوم فهي تملك سبعة عشر فقط !

وكاد شارل أن يصعق ، فكرر وهو يحدق في القاضي :

- سبعة عشر مليونا ؟

ـ نعم ، سبعة عشر مليونا ٠٠وحين نتزوج سوف يكون لنا ايراد سنوى قدره سبعمائة وخمسون ألف ريال !

فقال شارل وقد استرد شيئا من رباطة جأشه :

ـ يا لابنة عمى العزيزة !٠سوف يستطيع كلانا أن يضاعف ثروةالآخر!

ـ بلا شك ٠٠ وهناك؟شيء آخر٠٠صندوق ذهبى صغير كلفتنى الآنسة أوجينى أن أسلمك اياه يدا بيد !

وفى تلك اللحظة فتح الباب ودخلت منه المركيزة دوبريون ـ والدة العروس ـ فقالت كمن لم تتنبه لوجود زائر غريب فى المكان :

ـ أصغ الى يا عزيزى ٠٠ لا تعبأ بما قاله لك الرجل المخرف زوجى ٠ لقد أدارت الدوقة دى شوليو رأسه بأفكارها ٠٠ لكنى أعود فأؤكد لك أن لا شيء البتة يحول دون زواجك !

فأجابها شارل مزهوا :

ـ لا شيء يا سيدتى ٠٠ فان الملايين الثلاثة التى كان أبى مدينا بها قد دفعت لأصحابها أمس !

ـ نقدا ٠٠؟

ـ وكاملة ، مع فوائدها القانونية !٠٠ فلقد رأيت أن أرد اعتباره !

ـ يا للحماقة !٠٠

وعندئذ فقط بدا أنها تنبهت الى وجود القاضى كروشو ، فهمست فى أذن شارل :

ـ من يكون هذا الشخص ؟

فأجابها بصوت هامس :

ـ وكيل أعمالى !

واذ ذاك ألقت المركيزة الى القاضى تحية متكلفة وغادرت المكان ٠٠ وبعد لحظة تناول القاضى قبعته ثم قال بجفاء :

ـ طاب يومك يا ابن العم !

بينما راح شارل يحدث نفسه :

ـ ان ببغاء سومور يسخر منى ؟٠ سوف أنتقم منه ٠٠

لكن القاضى كان قد ذهب !

وبعد ثلاثة أيام وصل القاضى دى بونفون الى سومور ، حيث أعلن زواجه من أوجينى ٠٠ وبعد نحو ستة أشهر عين مستشارا فى محكمة « انجر » الملكية ، فسافر الزوجان معا اليها ٠٠ ولكن قبل مبارحة أوجينى لسومور صهرت الحلى التى كانت وديعة غالية شبه مقدسة لديها ٠٠ ثم أعطت الذهب المصهور ، ومعه مبلغ الثمانية آلاف فرنك التى ردها ابن عمها اليها ، الى

صندوق الكنيسة كى توقد به شموع وتقام لوحة تذكارية أمام المذبح ، فى المكان الذى طالما وقفت فيه تصلى من أجل سلامة ابن عمها فى غربته !

ومنذ ذلك التاريخ انقضت حياتها متنقلة بين انجير وسومور ٠٠ وكوفىء إخلاص زوجها للحكومة ابان احدى الأزمات السياســية فرقى رئيسا للمحكمة ، ثم رئيسا أعلى ٠٠ وعلى أثر ذلك بات الرجل الطموح يتطلع الى الانتخابات العامة فى لهفة ، كى يرشح نفسه لاحدى الدوائر ٠٠ كما خالجه الأمل فى الحصول على لقب الامارة !

٠٠ لكن شيئا من هذا الحلم الاخير لم يتحقق، فقد مات الرجل بعد إنتخابه نائبا لسومور بثمانية أيام فقط !٠٠ وكأن الله قد عاقبه على خططه ومطامعه الأشعبية ، وعلى خدعته القانونية الماكرة التى احتال بها حتى ضمن عقد الزواج نصا غير ملحوظ يقضى بأنه فى حالة ممانعة أحدالطرفين فى معاشرة الآخر معاشرة الازواج ، تنتقل ثروته الى الطرف الثانى ٠٠ ولعل هـــذا يفسر سر الكرم النبيل ، الذى أبداه الزوج نحو زوجته فى هــذا الصدد ، محترما شرطها بلا تذمر ٠٠ الأمر الذى جعل أكثر الناس عطفا ومحاباة لأوجينى ينحون عليهـــا باللائمة ويتهمونها بالقســوة والتعلق السخيف بغرامها الفاشل وحزنها الكظيم !

وصارت مدام دى بونفون أرملة بعد ثلاث سنوات من زواجها !٠ أرملة ذات ايراد سنوى قدره ثمانمائة ألف ريال ! ولكن ماذا تصنع بالمال ؟ انها الآن فى الاربعين ، ذات جمال هادىء رصين ، وصوت به مسحة من الحزن الرزين ٠٠ تقضى أيامها كما كانت فى الماضى ، على وتيرة واحدة وتعيش المعيشة البسيطة التى كانت تحياها أيام كانت تدعى « أوجينى جرانديه » ٠٠ النار لا توقد فى الردهة الا فى المواعيد التى حددها أبوها !٠٠ وجميع « النظم » التى كانت سائدة فى أيام يفاعتها ما تزال سائدة ٠٠ وهى تلبس كما كانت تلبس أمها ٠ وذلك البيت العتيق الرطب المعتم يشبه حياتها٠٠!

وهى تعنى بالاشراف على ضياعها الواسعة ، وثروتها تتضخم عاما بعد عام ٠٠ وهم يتهمونها بالبخل والتقتير ، مثل أبيها ، لكن تبرعاتها وهباتها لمؤسسات الخير والبر والكنائس والملاجىء ومعاهد العميان كانت تكذب فى قوة ذلك الاتهام !

انها امرأة تعيش فى هذا العالم ، لكنها ليست منه ٠٠ امرأة يؤهلها كل شىء لان تكون زوجة وأما ، لكنها مع ذلك بلا زوج، ولا ولد !٠٠ وهم يطلقون عليها أحيانا فى مجال المزاح « الآنسة » ويتحدثون أحيانا عن قرب زواجها للمرة الثانية ، من المركيز دى فروادفون ، وقد بدأت أسرته تضرب نطاقا حول الوارثة الغنية كما فعلت أسرة كروشو من قبل ، لكنها تدرك ما يبغى المرشح الجديد منها ، فتلتفت أحيانا الى خادمتها المخلصة وتقول فى مرارة :
« ليس فى الدنيا من يحبنى سواك أنت يا نانون »

الشقيقات الثلاث



الهلال

مجلة الشرق الأولى .. تحمل لك انفس ما فى الغرب والشرق من علوم ومعارف وأمتع ما فى الآداب الحديثـــة من روائع

اقرأ « هلال يونيه القادم »



كتاب الهلال

سلســـلة كتب شــــهرية نفيسة لكبار المؤلفين والكتاب فى بلاد الشرق والغـــرب

اقرأ « عبقرية خالد »

بقلم الاستاذ عباس محمود العقاد

فى ٥ يونيه القادم



روايات الهلال

سلسلة شائقة من روائع القصص العالمى لأشهر كتاب القصة العالميين

اقرأ « مأساة مايرلنج »

تأليف « بول ريبو »

فى ١٥ يونيه القادم



الوصول إلى الحقيقة يتطلب إزالة العوائق
التي تعترض المعرفة ، ومن أهم هذه العوائق
رواسب الجهل وسيطرة العادة ، والتبجيل المفرط لمفكري الماضي
إن الأفكار الصحيحة يجب أن تثبت بالتجربة

حصريات مجلة الابتسامة

** شهر يناير 2020 **

www.ibtesamah.com/vb

التعليم ليس استعداداً للحياة ، إنه الحياة ذاتها
جون ديوي
فيلسوف وعالم نفس أمريكي

اقرأ الشقيقات الثلاث



Exclusive
For
www.ibtesama.com